جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليـــا

الحديقة في العمارة الإسلامية

" دراسة تحليلية لمدلولها الرمزي ووظيفتها المعمارية "

إعداد

شفيق أمين بعارة

إشراف

د. هيثم الرطروط

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الهندسة المعمارية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين .

2010

الحديقة في العمارة الإسلامية

" دراسة تحليلية لمدلولها الرمزي ووظيفتها المعمارية "

إعداد:

شفيق أمين بعارة

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 17\1\2010 وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيـــــع
1) د. هيثم الرطروط	رئيساً	....
2) د. جمال عمرو	ممتحناً خارجياً	....
3) د. خالد قمحية	ممتحناً داخلياً	.... 3/16

الإهداء

يمر في حياة المرء الكثير من الناس، لكن قلة منهم يترك أثرا فيها، وقلة منهم لهم الفضل في كون المرء من يكون، ولهؤلاء اهدي عملي المتواضع هذا .

إلى أبي وأمي اللذين ربياني صغيرا وكانا نبع محبة وعطف لم ولن ينضب بمشيئة الله، إلى أخي و صديقي محمد الذي كان لي خير عون في الشدة والغربة، إلى عائلتي وأساتذتي وأصدقائي الذين أثروا حياتي بمآثرهم منهم من هو حي يرزق ومنهم من ارتفع إلى جنان الخلد ليلاقي وجه ربه الكريم، وإلى كل من زرع الله بقلبه محبة هذا الوطن فسهر لرفعته وعزته.

شكر وتقدير

إلى أساتذتي الذين كانوا قناديل أضاءت لي الدرب ولم يبخلوا علي بالوقت والمعلومات، واخص بالذكر الدكتور هيثم الرطروط الذي أشرف على هذا البحث وكان له الفضل بخروجه بالصورة التي هو عليها وإلى أعضاء لجنة المناقشة الدكتور خالد قمحية والدكتور جمال عمرو تقديرا لجهودهم.

إقــرار

أنا الموقع أدناه , مقدم الرسالة التي تحمل العنوان :

الحديقة في العمارة الإسلاميـــة" دراسة تحليلية لمدلولها الرمزي ووظيفتها المعمارية "

اقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص , باستثناء ماتمت الإشارة إليـــه حيثما ورد , و أن هذه الرسالة ككل , أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى .

Declaration

The work provided in this thesis , unless otherwise referenced , is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name : Shafeeq A. Bara | أسم الطالب : شفيق أمين بعارة

Signature: | التوقيع :

Date: 17/1/2010 | التاريخ : 17\1\2010

أ: فهرس المحتويات :

الفصل الثالث: خصائص الحديقة لدى المسلمين وعناصرها المعمارية والوظيفية.

الفصل الرابع: الإسلام والمدلول الرمزي للحديقة عند الحضارات القديمة.

الفصل السابع : الخلاصة و التوصيات .

ب: فهرس الأشكال :

الفصل الأول: التطور التاريخي للحدائق عند العرب والمجتمعات الإسلامية المختلفة.

الفصل الثاني : أنماط و أشكال الحديقة في المجتمعات الإسلامية.

الفصل الثالث: خصائص الحديقة لدى المسلمين وعناصرها المعمارية والوظيفية.

الفصل الرابع: الإسلام والمدلول الرمزي للحديقة عند الحضارات القديمة.

ت:

الحديقة في العمارة الإسلامية

" دراسة تحليلية لمدلولها الرمزي ووظيفتها المعمارية "

إعداد

شفيق أمين بعارة

إشراف

د. هيثم الرطروط

الملـــخص:

لعبت الحديقة دورا كبيرا في الحياة اليومية للمجتمعات المسلمة , حيث كانت تصمم كفراغ خـــارجي مخصص لاستخدامات الأسرة المختلفة وبما يراعي حاجة هـــذه المجتمعـــات إلـــى الخصوصـــية, وبالإضافة إلى ذلك فان تصميم هذه الحدائق وعناصرها المعمارية خلال الفترات الإسلامية المختلفة حملت في طياتها معان ومدلولات رمزية, الأمر الذي دفع العديد من الباحثين مثل صفي الدين حامد إلى الإشارة أن المسلمين استطاعوا الوصول بحدائقهم إلى مستويات غيـــر مســـبوقة مـــن الإبـــداع المعماري والفني، إلى حد وصفهم للحدائق الإسلامية بأنها "جنه على الأرض" .

إلا أن معظم الباحثين في مجال الحديقة في المجتمعات المسلمة اختاروا منهجية الوصف التـــاريخي المقتصر على حالة دراسية أو أكثر في أبحاثهم, ومعظم الدراسات السابقة حول الحدائق في العمـــارة الإسلامية ركزت على جانب الوصفي المعماري للحدائق الكبـــرى، وأغفلـــت المـــدلولات الرمزيـــة والفلسفية والاجتماعية في غالب الأحيان أو اكتفت بالإشارة إليها من بعيد.

هذا عدا عن قيام بعض الباحثين باتهام المصممين في العمارة الإسلامية بنســـخ وســـرقة منجـــزات الحضارات السابقة مثل الحضارة الفارسية، التي دأب عدد من الباحثين على الإشارة إلى الحدائق في المجتمعات المسلمة على أنها فارسية الطراز والجذور.

جاء هذا البحث كمحاولة متواضعة لإلقاء الضوء على الفكر المتقدم الذي يقف خلـــف تصـــميم هـــذه الحدائق و عناصرها المعمارية , كما يلقي الضوء على سلسلة التطـــور التـــاريخي للحـــدائق عبـــر العصور الإسلامية المختلفة و يناقش النظريات المختلفة التي طرحها الباحثون , من خلال اتباعـــه

لمنهجية الدراسة المقارنة المرتكزة على الدراسة التاريخية والتحليلية وذلك من خلال مقارنة وتحليل مجموعة من الحالات الدراسية المختارة.

كما تطرقت الدراسة في احد فصولها إلى الحديقة في المجتمع الفلسطيني المعاصر و التغيرات التـــي حصلت على مفهومها و تصميمها منذ بداية القرن الماضي و حتى العام 2009 م.

ث :مقدمة :

تمكن المسلمون من الوصول بحضارتهم إلى درجات متقدمة من الرقي الحضاري والفني القائم على فهم راسخ وعميق لتعاليم الدين الإسلامي وفكره السمح وحاجات المجتمع وعاداته وتقاليده، ولم يقتصر هذا التقدم الحضاري على فن بحد ذاته أو على عمارة المباني فحسب بل تعداها إلى مختلف المجالات الحياتية، واحد هذه المجالات التي أبدع فيها المسلمون الحدائق والفراغات الخضراء التي يدور البحث حولها .

يعرف الباحث صفي الدين حامد الحديقة بقوله: "على أنها مكان يلبي الحاجة البشرية لاستنشاق الهواء النقي ومكان دافئ للجلوس والاستراحة مع منظر طبيعي جميل للناظرين ترادفه أصوات جميلة لزيادة المتعة مع مكان خاص للاسترخاء والتفكير والتأمل والاقتراب أكثر من الطبيعة"(Hamed ,1994,P. 2).

إلا أن الحديقة على مدى تاريخ البشرية لعبت دورا مهما في معظم الحضارات البشرية المعروفة، بحيث كان لها وظائف أخرى متعمقة في فكر تلك المجتمعات بحيث لم تعد مجرد حدائق مجردة كما يرى الكثير من الباحثين ومنهم كويل الذي يصف الحدائق بقوله: "ان الحدائق لم تكن مقتصرة على أداء وظائف تتطلبها الطبيعة البشرية بل تعدتها منذ البداية لتصبح فناً رفيعا".

(Cowell , 1978 ,P.P. : 8-9) .

ويرى العديد من الباحثين أن المسلمين استطاعوا الوصول بحدائقهم إلى مستويات غير مسبوقة من الإبداع المعماري والفني، إلى حد وصفهم للحدائق الإسلامية بأنها "جنه على الأرض" .

وهو الأمر الذي دفع عدد من الباحثين إلى القيام بعدد الدراسات السابقة حول الحدائق في العمارة الإسلامية، ركز معظمها على جانب الوصفي المعماري للحدائق الكبرى، وأغفلوا المدلولات الرمزية والفلسفية والاجتماعية في غالب الأحيان واكتفوا بالإشارة إليها من بعيد.

هذا عدا عن قيام بعض الباحثين باتهام المصممين في العمارة الإسلامية بنسخ وسرقة منجزات الحضارات السابقة مثل الحضارة الفارسية، التي دأب عدد من الباحثين على الإشارة إلى الحدائق في المجتمعات المسلمة على أنها فارسية الطراز والجذور.

ولم تقتصر الحديقة في الحضارة الإسلامية على فئة مسلمة معينة أو على فترة زمنية أو منطقة جغرافية بعينها، حيث أنتشر الاهتمام بها في مختلف المجتمعات والفترات الإسلامية، وإن تفاوتت درجة التطور والغنى بالعناصر المعمارية والزخارف من مجتمع لأخر ومن فترة لأخرى.

ورغم ذلك فإن الناظر إلى عمارة هذه المجتمعات التي يوحدها الدين الإسلامي يرى بطانة دقيقة من التجانس المعماري وتشابهاً في أسلوب التصميم، حيث ينسحب على مختلف إنجازاتها المعمارية ومن ضمنها الحدائق .

مما سبق يلاحظ أن المهندسين في العمارة الإسلامية تمكنوا من تحقيق التوازن بين حاجة المجتمع إلى الفراغات المغلقة (المباني) والفراغات الخضراء المفتوحة (الحدائق)، وانعكس ذلك على تخطيطها ومساحتها بما يشير إلى القدرة التخطيطية العالية التي تمتعوا بها.

ج: أهداف و أسئلة الدراسة :

تسعى الدراسة لتحقيق عدة أهداف و الإجابة على العديد من الأسئلة, أهمها:

1- بيان مفهوم الحديقة في العمارة الإسلامية والوقوف على تعريفها ووظيفتها.

2- دراسة الدور الذي لعبه الفكر الإسلامي في صياغة وتصميم هذه الحدائق .

3- أبراز الفكر التصميمي المتقدم الذي وصل إليه المعماريون في التعامل مع الفراغات الخضراء على مختلف مستوياتها .

4- بيان تعمق هذا الفكر في المجتمع والوقوف على تعريف الحديقة لدى المسلمين .

5- تحليل العناصر المعمارية لهذه الحدائق وكيفية التعامل معها، وربطها بالمحددات الفكرية والثقافية والبيئية .

6- دراسة الأساليب التي تعامل بها المسلمون مع المشاكل والمعطيات البيئية والاجتماعية داخل هذه الفراغات مما سيساعد على إيجاد حلول لهذه المشاكل في الوقت الحاضر .

7- دراسة الكيفية التي حقق بها المسلمون الخصوصية على المستويين الفردي والجماعي.

8- دراسة التغيرات التي حصلت على الحدائق في المجتمع الفلسطيني خلال القرن الماضي واستخلاص المشاكل الحاصلة ومسبباتها.

ح: المسوغات و المشكلات:

تعاني المجتمعات المسلمة حاليا من فقدان التواصل مع الفراغات الخضراء المفتوحة لا سيما بغياب الحدائق الخاصة وندرة الحدائق العامة التي لا تتناسب أصلا مع ثقافة المجتمع، وقد تغير الدور الذي لعبته الحديقة في العمارة الإسلامية بعد أن فقدت الكثير من الوظائف التي كانت تتناسب معها سابقا.

أضف إلى ذلك :

1– ندرة الأبحاث التي قام بها باحثون مسلمون في هذا المجال، وتجاهل الفكر الإسلامي خاصة بغياب التوثيق وفقدان ما تبقى من أمثلة حية .

2– اقتصار هذه الأبحاث على أمور عامه تفتقر إلى التفصيل وتكتفي بذكر المحددات التصميمية بشكل عام وغالبا ما تدور حول المباني العامة والملكية وتهمل مفهوم الأشكال المختلفة للحدائق وعلاقتها بالمستوى الحضري ومدى تلبيتها لوظائفها الرئيسية.

3– تركيز عدد من الباحثين الغربيين أمثال كويل (Cowell) وجوليكو (Jellicoe) على الحديقة في المجتمعات المسلمة عبر منهجين :

الأول :– الوصف المعماري التاريخي وتجاهل الفكر والثقافة التي تقوم عليها أو حتى بذكر المفهوم الأساسي (جنه على الأرض) دون التعمق في هذا المفهوم.

الثاني: – الميل إلى تهميش وتقليل انجازات التاريخ الإسلامي من خلال الادعاء بأن المسلمين قاموا بنسخ إنجازات الحضارات السابقة ووضع الحدائق الإسلامية ضمن امتداد الحدائق الفارسية عدا عن اتهامها بالجمود .

خ: فرضيات البحث :

1– من خلال دراسة عدد من أمثلة الحدائق الإسلامية يرى الباحث أن المصممين في العمارة الإسلامية استطاعوا التعامل مع الحدائق (الفراغات الخضراء) في العمارة الإسلامية بشكل متقدم حقق التوازن بين البيئة المحيطة والمباني ومتطلبات الأفراد.

2– كما يرى أن هذا الفكر أستطاع تحقيق الارتباط والتواصل بين المجتمع والحصيلة المعمارية (المتمثلة هنا بالحديقة) بما تحمله من مدلول رمزي.

3- كما يرى الباحث أن الحديقة في العمارة الإسلامية وصلت إلى أوج تطورها حصيلة لقرون طويلة من العمل والتطور المعماري والفني ولم تكن ناتجا لعملية نسخ عن الحضارات السابقة كما يرى بعض الباحثين.

4- كما يرى الباحث أن الحديقة في العمارة الإسلامية امتازت بالتنوع والغنى الفني على عكس ادعاء بعض الباحثين لها بالجمود وعدم الخروج عن نمط محدد.

د: الحالة الدراسية :

سيتم الاستعانة بعدد من النماذج الدراسية على امتداد العالم الإسلامي حتى الفترة العثمانية مع التركيز على الحدائق الكبرى في منطقتين أساسيتين هما حدائق القصور في الأندلس وحدائق القصور والمزارات في شبه القارة الهندية في الفترة الإسلامية المتأخرة نظراً لأنهما يمثلان قمة التطور في تخطيط وتصميم الحدائق في الفترة الإسلامية.

بما يتيح الإطلاع على فترتين زمنيتين مختلفتين في البيئة والجغرافيا والثقافة، كما أن هذه الحدائق من الأمثلة القليلة النادرة التي لا تزال قائمة وتم الحفاظ عليها ولم تطرأ على عناصرها المعمارية الكثير من التعديلات، عدا عن توفر مصادر معلومات كافية لأغراض الدراسة المقترحة .

بالإضافة إلى ذلك سيتم مقارنة النتائج بالحدائق في المجتمع الفلسطيني المحلي الحالي وتحديدا (مدينة نابلس كحالة دراسية) بما يتيح لنا معرفة التغييرات الحاصلة في الفكر المجتمعي وأهمية ودور الحدائق ونظرة المجتمع إليها حاليا وكيفية تطويرها وتحسينها في المستقبل.

ذ: منهجية البحث :

سيعتمد البحث على منهاج الدراسة المقارنة المرتكزة على الدراسة التاريخية والتحليلية، وذلك من خلال مقارنة وتحليل الحالات الدراسية المختارة وملاحظة أوجه الشبه والاختلاف الحاصل بين حالة وأخرى من خلال المحددات التي تميز العمائر الإسلامية عن غيرها، وذلك عن طريق دراسة وفهم :

1 - عقل وشخصية الإنسان المسلم .

2 - المدلول والبعد الفلسفي والرمزي الذي يعطى العمل الفني أو المعماري للحدائق تميزه.

3 - الأشكال المستخدمة بتصميم الحدائق الإسلامية .

حيث أن تصميم الحدائق الإسلامية له أبعاد عديدة سواءً ثقافية (فكر المجتمع وأثر الحضارات السابقة) أو دينية (القرآن والسنة) أو جغرافية ومحلية (البيئة والمناخ والمواد المتوفرة) أو حتى سياسية (الاستقرار والأمن والقوة والاقتصاد).

كذلك سيستعين البحث بالأدوات العلمية من خلال المخططات المعمارية والصور الفوتوغرافية والمصادر الأدبية وغيرها.

ر: مصادر المعلومات:

هناك عدد من مصادر المعلومات التي ستستعين بها الدراسة وهي :

1- المراجع المكتبية : البحث في الكتب والمراجع والمجلات العربية والأجنبية والدينية والمعمارية و التاريخية المختصة .

2- المراجع الإلكترونية : يتوفر العديد من المواقع على الإنترنت التي تعنى بالعمائر الإسلامية والفراغات الخضراء والتي تحوي دراسات سابقة ذات علاقة بالموضوع .

3- متابعة أخبار الندوات العالمية والمحلية في وسائل الأعلام المختلفة المتعلقة بهذا الموضوع .

4- القيام بمقابلات مع ذوي الخبرة والاختصاص في الشؤون المعمارية والثقافية.

ز: الدراسات السابقة :

هناك مجموعة من الدراسات السابقة التي قام بها العديد من الباحثين حول الحدائق في العمارة الإسلامية ركز معظمها على جانب الوصفي المعماري للحدائق الكبرى ،وأغفلوا المدلولات الرمزية والفلسفية والاجتماعية في غالب الأحيان وإكتفوا بالإشارة أليها من بعيد، ومن هذه الدراسات:

1- دراسة بعنوان: جنة على الأرض(الحدائق التاريخية في الشرق الأوسط)، للباحث صفي الدين حامد نشرت عام 1994 . (Hamed ,1994)

تناولت الدراسة عامل وحدة الطابع المعماري التي تجمع بين الحدائق الإسلامية التاريخية على امتداد العالم الإسلامي وإلى محددات التصميم بشكل عام وإلى مجموعة العناصر المعمارية الأساسية كما يراها صاحب الدراسة وأشار إلى استخدامها في مناطق مختلفة وفترات متعددة بشكل عام، وهي الدراسة الوحيدة الموثقة لباحث مسلم في هذا المجال مما جعل هذه الدراسة أقرب إلى استيعاب الفكر

الإسلامي عن تلك التي قام بها الباحثون الغربيون ويأخذ عليها بقائها عامة جدا وعدم تطرقها إلى التفاصيل التطبيقية والجذور الرمزية.

2- دراسة بعنوان : الحديقة كفن رفيع، من القدم إلى الوقت المعاصر، للباحث كويل، نشرت عام 1978. (Cowell. , 1978) .

تتناول الدراسة الحدائق كفن متقدم له علاقة بالعادات والثقافات المجتمعية وذلك خلال الفترات التاريخية المختلفة منذ حضارة ما بين النهرين وحتى الوقت المعاصر، تتطرق الدراسة في احد فصولها إلى الحدائق في المجتمعات الإسلامية من خلال تطرقها إلى الحدائق في الديانات الكبرى ومدى علاقة الثقافة والممارسات الدينية السائدة لهذه المجتمعات بتصميم الحدائق وبما نتج من عناصر معماريه، وتؤكد الدراسة أن المسلمين هم أول من طبق وصف الحدائق في الكتب السماوية في بناء الحدائق ومن ثم تبعهم المسيحيون باستخدام وصف جنة عدن في الإنجيل في رسوماتهم وتصوراتهم للحديقة المثالية بفترة طويلة.

ويأخذ على الدراسة: تصنيفها حدائق المسلمين ضمن امتداد الحدائق الفارسية وعدم تعمقها في الوصف المعماري للحدائق وتركيزها على الجانب الثقافي فقط.

3- دراسة بعنوان: انطباعات من غرناطة وقصر الحمراء، للباحث ديبرانجي (De Prangey) ،نشرت عام 1978. (De Prangey ,1996).

يقوم البحث على الوصف المعماري التاريخي لقصر الحمراء في غرناطة حيث يصف الباحث القصر معماريا وفنيا ويحاول بناء صورة القصر والحدائق كما كانت في نهاية العهد الإسلامي وبداية الحكم الأسباني من خلال مجموعة من اللوحات التي رسمها فنانين للقصر وفقا للروايات والحفريات الأثرية، والبحث غني بالمخططات المعمارية والصور الحديثة والرسومات التوضيحية .

4- مقال بعنوان : نظرة إلى الحدائق الفارسية الإسلامية، للباحثة علياء حسن، نشرت عام 1999. (Hassan,1999).

يعتمد المقال على الوصف المعماري التاريخي لمجموعة من الحدائق الإسلامية التاريخية في إيران (بلاد فارس) ويصف التطور المعماري الذي وصلت إليه تلك الحدائق، ويأخذ على هذه الدراسة

تصنيفه جميع الحدائق الإسلامية ضمن امتداد الحديقة الفارسية قبل الإسلام متجاهلا التطور والتنوع الكبير الذي أضافه الإسلام لهذه الحدائق.

هذا كله بالإضافة إلى مجموعة من الدراسات والمقالات لباحثين غربيين (مستشرقين) : تشير إلى الحديقة الإسلامية بوصفها كجنة على الأرض ومع التطرق لوصف معماري تاريخي لحدائق بعض القصور خاصة في الأندلس (أسبانيا) والهند، ولكن يأخذ عليها عدم التطرق لتحليل العناصر وربطها بالمحددات الفكرية والثقافية بالإضافة إلى محاولة البعض منهم تهميش دور المسلمين واتهامه المسلمين بنسخ وسرقة حدائق الحضارات السابقة، بالإضافة إلى أنها لم توضح الدور أو الوظيفة الحقيقية التي قامت بها تلك الحدائق في العمارة الإسلامية من حيث توفير الاحتياجات الوظيفية، وكذلك الخصوصية على مستوى الفرد والمجتمع .

س: محتويات الدراسة:

يتكون البحث من المقدمة بالإضافة إلى سبعة فصول :

الفصل الأول: التطور التاريخي للحدائق عند العرب والمجتمعات الإسلامية المختلفة :

وسيتطرق هذا الفصل إلى مفهوم الحديقة في الفكر الإسلامي، من خلال تعريفها، والمعنى اللغوي وكذلك يناقش تسلسل تطورها خلال العصور والفترات الإسلامية المختلفة .

الفصل الثاني : أنماط و أشكال الحديقة في المجتمعات الإسلامية :

وسيتطرق هذا الفصل إلى الأنماط والأشكال المختلفة للحدائق التي تطورت خلال الفترات الإسلامية المختلفة، ومميزات كل منها، مثل: الأفنية الداخلية للمنازل والقصور والحدائق الكبرى مثل الحدائق الملكية وحدائق المزارات.

الفصل الثالث : خصائص الحديقة لدى المسلمين وعناصرها المعمارية والوظيفية:

وسيتطرق هذا الفصل إلى مميزات الحديقة في المجتمعات الإسلامية وسيحاول استخلاص العناصر المعمارية الأساسية المتكررة وبيان التغييرات الحاصلة عليها وفقا للمحددات التصميمية التي اتبعها المسلمون وسبق ذكرها خلال هذا البحث، وذلك من خلال المقارنة والتحليل للحالات الدراسية المختلفة.

الفصل الرابع: الإسلام والمدلول الرمزي للحديقة عند الحضارات القديمة:

وسيتطرق هذا الفصل إلى مفهوم الحديقة كامتداد للفكر المعماري والفني الإسلامي من خلال تصوير الجنة كفكر شامل للعمارة والفنون الإسلامية المختلفة، كما سيتطرق إلى فكرة تصوير الجنة عند الحضارات القديمة الأخرى .

الفصل الخامس : الأصول المعمارية للحدائق عند المسلمين:

وسيبحث هذا الفصل في الأفكار والنظريات التي يطرحها الباحثون حول الأصول المعمارية للحدائق في المجتمعات الإسلامية مثل نظرية الأصول الفارسية وأصل الشكل الرباعي .

الفصل السادس : الحديقة في المجتمع الفلسطيني في العصر الحديث 1918–2009 نابلس كحاله دراسية:

وسيبحث هذا الفصل في دور الحديقة ووظيفتها في العصر الحديث والتغيرات التي حصلت عليه في القرن الماضي، ونظرة المجتمع إليها والتغيرات الحاصلة في المفهوم والفكر التصميمي والعناصر المعمارية والوظيفية المستخدمة، وسيتطرق إلى المشاكل التي تعاني منها الحدائق في المجتمع الفلسطيني حاليا.

الفصل السابع : الخلاصة و التوصيات .

الفصل الأول

التطور التاريخي للحدائق عند العرب والمجتمعات الإسلامية المختلفة.

1-1 : تعريف الحديقة.

1–1–1: الحديقة لغة.

1–1–2: مفهوم الحديقة في الحضارات المختلفة.

1–1–3: مفهوم الحديقة عند المسلمين.

1–2: التطور التاريخي للحدائق عند العرب والمسلمين.

1–2–1: الحديقة عند عرب الجاهلية .

1–2–2 : الحديقة في فجر الإسلام (مجتمع المدينة المنورة) .

1–2–3: الحديقة في الفترة الأموية الأولى (661–750 م).

1–2–4: الحديقة في الفترة العباسية (750 – 969 م).

1–2–5: الحديقة في الأندلس.

1–2–6: الحديقة المغولية في آسيا و الهند.

1–2–7: الحديقة في تركيا العثمانية.

الفصل الأول

التطور التاريخي للحدائق عند العرب والمجتمعات الإسلامية المختلفة.

يتطرق هذا الفصل إلى مفهوم الحديقة في الفكر الإسلامي، من خلال تعريفها، والمعنى اللغوي وكذلك يناقش تسلسل تطورها خلال العصور والفترات الإسلامية المختلفة .

لا يتطرق المؤرخون والباحثون المستشرقون إلى الحدائق في المجتمعات الإسلامية إلا من خلال ربطها بالحدائق الفارسية، حيث اعتمدوا في ذلك على الكثير من المغالطات التاريخية منها ادعاء تخلف العرب وبداوتهم وتجاهلهم التسلسل التاريخي لتطور هذه الحدائق، سواء كان ذلك بحسن نية أو غير ذلك، وللأسف تأثر بهم العديد من الباحثين المسلمين فأصبحوا يكررون ادعاء هؤلاء دون محاولة التمحيص في دقة معلوماتهم .

ولم تظهر الحدائق في المجتمعات الإسلامية من العدم بل كانت نتاجا لسلسلة طويلة من التطور والإثراء بالمفاهيم التي تفاعلت مع العادات والثقافة المجتمعية لهذه الشعوب منذ ما قبل الإسلام، والتي عمل الإسلام على تحييد ما هو غير مناسب منها وتطوير وإثراء ما أنسجم مع رسالته وقيمه .

وبعد انتهاء كويل (Cowell) من وصف العرب المسلمين الأوائل بالبداوة والجهل وأنهم لم يتعدوا مستوى رعاة للأغنام وقطاع طرق ،أورد مستهجنا أمثلة على اختلاف تعامل المسلمين مع الحضارات التي وقعت تحت سيطرتهم ،ومنها عدم اهتمام العرب بحضارة مدينة الإسكندرية درة الشرق الرومانية بما حوت من مباني و رخام وأعمدة وحدائق، بل أنهم لم يتورعوا عن تدميرها بعد خمس سنوات من احتلالها لقمع ثورة قام بها سكانها .

ويضيف كويل" إلا أن العرب على ما يبدوا تعلموا من أخطائهم لاحقا من خلال اهتمامهم بإنجازات الحضارة الفارسية في الشرق، التي أصبحت بعد حوالي 200 سنة مصدر الهام لعمائر المسلمين في قصورهم ومساجدهم ".(Cowell , 978,P.:72).

والأمر الذي لم يستطع كويل والعديد من الباحثين المستشرقين الوقوف عليه هو أن العرب والمسلمين نظروا إلى الحضارة الرومانية كحضارة احتلال غريبة وذات قيم غريبة حتى على السكان المصريين المحليين، فتم تحييدها وإهمالها وهي الفطرة البشرية التي تؤكدها رواية كويل نفسه عن

قيام الأسبان بتدمير إنجازات الحضارة الإسلامية في الأندلس بعد سقوطها في أيديهم، الأمر الذي لم يقف عند ذلك الحد كما تشير المصادر التاريخية المختلفة بل تعداه إلى اجتثاث ثقافة المجتمع الأندلسي بكل طوائفه من خلال التهجير ومحاكم التفتيش وغيرها.

ولقد كانت الثقافة والحضارة الفارسية رغم وثنيتها امتدادا لثقافة شعوب المنطقة وتحمل في طياتها الكثير من القيم ذات الجذور التاريخية التي قدرتها شعوب المنطقة عاليا، ولذلك تبنى المسلمون تدريجيا منها ما لا يتعارض مع معتقداتهم وثقافتهم وحيدوا ما لم يناسبهم .

ويؤكد حيان صيداوي على ذلك بقوله: "إننا نذكّر، بإلحاح أن الإسلام وفّر للمسلمين، على نحو عادل ونهائي وبواسطة الفنون التي أوحى بها، جميع الوسائل الكفيلة بمحو كل تعبير وثني سابق تدريجيا." ،(صيداوي، 1992،ص: 63).

1-1 : تعريف الحديقة:

1-1-1: الحديقة لغة :

يحمل المفهوم اللغوي للمصطلح "حديقة "دلالات كبيرة عن مضمونها وتصميمها فعند النظر إلى المصادر اللغوية ومنها المنجد في اللغة والأعلام الذي يعرف الحديقة بقوله: "هي البستان عليه حائط، أما البستان فهو أرض أدير عليها جدار وفيها شجر وزرع".(البستاني ،1984،ص: 122 و 37).
ويتوسع إبن منظور أكثر في تعريفه للحديقة في كتابه لسان العرب بقوله :

والحَدِيقة من الرِّياض: كلُّ أَرض استدارت وأَحدق بها حاجزٌ أو أَرض مرتفعة, ويورد أمثلة لغوية وشعرية توضح هذا المفهوم منها شعر لعنترة العبسي يقول فيه :

جادَتْ عليها كلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ، فتَرَكْنَ كلَّ حَديقةٍ كالدِّرْهمِ

وقيل: الحَدِيقةُ كل أَرض ذات شجر مُثمر ونخل، وقيل: الحديقةُ البُسْتانُ والحائط وخص بعضهم به الجَنةَ من النخل والعنب, ويورد ابن منظور في كتابه قولا لشاعر لم يذكر اسمه :

صُورِيّةٌ أُولِعْتُ باشْتِهارِها، ناصِلةُ الحِقْوَيْنِ من إزارِها

يُطْرِقُ كلبُ الحَيِّ من حِذارِها، أَعْطَيْتُ فيها طائِعاً أَو كارِها

حَدِيقةً غَلْباء في جِدارِها، وفرَساً أُنْثى وعَبْداً فارِها

ويريد الشاعر هنا وفقا لأبن منظور:" أَنه أَعطاها نخلاً وكَرْماً مُحْدَقاً عليها (حَدِيقةً غَلْباء في جِدارِها)، وذلك أَفْخَم للنخل والكرم لأَنه لا يُحْدَق عليه إلا وهو مَضْنُون به مُنْفِسٌ، وإنما أَراد أَنه غالَى بمهرها على ما هي به من الاشْتِهار وخلائق الأَشرار" .

وقيل: الحديقةُ: القِطعة من الزرع؛ عن كراع (في معنى الاستدارة)، وفي القرآن الكريم : "وحدائقَ غُلْباً". وكلُّ بُستان كان عليه حائط،فهو حديقة،وما لم يكن عليه حائط لم يُقَل له حديقة .

(ابن منظور،1987 ج: 2 ،ص: 190).

ولا يختلف معنى كلمة حديقة في اللغة الإنجليزية عنه في العربية فنجد كولن في قاموسه هاراب يشير إلى معنى كلمة "garden" البريطانية ومرادفتها " Yard" الأمريكية على أنها "ارض تستخدم لإنبات الخضروات والأزهار وغيرها،وعادة تكون بقرب البيت" ،(Collin, 1982,P:82).

ويكتمل التطابق في المفهوم اللغوي بين اللغتين بما تضيفه مريم ويبستر Webster في قاموسها بقولها: أن المعنى الأصلي لكلمة حديقة (Garden) في اللغات الإنجليزية و الفرنسية و الألمانية هو المكان المغلق (enclosure) –أو بمعنى أخر مكان محاط بحاجز يفصلها عن المحيط–.

(Webster,2009,P:1).

2–1–1: مفهوم الحديقة في الحضارات المختلفة :

لعبت الحديقة دورا بارزا في الفكر البشري ،حيث وجدت في معظم الحضارات الإنسانية عبر التاريخ مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلاف في الفكر والمستوى التقني لكل حضارة ومدى التطور التي وصلت أليه الحدائق والغاية والدور الذي لعبته الحديقة في كل منها.

ويعرف توم تيرنر Tom Turner الحديقة بأنها: "مكان مخطط، عادة على اتصال بالخارج (على اتصال بالهواء الطلق) تم تنظيمه لغايات العرض والزراعة والاستمتاع بالنباتات والتشكيلات الطبيعية الأخرى "ويضيف" أن الحديقة يمكن أن تجمع بين المواد الطبيعية والمواد المصنعة بيد الإنسان أما بخصوص وظيفتها فقد تقتصر على النواحي الجمالية أو تتعداها لغايات إنتاج الغذاء ".

(Turner,2005,P.P:5-23)

بينما يعرف الباحث صفي الدين حامد الحديقة في الوقت الحالي بطريقة أكثر شمولية بقوله: " هي مكان يلبي الحاجة البشرية لإستنشاق الهواء النقي ومكان دافئ للجلوس والاستراحة مع منظر طبيعي

جميل للناظرين ترادفه أصوات جميله لزيادة المتعة، مع مكان خاص للاسترخاء والتفكير والتأمل والاقتراب أكثر من الطبيعة " . (Hamed, 1994,P: 2).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل تقتصر الحديقة على هذا التعريف ؟

بالعودة إلى التراث الغني للحضارات البشرية يلاحظ أن الحديقة تعود بجذورها إلى " بدايات عملية الزراعة التي مهدت الطريق للناس بالبدء بالاستقرار وذلك في فترة الثورة النيولوثية (Neolithic Revolution) التي ترافقت مع نهاية العصر الحجري قبل أكثر من عشرة آلاف عام".
.(Dickau, 2007,P:1)

ومنذ ذلك الحين دخلت الحديقة إلى مختلف الحضارات المعروفة من الحضارة الفرعونية إلى حضارة ما بين النهرين إلى اليونانية والفارسية والرومانية مرورا بحضارات الشرق الأقصى "الصين واليابان " وصولا إلى الحديقة في الفترة الإسلامية التي تطورت تدريجيا عبر تاريخ المجتمعات الإسلامية واكتسبت أبعادا رمزية ومفاهيم اجتماعية ومعمارية مختلفة عن سابقاتها والتي هي مدار هذه الدراسة .

1-1-3: مفهوم الحديقة عند المسلمين :

في البداية لابد من التمييز بين نتاج المجتمعات المسلمة والتي منها الحدائق مدار الدراسة وبين النتاج الإسلامي الخالص، فنتاج المجتمعات المسلمة وطريقتها في العيش قد تختلف أحيانا عن تفسير البعض للتعاليم الحرفية للدين فالمجتمعات المسلمة هي مجتمعات بشرية تحتمل الخطأ والصواب في حياتها اليومية.

والحدائق في المجتمعات المسلمة هي الحدائق التي كانت نتاجا لهذه المجتمعات منذ القرن السابع الميلادي (بعث الرسول محمد ﷺ) وحتى نهاية الفترة العثمانية في بداية القرن العشرين.

تتشابه الحديقة في المجتمعات المسلمة مع العديد من حدائق الحضارات الأخرى بأدائها مجموعة من الوظائف، منها ما يختص بالناحية الجمالية، أو بعملية التكييف البيئي أو بعملية إنتاج الغذاء ومنها ما يحقق حاجات الأفراد من الأمن والخصوصية أو حتى صيدلية منزلية للعلاج وبمفهوم آخر فالحديقة في المجتمعات المسلمة كانت متعددة الوظائف .

ومن هنا فإن للويلن (llewellyn) يصفها بقولة :" إن الحديقة الإسلامية واحة تعج بالحياة حيث تقوم بخدمة الإنسان والطيور والحيوانات، وهي حديقة حيث تنمو الفواكه والأعشاب الطبية والعطرية للاستهلاك البشري، وأشجارها مثمرة بصنوف الطعام وتشكل أماكن استراحة للطيور، بينما قد تحتوي جدرانها بيوتا للحمام والطيور كما توفر الماء لجميع أنواع المخلوقات وباختصار إنها ذات فائدة ومنتجة كما إنها جميلة ".(Hamed,1994, P:1).

إلا أن التشابه في الوظائف رافقه اختلاف في المفاهيم يميزها عن غيرها ويعطيها فرادتها، ولعل أهم هذه المفاهيم أنها أول حديقة استخدمت فيها الرمزية في تجسيد الجنة على الأرض، حيث يحمل كل عنصر من عناصر هذه الحديقة مفاهيم دينية واجتماعية إسلامية تتماشى مع المتغيرات الجغرافية والبيئية .

ويرى صفي الدين حامد أن "الحديقة في المجتمعات الإسلامية تبنت مفهوما مختلفا عن حدائق المجتمعات الأخرى فهي لم تقتصر على العناصر الطبيعية والصناعية لأهداف جمالية، فالحديقة الإسلامية برأيه هي ناتج لمحاولة قام بها المصمم المسلم لتجسيد معان ورموز دينية، من خلال توظيف عناصر حسية والتركيز على غايات عميقة الجذور في التعاليم الإسلامية لتقريب الزائر إلى الله ولتشكل رسالة دينية دنيوية عما سيلقاه المؤمنون في الجنة".(Hamed ,1994,P:1).

وهو هنا يتفق بالسياق مع العديد من الباحثين على اختلاف مذاهبهم في وصف الحديقة في المجتمعات الإسلامية بالمصطلح (جنه على الأرض)، وهو ما يؤكده إبن ذبالة (مؤرخ المدينة في القرن الثاني الهجري) عندما شاهد أعمال الفسيفساء على حوائط المسجد النبوي خلال أعمال الإضافات على عهد الخليفة العباسي المهدي، فكان جواب العمال على المصورات:" إنا عملناه على ما وجدناه من صور الجنة و قصورها ". (إبراهيم ،1993،ص: 56).

ويتضح في قول د.عبد الباقي إبراهيم : " إن المعماري المسلم قد استوحى العناصر المعمارية من الوصف القرآني للجنة وأشجارها وعيونها " (إبراهيم ،1993،ص: 56)، و هو ما يؤكد عليه رالف بلاكستاد (Blakstad) في مقاله بعنوان ما هي الحديقة الإسلامية بقوله :" إن الحاضرين إلى ندوة بعنوان الحدائق الإسلامية عقدت بروما عام 1986 ساد بينهم انطباع بأن الحدائق الإسلامية كان الهدف منها تكوين نماذج أرضيه للوصف القرآني لحدائق الجنة التي وعد بها المتقين بعد وفاتهم "، .(Blakstad ,1986,P: 20).

وهو ما يؤكده نقش باللغة الفارسية على مدخل حديقة شلمار باجه التي تعود للفترة المغولية في كشمير ويرد فيه :" إن كان هناك جنة على وجه الأرض فهي هنا ،فهي هنا ،فهي هنا".
(McIntosh ,2004,P:38).

وعند العودة إلى المفهوم اللغوي للمفردة جنة يلاحظ التطابق في المعنى بينها وبين مفردة حديقة فالمنجد في اللغة والأعلام يعرف المفردة " الجَنَّة ": جمعها جنان وجنات ،أي الحديقة ذات الشجر قيل لها ذلك لسترها الأرض بظلالها ،(الفردوس الأرضي أو السماوي).(البستاني ،1984 ،ص: 102).

أما لسان العرب فيعرفها بقوله: و**الجَنَّةُ:** الحَديقةُ ذات الشجر والنخل، وجمعها جِنان، وفيها تخصيص، ويقال للنخل وغيرها، وقال أَبو علي في التذكرة: لا تكون الجَنَّة في كلام العرب إلا وفيها نخلٌ وعنبٌ، فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجَنَّةٍ، وقد ورد ذكرُ الجَنَّة في القرآن العزيز والحديث الكريم في أكثر من موضع.

و**الجَنَّةُ:** هي دارُ النعيم في الدار الآخرة، من الاجْتنان، وهو السَّتْر لتَكاثُفِ أَشْجارِها وتظليلها بالتِفافِ أَغصانِها، قال: وسميت **بالجَنَّة** وهي المرَّة الواحدة من مَصْدر جَنَّة جَنّاً إذا ستَرَه.

ومن هنا فقد ربطت العقلية الإسلامية بين نظرة هذه المجتمعات إلى الحديقة من ناحية وظيفية وبين الجنة ووصفها الوارد في القرآن الكريم من ناحية رمزيه، حيث يبدو أن هذه الرؤية شكلت دافعا لتطور الحديقة في الفترة الإسلامية بحيث تلبي الحاجات الاجتماعية والترفيهية لهذه المجتمعات.

1-2: التطور التاريخي للحدائق عند العرب والمسلمين.

1-2-1: الحديقة عند عرب الجاهلية :

يدعي الكثير من الباحثين المستشرقين أمثال كرزويل بأن الحضارة العربية ما قبل الإسلام كانت حضارة بداوة تخلو من الفن المعماري المتقدم، ولكن عند النظر إلى الشعر الجاهلي نجد أن الحديقة قد ذكرت فيه بمعناها اللغوي الدقيق (أنظر الى المفهوم اللغوي) ومنها بيت لعنترة العبسي الشاعر الجاهلي الشهير يقول فيه :

جادَتْ عليها كلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ، فتَرَكْنَ كلَّ حَديقةٍ كالدِّرْهَمِ

(بن مكرم،1987،ج:3 ،ص: 118)

وبيت آخر لعمر بن أبي ربيعة يقول فيه :

وأعجبها من عيشها ظل غــرفة   وريان ملتف الحدائق أخضــر

(الأصفهاني ،-19،ص 25)

بما يشير إلى فهم عميق لمدلول الحديقة سبق الإسلام بوقت طويل .

كما يتجاهل العديد من الباحثين أمثال أد بينس (Ed Bennis) إنجازات المجتمعات العربية في اليمن وبلاد الشام والعراق قبل الإسلام بإدعاء أنها كانت واقعة تحت سيطرة حضارات أخرى مثل الرومانية والفارسية والحبشية ويرجعون الفضل إلى هذه القوى الاستعمارية متجاهلين أن أغلبية سكان هذه المناطق من العرب بقبائلهم المختلفة .(Bennis , 2006, P: 6.).

وتشير الحفريات الأثرية والروايات التاريخية على أن أقدم سد لجمع المياه معروف في التاريخ البشري هو سد العرم في مأرب في اليمن الذي يعود للقرن السابع قبل الميلاد وكان يستخدم لغايات الشرب وري المزروعات ولا تزال أطلاله ماثلة للعيان. (Information Online, 2007،P1).

بالإضافة إلى ذلك فإن المستوى المتقدم الذي وصل إليه عرب الجاهلية في اليمن في عملية التخطيط العمراني كان كبيراً، حيث دفعتهم الجغرافيا الجبلية وقلة الأراضي الزراعية الخصبة للبناء بشكل عمودي في سفوح الجبال للحفاظ على الأراضي الزراعية المحدودة في السهول الضيقة بما شكل أول ناطحات سحاب في العالم. (الجبلي،2002،ص: 27)

وأما مدينة الطائف والتي تبعد عن مكة المكرمة 100 كيلومترا والتي مثلت على مدى التاريخ أحد أهم المصادر الغذائية لمدينة مكة فتدل العديد من الشواهد والروايات التاريخية على التقدم الزراعي الذي وصلت إليه الطائف وما حوته من مزارع وبساتين، يصف الدكتور طارق السويدان رحلة الرسول لدعوة أهل الطائف للإسلام وكيف طارده أهل الطائف بالحجارة والشتيمة ويصف احتماء الرسول ﷺ منهم بدخوله إلى بستان يملكه اثنان من عرب الجاهلية هما عتبة وشيبة بن ربيعة وتستره عن أعين ملاحقيه خلف جدار البستان أسفل عريشه للعنب وكيف جاءه خادم البستان النصراني بقطف من العنب،(السويدان،2006 ،ص:1).

1-2-2 : الحديقة في فجر الإسلام (مجتمع المدينة المنورة) :

وعلى عكس مجتمع مكة المعتمد على الحجيج والتجارة الخدمية كان مجتمع المدينة المنورة مجتمعا زراعيا تجاريا، مؤلفا من عدة تجمعات سكنية للقبائل المختلفة والمتصارعة في حينه يجمعها في الوسط البساتين المزروعة بالنخيل والتي كانت تشكل عماد اقتصاد المدينة المنورة " يثرب"، ويقول د.عبد الباقي إبراهيم: " هكذا كانت عاصمة الدولة في الإسلام مكونه من حوالي عشرين مجاورة سكنية متباعدة يفصل بينها مساحات كبيرة من الأراضي الفضاء، وأقيمت جميعها على جانبي وادي بطحان ووادي مذينب ".(ابراهيم،1993،ص: 50).



شكل (1-1): خارطة المدينة المنورة في عهد الرسول حسب تصور الدكتور عبد الباقي إبراهيم،
المصدر :(ابراهيم،1993،ص:51)

والناظر إلى السيرة النبوية يرى اهتمام الرسول ﷺ بالنباتات والأشجار، ففي مختلف المناسبات أوصى بالحفاظ عليها وزراعتها وعدم قطعها حتى في أصعب أوقات الحروب كما يتضح في حديثه صلى الله عليه وسلم :" إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"، كما عرف المجتمع الإسلامي الأول أهمية الماء وضرورته للزراعة وهذا جلي في تكليف الرسول ﷺ لطلحة أبن عبيد الله بحفر الآبار في المدينة والتي بلغ عددها في عهد الرسول 54 بئرا .

وكما تؤكد قصة عتق الصحابي الجليل سلمان الفارسي بأن افتدى نفسه من مالكه اليهودي ب 300 غرسه نخل يزرعها له بمعونة من الرسول ﷺ وصحبه في العفير أهمية الزراعة والأشجار لدى مختلف قطاعات ذلك المجتمع.

ويشير الدكتور محمد حبش إلى:" أن سياسة الرسول ﷺ وإصلاحاته على صعيد التشجير ورعاية الزراعة والحفاظ على الشجرة حولت المدينة المنورة إلى رقعة خضراء جميلة، وشكل ذلك إرادة واضحة من قبل الرسول الكريم في إطلاق الأرض الخضراء على أكبر رقعة ممكنه كهدف للإسلام على أرضه ".(حبش،2006،ص:2) .

1-2-3: الحديقة في الفترة الأموية الأولى (661-750 م) :

يعاني الباحثون في مجال الحديقة في الفترة الأموية من" ندرة المعلومات وعدم وضوحها"، (Strika , 1986,P.P: 72-75) ،وذلك نتيجة للتدمير الممنهج لبقايا القصور الأموية في الفترة العباسية والإهمال وعوامل التلف الطبيعي على مدى العصور، وشهدت الفترة الأموية فترة ازدهار معماري وحضاري واقتصادي تلا فترة التوسع المضطرد لحدود الدولة الإسلامية في فترة الخلافة الراشدة التي كرست جهودها في زرع وتثبيت الإسلام في تلك المناطق، كما شهدت انتقال عاصمة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق الغنية بأنهارها وطبيعتها الساحرة (غوطة دمشق) والغنية أيضا بتراثها المعماري .

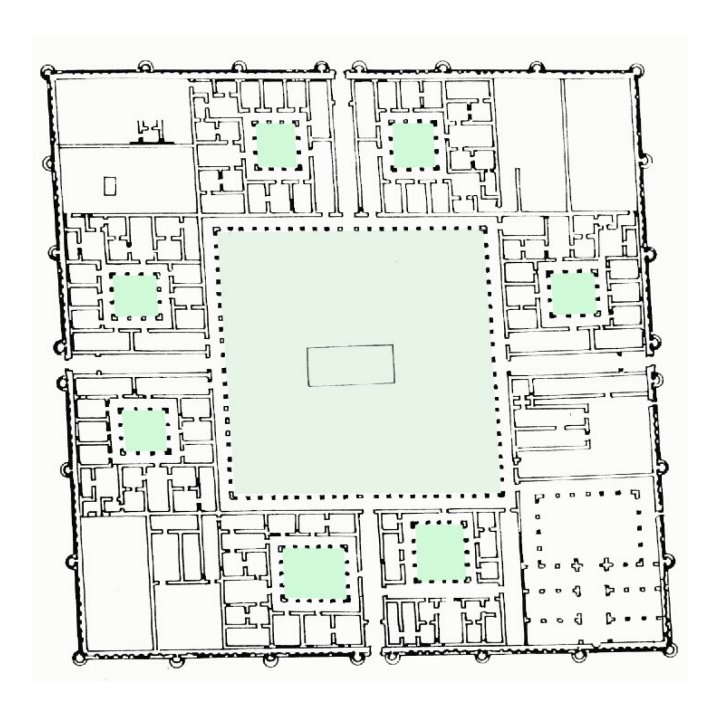
وتطورت عمارة المساجد مثل المسجد الأموي بدمشق والمسجد الأقصى اللذان يعتبران من التحف المعمارية إلى وقتنا الحالي، كما تطورت عمارة القصور ومنها ما هو داخل المدن مثل القصور الأموية في بيت المقدس أو على شكل قصور منعزلة في أطراف البادية والأرياف وبعيدة عن العمران مثل قصور الحير الشرقي والغربي وخربة المفجر(قصر هشام) .

وتأثرت العمارة الأموية في البدايات بالعمارة الرومانية والفارسية التي كانت تزخر بها بلاد الشام أي المركز الرئيسي للأمويين، وذلك جلي في حالة خربة عنجر التي يظهر تخطيطها تأثرها بالطابع الروماني في التخطيط، كما تظهر الحفريات في خربة عنجر وجود مساحات زراعية داخل أسوار البلدة استخدمت لإيجاد مصدر استراتيجي للغذاء.(Hoag ,1977,P:36)

ويظهر من التصورات الموضوعة بناء على الحفريات الأثرية للقصور الأموية في بيت المقدس، أنها بنيت على طراز البيت ذو الفناء المركزي (Court Yard House) والذي شكل نواة الحديقة فيما بعد، إلا أن تلك الحفريات لم تركز على العناصر المعمارية والطبيعية التي كانت موجودة بداخل تلك الأفنية، وهو الأمر الذي دفع العديد من الباحثين المستشرقين أمثال فسكنزو ستريكا وجون هوج

إلى وصف الأمويين "بذوي الأصول البدوية "، ويرى ستريكا " أن القصور الأموية خارج المدن والتي يصفها (بالمنعزلات الصحراوية) جاءت رغبة من الأمويين بالابتعاد عن الحياة المدنية ورغبة بالعودة إلى الصحراء التي تشكل بيئتهم الصحراوية"، ويتجاهل هو وغيره من الباحثين الاضطراب السياسي والفتن التي أدت لمقتل العديد من الخلفاء الأمويين ودفعت من أتى بعدهم إلى الاحتماء بالمناطق النائية للحصول على قسط من الأمن، ويرى أن معظم الحفريات والبقايا الأثرية توضح خلو هذه المنعزلات من الحدائق. (Strika ,1986,P: 72.).

وبالنظر إلى المسقط المعماري الذي بينته الحفريات الأثرية لقصر الحير الشرقي نجد أنه مؤلف من حصن محاط بجدار دفاعي مع فناء مركزي بالوسط محاط برواق معمد ومسقوف تحيط به مجموعة من الوحدات السكنية عبارة عن منازل ذات فناء مركزي مفتوح، بما يشكل فهما جيدا للبيئة المحيطة، وتحقيقا للخصوصية، وأحد أنماط الحدائق الإسلامية كما سنلاحظ لاحقا.



شكل (1–2): مخطط قصر الحير الشرقي،

المصدر: (Hoag ,1977,P:33) بتصرف.

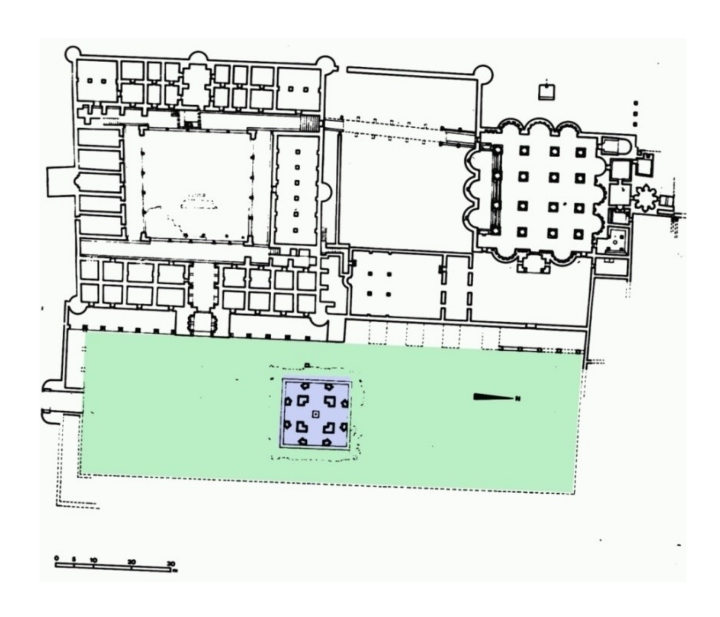
كما تظهر أبحاث اوليغ غرابار حول قصر الحير الشرقي وما ارتبط بها من حفريات بالموقع، أن هذا القصر كان يحمل في طياته أغراض عسكرية تحصينية وأنه بني في منطقة "زراعية ريفية مروية " وليس صحراوية وخطط جيدا لتأمين الغذاء والماء لهذا الحصن بشكل حقق اكتفاء ذاتي ولا يؤثر

على الاحتياجات اليومية لسكان المنطقة، وهذا ينطبق على معظم هذه القصور كما تظهر بعض الأبحاث الحديثة .(Hoag,1977, P:27).

وتوضح الحفريات الأثرية أيضا بقايا شبكة من القنوات المائية داخل الساحة وما يعتقد بأنها بركة مستطيلة الشكل لجمع الماء في الوسط.(Creswell, 1969,p:-.).

ولم يستطع ستريكا أن ينكر أن البقايا الأثرية لخربة المفجر (قصر هشام) بالقرب من مدينة أريحا الفلسطينية والذي يعتبره أقصى درجات تطور للقصور الأموية تظهر وجود حديقة واسعة داخل أسوار المجمع حيث تحوي نافورة للمياه في الوسط وبركة، ونتيجة لعدم اكتمال البناء نتيجة لزلزال أثر على المنطقة، لم يبقى الكثير من العناصر المعمارية لهذه الحديقة، فنجد ستريبكا يقول:أن هذه الحديقة لو اكتملت لما اختلفت كثيرا عن الحدائق التي كانت تحيط الفيلات الرومانية في ذلك العهد. .(Strika,1986,P :74)

كما تظهر الحفريات الأثرية بقايا قناة مائية مفتوحة استخدمت لإحضار المياه إلى القصر من نبع عين الديوك وعين النعيمات الواقع على بعد 8كلم من القصر،(Creswell ,1969,P.P:++.).



شكل (1–3): مخطط خربة المفجر، ويظهر فيه الفناء المستطيل والبركة المربعة في وسطه.
المصدر:(Hoag ,1977,P:29) بتصرف.

كما تحوي العديد من لوحات الفسيفساء التي تغطي بقايا جدران وأرضيات هذه القصور على تصوير متقدم للعديد من المشاهد الطبيعية التي تصور الأشجار المثمرة والحيوانات وحتى النساء في بعض الحالات بما يشير إلى حب واسع للبيئة الخضراء.

ويصف سليم عبد الحق قصر الحير الغربي" بأهم القصور الصحراوية لأنه يعطي انطباعاً عن الفن والعمارة الرفيعة اللذين انتشرا أثناء العصر الأموي، ويتكوّن من عناصر عديدة منها ما هو زراعي ومنها ما هو معماري، ففيه سد وقناة وبستان وبركة وطاحونة وكذلك خان وحمام، بالإضافة إلى مباني. (عبد الحق، 1951،ج.1،ص: 5–57).



شكل(1–4): صورة للفسيفساء التي تغطي أرضية غرفة الديوان في حمام خربة المفجر،
المصدر: (Hoag ,1977,P:31)

وتحتوي العناصر المائية والزراعية في القصر على السد المعروف بسد خربقة، ويقع على بُعد 16 كم جنوب غرب القصر. وتمتد منه قناة تحت الأرض تصل حتى القصر، وتتفرع إلى الحمام والبركة والبستان والطاحونة، أما البستان فهو مسوَّر مستطيل الشكل أبعاده 1050×442م، واكتشفت فيه بقايا القناة وسكن الحارس. (Grabar,2005,p: 134).

وتضيف لينا بكور إلى ذلك بقولها :"اعتز الخلفاء الأمويون، وخاصة هشام بن عبد الملك، باستطاعتهم تحويل الصحارى إلى جنّات وحدائق محمية كانوا يقومون فيها برحلات الصيد وغيرها من ضروب الترفيه الملكية، وقد وُجِد في القصر لوحات رسم أرضية ونقوش جص جداريه في غاية

الجمال وذات تقنية عالية تدل على استمرار تقاليد الفن المحلّي وتواصلها مع فنون بلاد الفرس والروم في الحقبة الإسلامية المبكرة." ،(بكور ،2007،ص: 2).

كما توضح لوحات الفسيفساء التي تغطي جدران المسجد الأموي بدمشق تصويرا متقدما للجنة كما يراها المسلمين وللبيوت والحدائق التي تحويها والتي لم تكن لتتحقق لولا الوصف الدقيق الذي وفره القرآن الكريم للجنة وما ترسخ في أذهان الفنيين من صورتها وفقا لما خبروه من البيئة المحيطة .

وما يميز الحديقة في الفترة الأموية عما سبقها من المراحل الإسلامية هو الاتجاه نحو الحدائق ذات أغراض المتعة والاستمتاع بالجمال(Ornamental) إلى جانب الحدائق ذات الأهداف الزراعية لأول مرة وهو الأمر الناتج عن التوسع المطرد لحدود الدولة الأموية وما رافقه من ازدهار اقتصادي وثقافي على الرغم من بعض فترات الاضطراب السياسي الناجمه عن الصراع الأموي العباسي.

1-2-4: الحديقة في الفترة العباسية (750 – 969 م).

شهدت الفترة العباسية انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد بنواتها الأولى مدينة السلام المدورة التي بناها الخليفة العباسي المنصور، وقد شهدت هذه الفترة ازدهارا علميا عم مختلف المجالات فأصبحت بغداد آنذاك عاصمة العالم العلمية والفنية.

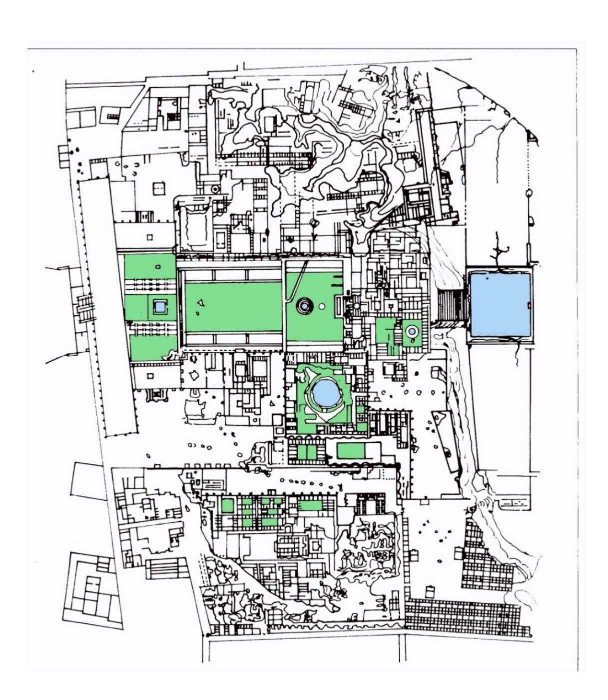
ويتوضح ذلك في كتابات الرحالة والمؤرخين والآثار المعمارية والفنية التي لا تزال تشهد على تلك الفترة حتى الآن، ويصف الدكتور طاهر العميد في كتابه تخطيط المدن العربية الإسلامية القدرات الهندسية والتخطيطية الكبيرة التي تمتع بها العرب والمسلمون في ذلك الحين، والتي تمثلت ببناء مدن وقصور ضخمة متعددة منها مدينة السلام الدائرية وسامراء وغيرها، كما يصف تقنيات التخطيط من الذر بالكلس والتصوير على الجلد وعمل النماذج المجسمة موردا روايات عديدة للرحالة والمؤرخين مثل الطبري والقلقشندي وياقوت وغيرهم.(العميد،1986،ص175-197).

وقد انسحبت هذه القدرة الهندسية على الحدائق التي ازدهرت في العصر العباسي واكتسبت أبعادا ومفاهيم جديدة، تظهر أثار مدينة سامراء احتواء المدينة على العديد من الحدائق والتي بنيت في إطار الفناء الداخلي كما تظهر الحفريات الأثرية، يصف هوج (Hoag) سامراء بأنها" كانت تحوي قصور الخليفة وثكنات الجيش والأسواق والمسجد الجامع وعدد كبير من الحدائق والبيوت الخاصة الموزعة بشكل غير متساوي "،(Hoag,1977,P:42).

إلا أن التطور الكبير الذي طرأ على عمارة الحدائق هو ما تظهره آثار قصر الجوسق الخاقاني الذي بناه الخليفة المعتصم في سامراء، فقد ظهرت فيه الحديقة لأول مرة بمقاييس كبرى لم تعهد من قبل، حيث تظهر الحفريات الأثرية أن مساحة قصر الجوسق الخاقاني بلغت 432 هكتارا (Acers) منها 172 هكتارا بمثابة حدائق . (Hoag,1977,P:48).

ولم يقتصر التطور على المساحة بل تعداه إلى المفهوم، فقد تطور مفهوم الحديقة في القرن التاسع الميلادي ليتعدى حدود الحديقة ويتيح توجيهها بما يسمح بالاستمتاع بالبيئة الطبيعية المحيطة عدا عن دخول عناصر معمارية جديدة.

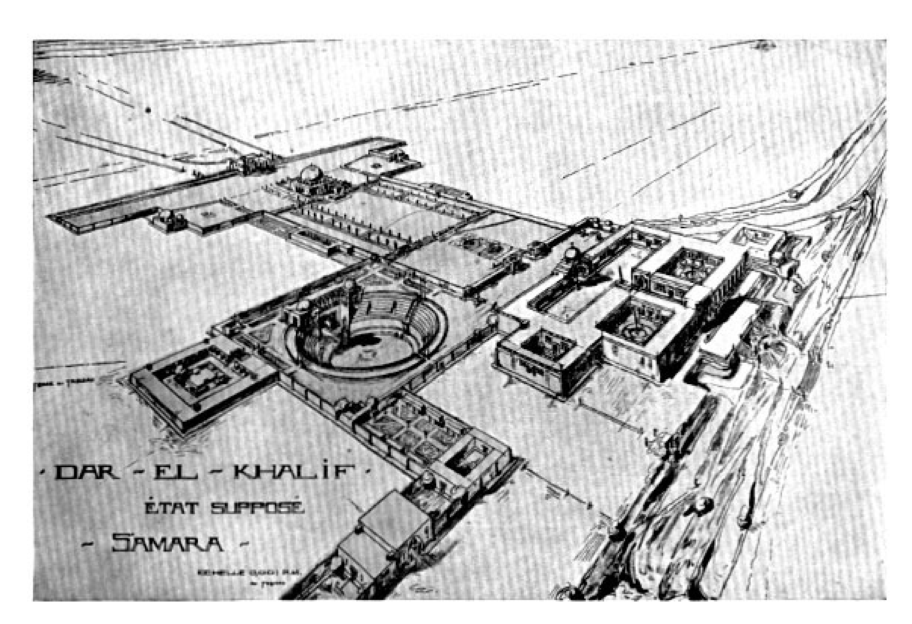
ويصف رجلز(Ruggles) حدائق قصر الجوسق الخاقاني بقوله:"لقد تم وضع القصر على أرض مرتفعة بحيث يسمح بإيجاد اتصال بصري مع الطبيعة الخارجية، ويتيح صرح البوابة الضخمة في الناحية الغربية للجوسق رؤية البيئة الخارجية، كما تم تنظيم القصر على محور طولي يبدأ من البوابة المكونة من ثلاثة أواويين والتي تقود شرقا إلى باقي القصر والمفتوحة غربا على درج ضخم يرتفع بميل مناسب 17مترا عن بركة كبيرة محاطة بحدائق من الجانبين بينما كانت تنتصب على الضفة بين البركة والنهر مقصورة (Pavilion) مع إطلالة على كل من النهر والبركة والطبيعة المحيطة ".



شكل(1–5): مخطط قصر الجوسق الخاقاني،

المصدر:(Strika, 1986,P: 47) بتصرف.

ويضيف رجلز:" توفر البوابة المكونة من ثلاثة أواوين إطلالة مركزة على البركة والحدائق التي أبرزت بها الطبيعة بشكل حميم، كما توفر إطلالة بنورامية على النهر والبيئة الريفية المحيطة، حيث يعمل التراس والبوابة كمنصة للنظر(Mirador) والحديقة والبركة كعناصر وسيطة في المشهد"، (Ruggles,1990,P:75).



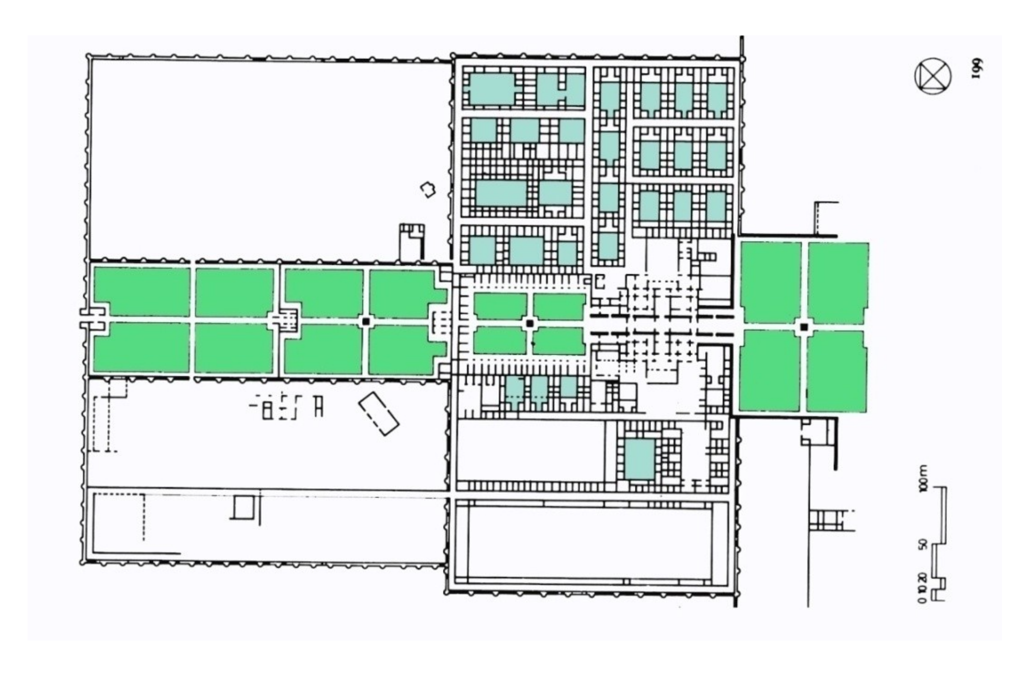
شكل(1–6): منظور تخيلي لما كان عليه القصر وفقا للحفريات الأثرية ،
المصدر : (Gothein, 2001,P:3)

ويأتي قصر بلكواره(Balkuwara) الذي بناه الخليفة المعتز في حدود عام 849م في سامراء ليكمل صورة التطور الذي وصلت إليه الحديقة في الفترة العباسية، فعلى غرار قصر الجوسق تم بناء القصر على أرض مرتفعة تتيح اتصال بصري بالطبيعة الخارجية.

بالإضافة إلى عدد كبير من الأفنية الداخلية التي تتوسط الوحدات السكنية للقصر، يمتد محور مركزي عليه سلسلة متلاحقة من البوابات الضخمة والأفنية الداخلية، والتي شكلت كما يرى جون هوج:"على طراز الشارباجة الفارسي،أو بنظام الحدائق المكونة من أربع أقسام". (Hoag,1977, P: 50).

وتتيح البوابات المتتالية تقسيم الفراغ الطولي للحديقة التي تشكلها الأفنية إلى فراغات مستطيلة متتالية، ذات نسب مقبولة بصريا، تشكل ثلاث حدائق متلاحقة تحقق نوع من الخصوصية لسكان القصر والمفاجأة البصرية لزواره وجميع هذه الحدائق مقسمة إلى أربعة أجزاء بواسطة ممرات مبلطة كما يظهر في المخطط المرفق ويتوسط إثنتان منها بركة مربعة الشكل. (Lehrman ,1980,P: 199).

وفي الجهة المقابلة لنهر الفرات من القصر تنتصب بوابه عبارة عن إيوان ثلاثي يواجه النهر وتقع خلفه حديقة أخرى يحدها النهر مقسمة إلى أربع أقسام وفي وسطها بركة مربعة، ويرى جون هوج: أن المصممين لهذه الحديقة قصدوا إبراز رمزية الجنة في تصميمهم". (Hoag,1977,P: 50).



شكل (1–7): مخطط قصر بلكوارة ،

المصدر: (Hoag,1977,P.: 50) بتصرف.

كما تشير روايات المؤرخين إلى التقدم الحاصل على الزخارف والعناصر المعمارية وأدوات الزينة التي استخدمت في هذه الحدائق، ويذكر ابن الجوزي والخطيب البغدادي "أنه كان في دار الشجرة في بغداد في زمن خلافة المقتدر شجرة من الفضة وزنها نصف مليون درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها، وفي تلك الدار شجرة في وسط بركة مدورة فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن شاخات كبيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع، مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب، وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجرة، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر، وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا، قد البسوا الديباج وغيره وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك"، مما يشير إلى التقدم في الكبير في علوم الميكانيكا في ذلك الحين. (العميد،1986،ص:190).

أما فيتشارد رجلز فيرى:" أن العباسيين كان لديهم فهم كبير لعملية وضع المباني المعمارية ضمن المحيط الحضري (Landscape) وذلك لم يكن لتحقيق إطلالة مناسبة على الطبيعة المحيطة بطريقة عشوائية، وإنما لتحقيق إطلالة مدروسة من نقاط محدده مسبقا ".(Ruggles, 1990,P: 81).

ويؤكد ذلك الرازي من خلال وصفه جلوس الخليفة الحكم على سريره في قصره بقوله :" جلس الحكم على سريره في محراب المجلس الشرقي المنيف على الرياض". (Ruggles,1990,P: 79).

1-2-5: الحديقة في الأندلس :

تمكن المسلمون من فرض سيطرتهم الكاملة على معظم الساحل الأيبيري بحلول بداية القرن الثامن الميلادي، وأتاح هذا الأمر للحضارة الإسلامية في الأندلس التطور والازدهار بعمائرها ومساجدها وجامعاتها وعلومها، لتصل إلى ذروتها في القرن الثالث عشر الميلادي، لتصبح منارة لأوروبا التي كانت لا تزال غارقة في عصورها المظلمة، ودفع ذلك العديد من المؤرخين إلى وصف عاصمتها قرطبة بعاصمة أوروبا الثقافية والعلمية في حينه .

والشعر الأندلسي مملوء بوصف الأندلس وما بها من رياض وحدائق، منها وصف ابن شرف القيرواني لسرقسطة لما رأى من روعة هوائها وعذوبة أنهارها وكثرة بساتينها:

رياض تعشقها سندس　　توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدي ربا　　لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة　　وكل طريق إليها سقر

وقول لشاعر أخر لم يذكر اسمه :

حبذا أندلس من بلد　　لن تزل تنتج لي كل سرور
طائر شاد وظل وارف　　ومياه سابحات في قصور

(الواصل ،2006، ص:1).

1-2-5-1 : الحديقة في الفترة الأموية في الأندلس :

لقد امتازت الحضارة الإسلامية في الأندلس بعدم خضوعها لسيطرة الخلافة العباسية، فبعد سقوط الخلافة الأموية في دمشق في منتصف القرن الثامن الميلادي، فر الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل أليها ليقيم أمارة منفصلة، عاصمتها قرطبة تمثل امتدادا للحضارة الأموية بدمشق.

ويورد المكاري(أحد مؤرخي تلك الفترة)" أن أحد أولى الأعمال التي قام بها الخليفة عبد الرحمن بعد أن ثبت حكمه في قرطبة هو إقامة حديقة وفقا لما شاهده في دمشق"، وتورد بعض المراجع الأخرى انه قام بجلب النباتات من الهند وبلاد الترك وسوريا وانه هو من ادخل الياسمين والرمان والزهور الإيرانية الصفراء إلى الأندلس.(Lehrman,1980,P: 87)

ولم يتبقى الكثير من آثار الحدائق التي تعود إلى هذه الحقبة، إلا أن جونز ليرهام يصف التطور الذي وصلت إليه الحدائق في هذه الفترة بقوله" تورد المصادر التاريخية أنه بحلول القرن العاشر الميلادي كان هناك عدة آلاف من الحدائق في الريف المحيط بمدينة قرطبة، بينما أعدت القوانين التي تنظم استخدام المياه والطرقات وقنوات المياه ومشاريع الري التي أقيمت ،بينما زرعت كروم العنب والبساتين المترفة في شتى أنحاء الأندلس". (Lehrman,1980,P: 87)

ورغم أن الحفريات الأثرية في الأندلس تشير إلى أن هذه الحدائق كانت أصغر قليلا من مثيلاتها في شمال أفريقيا، إلا أنها احتوت على المقاصير والممرات والشرفات التي أحيطت بالأشجار والأزهار والتي رويت من الينابيع المتدفقة من التلال المحيطة .

وتمثل مدينة الزهراء أحد أهم الأمثلة التي لا تزال آثارها ماثلة للعيان على عمارة القصور الأموية في الأندلس بنيت مدينة الزهراء على منحدر جبلي، سبع كيلومترات إلى الغرب من قرطبة، وبدء العمل بها في حدود عام 936م، ويتيح موقع القصر المجال لاستكشاف المناظر الطبيعية التي تحيط بالموقع، بما يتشابه مع القصور العباسية في سامراء التي سبق ذكرها، يرى فريتشارد رجلز" أن مدينة الزهراء تأثرت منذ البداية بطبيعة القصور العباسية وذلك جلي عند مقارنة مخططات مدينة الزهراء بمخططات قصري الجوسق الخاقاني وبلكوارة في سامراء ". (Ruggles,1990,P: 73)

فالطرفين يمثلان كما يرى رجلز"يمثلان مدينة مصغرة، والتي في عمقها تقع غرفة العرش وديوان الخلافة، والتي يتم الوصول أليها عبر محور طويل عليه العديد من البوابات التي تتخللها الأفنية ومساحات الحدائق وقاعات الاستقبال".

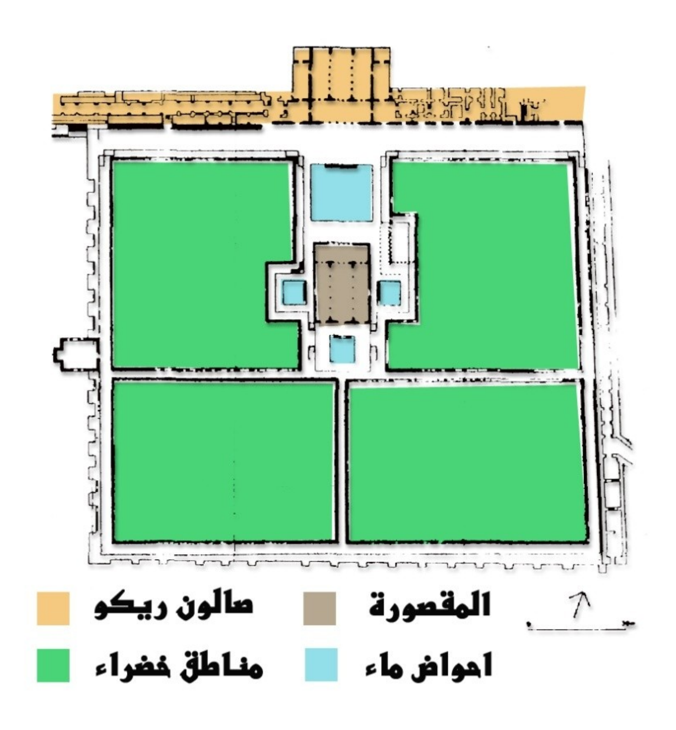
وتشير الحفريات الأثرية إلى أن قصر الزهراء بني بشكل ثلاث شرفات متدرجة حفرت على منحدرات جبل منخفض، ويقع مركز هذا القصر في المستوى المتوسط والمسمى صالون ريكو، يتصل صالون ريكو بواسطة منحدر صغير بالحديقة العليا للقصر والتي تشير الحفريات أنها كانت مسورة بالكامل ومساحتها 150* 120 م مقسمة إلى أربع أرباع بواسطة ممرات مبلطة، ويحوي الممر الشمالي بالحديقة حوض مائي كبير، ومقصورة كبيرة محاطة بأحواض مائية صغيرة.(شكل1-8)

أما صالون ريكو فكان مكونا من ثلاثة صفوف من الأعمدة التي تحمل أقواسا، مع غرف جانبية متعامدة على قاعة طولية تفتح من الجهة الجنوبية على الحديقة ومغلق من النواحي الثلاثة الأخرى، وبشكل مشابه كانت المقصورة التي تقع على نفس مستوى الصالون، مكونة من ثلاثة صفوف من الأعمدة التي تحمل أقواس، يتقدمها قاعة طولية مشابهة، بما يعطي تأثيرا بصريا مشابها لإنعكاس المرآة .

ورغم أن البقايا الأثرية للمقصورة لا تمكن من معرفة شكلها فوق الأرض إلا أن مقارنتها بالإنشاءات اللاحقة توضح أنها كانت على الأغلب مفتوحة من الجهات الأربعة على الحديقة وأحواض الماء بما يصفه فريتشارد رجلز" بأنه كان يعطي الانطباع بأنها قارب في حوض مائي"، ويعتقد فيلكس هيرنانديز جيمنز (Felix Hernandez Gimenez)" أن أحد الأبراج التي تسور الحديقة العليا أحتوى على منصة تتيح النظر إلى الحديقة السفلى التي تقع إلى الأسفل ب 12مترا، والى الطبيعة المحيطة بالقصر خارجا، إلا أن البقايا الأثرية المتبقية لا تتيح التحقق من صحة هذه النظرية ".

وهناك منحدر ينخفض برفق بين الحديقة العلوية والحديقة السفلية ويتيح المنحدر للناظر رؤية بركة مربعة كبيرة، والحديقة السفلى مغلقة بجدران من جميع الجهات، إلا أن الجدار السفلي التي لا تزال أثاره باقية لم يكن على ما يبدو مهما كان ارتفاعه أن يحجب الرؤية من المنحدر أو المقصورة إلى الطبيعة المحيطة بالقصر، ويشير رجلز إلى أن هاتان الحديقتان كان يسمح للعامة باستخدامها في الاحتفالات والمناسبات والأعياد .

ويرى فيتشارد رجلز" أن مهندسي مدينة الزهراء كانوا على معرفة تامة بنمطين متطورين بشكل جيد من الحدائق، وأنه في نصف القرن العاشر الميلادي كان بوسع المصممين اختيار نمط الحديقة ونمط الإنشاء"، وهو ما تؤكده حديقة الأميرات، التي تقع في نفس القصر إلى الشمال من الحديقة السفلى، ومن الملحوظ وقوعها على مستوى أعلى، وتوضح عمارتها الأنيقة نمط مختلف من الحدائق، فهي صغيرة في المقياس ومساحتها 19*20 مترا، تقع ضمن جدران تغلقها بصريا وفيزيائيا عن المحيط، مع محور طولي واحد يقسمها إلى نصفين غير متساويين، وهو معبد ومحاط بقنوات مائية من الجانبين.



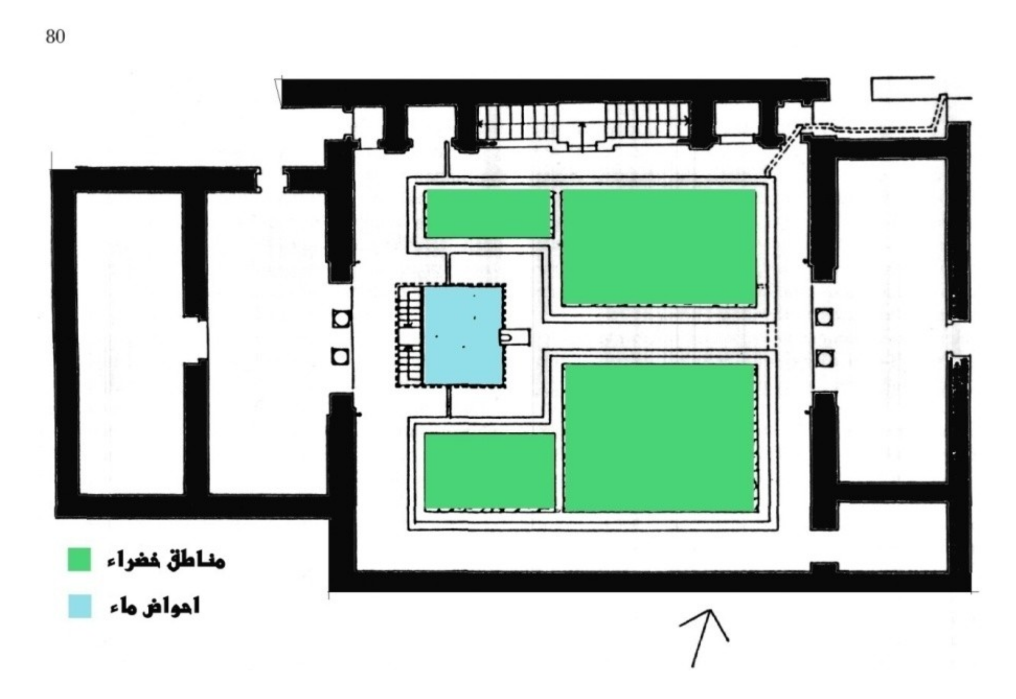
شكل (1-8): مخطط الحديقة العليا في قصر الزهراء ،

المصدر : (Ruggles,1990,P: 77) بتصرف.

يصل المحور نهايتيها الشرقية والغربية حيث تقع قاعتان تمتدان على عرض الحديقة بالكامل، وتقع بركة مربعة كبيرة أمام أحدى القاعتين، ورغم وجود محور عرضي متمثل بتبليط خرساني رفيع يخترق المناطق المزروعة أمام البركة إلا أن التصميم المحوري لم يكن كما يرى رجلز " ضروريا في الفراغات الصغيرة" .

وفي الجانب الجنوبي للحديقة جدار مصمت، وأما الجدار الشمالي فيقع به شاحطان متقابلان من الدرج يقودان إلى أعلى السور السميك الذي يفصل الجدار السميك الذي يفصل الحديقة عن المبنى

والطريق الذي يؤدي للمستوى الأعلى، وتشير كل الدلائل إلى أن حديقة الأميرات كانت خاصة تماما، حيث أن ارتفاع الجدران يمنع النظر من داخلها لخارجها وحتى إلى الحديقة السفلى للقصر، كما أنها لم ترد في وصف المكاري وأبن حيان للبنية الفيزيائية لساحة الحياة في القصر، حيث أنهم لم يروها أو لم يسمح لهم بدخولها كما يشير رجلز . (Ruggles ,1990,P.P:73-82)



شكل (1–9): مخطط حديقة الأميرات في قصر الزهراء ،
المصدر : (Ruggles,1990,P: 80) بتصرف.

1–2–5–2:الحديقة في الأندلس في عهد ملوك الطوائف :

في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي نشبت الحروب الأهلية في الأندلس مؤذنة بنهاية الحكم الأموي للأندلس ونشوء ما عرف بدول الطوائف المتناحرة، وتبع ذلك انتقال العاصمة من قرطبة إلى اشبيلية، وقد أدى التنافس بين الملوك والأمراء المتناحرين على أبراز السلطة والمال إلى تطور الفنون والحرف المختلفة ، هذا الأمر الذي أنعكس على الحدائق، حيث أزداد الاهتمام بها و لم تعد مقصورة على الملك وحاشيته، بل تعدتها إلى الوزراء والتجار وأصحاب الإقطاع، وازداد ثراء هذه الحدائق بالنباتات والزخارف والأثاث وشهدت تطورا في المفاهيم.

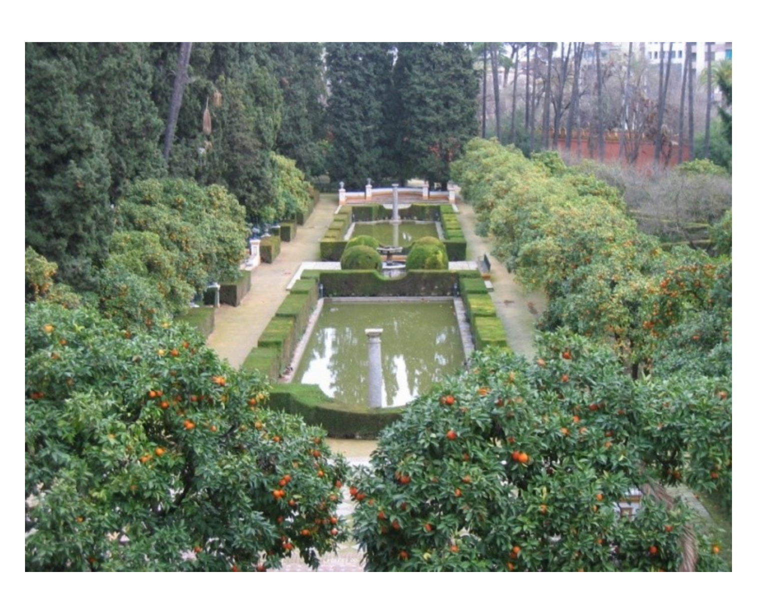
وقد أدى تنوع المجتمع الأندلسي (من مسلمين ويهود ومسيحيين،عرب وبربر وأسبان) إلى تطور المهارات الحرفية ووصولها إلى مستويات جديدة وهو ما يؤكده كويل (Cowell) بقوله: " لقد أمتلك

الأرستقراطيين العرب القدرة على تشجيع القدرات والاهتمامات الثقافية للمجتمع المختلط الذي حكموه وليس للأغلبية المسلمة فقط ولكن اليهود والمسلمين والبربر والأقلية البيزنطية ".

(Cowell , 1978 ,P: 73)

وبالإضافة إلى حدائق قصر الحمراء التي تناولها البحث سابقا تعد حديقة قصر الكازار(Alcazar) بأشبيلية أكبر الحدائق ذات الطراز الإسلامي المتبقية في الأندلس والتي تعود وفقا لجون ليرهام "إلى فترة الحكم الإسلامي في القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن القصر والحديقة الأصلية دمرا لاحقا ليعاد بنائهما في القرن الرابع عشر تحت الحكم الإسباني بواسطة معماريين وحرفيين مغاربة ووفقا للتقاليد الإسلامية ".(Lehrman ,1980,P: 102)

ويصف ليرهام القصر والحديقة بقوله: "ضمن القصر هناك العديد من الأفنية المصممة بشكل هادئ وجذاب، وهذه الأفنية محاطة بأروقة معمدة، وفي وسط الفناء الرئيسي توجد بركة منخفضة تضيف عنصر حسي هو صوت الماء بالإضافة إلى ترطيب الجو بقطرات الماء ".



شكل (1–10): صورة لأحد أجزاء حديقة الكازار.

المصدر: (www.spain.info/TourSpain)

وبالعودة إلى المخططات المعمارية والأثرية للحديقة، يلاحظ ارتباط عناصر الحديقة المعمارية مع بعضها البعض بمحاور متعامدة متعددة عبارة عن ممرات مبلطة غير محاطة بالأشجار، والحديقة مقسمة إلى ثلاث أقسام أساسية مقسمة بالتالي إلى عدة مناطق صغيرة.

والحديقة بالكامل محاطة بجدار، ووفقا لليرهام " فالجدار والممرات المرفوعة والأحواض المائية والنوافير والبلاط المزجج (السيراميك) تعود إلى التقاليد الإسلامية، إلا أن العديد من العناصر الأخرى تغيرت بشكل واضح وملحوظ ومنها المقصورة التي أضيفت بالقرن السادس عشر في أحد أجزاء الحديقة ".

إن أكثر ما يميز الحديقة في هذه الفترة هو غناها بالعناصر والتفاصيل المعمارية والتنوع في الأنماط والتصاميم، وهو ما يؤكده ليرهام بقوله " تحوي الحديقة على عدد من النوافير المختلفة في التصميم، بحيث لا يرى تصميم واحد طاغي على الحديقة بحيث تتميز كل زاوية فيها عن الأخرى"، ويغطي البلاط المزجج المقاعد والدرجات والنوافير والبرك، ويمتاز بإعطاء ملمس بارد في الحر، كما يزود المشهد بالألوان خاصة في موسمي الشتاء والخريف عندما ينتهي موسم الزهور، كما تحوي الحديقة على أشجار النخيل والليمون والبرتقال والسرو والسدر .



شكل (1–11): مخطط حديقة الكازار ،

المصدر:(Lehrman ,1980,P: 103) بتصرف.

ويرى ليرهام: "أنه على الرغم من أن العديد من العناصر الأصلية للحديقة عانت من التغير نتيجة للإضافات والتعديلات اللاحقة، إلا أنها لا تزال حديقة الكازار تتمتع بسحر الجدران المغطاة بالجص المنقوش وأشجار النخيل الطويلة وتشكيلات البلاط وانسياب الماء، بينما يحافظ الفناء بالكامل على شخصيته المغربية الإسلامية".(Lehrman,1980,P: 103)

ونتيجة للخلافات والحروب الأهلية انتقلت العاصمة مجددا من أشبيلية إلى قرطبة التي استمرت كذلك إلى أن سقطت بيد الأسبان القشتاليين في عام 1238م وتلتها أشبيلية في عام 1246 م فانتقلت عاصمة الحكم الإسلامي في الأندلس إلى غرناطة المعقل الأخير للمسلمين، فأجتمع فيها الحرفيون والفنانون والمعماريون والعلماء من مختلف أنحاء وطوائف الأندلس، وازدهرت غرناطة وأصبحت منارة لأوروبا إلى أن سقطت بيد الأسبان في عام 1492م .

ورغم فناء أغلب الحدائق التي تعود إلى فترة حكم المسلمين للأندلس نتيجة للإهمال وسوء الصيانة والتدمير الممنهج لها في الفترات اللاحقة إلا أن حدائق مجمع قصر الحمراء (القلعة الحمراء) وحديقة العارف (General Life) المجاورة له لا تزال باقية وتم الحفاظ عليها بشكل يوحي بسحر الماضي العريق والتطور الكبير الذي وصلت إليه هذه الحدائق.

ويحاول بعض الباحثين تقليل قيمة انجازات المسلمين في هذه الحدائق من خلال الإشارة إلى وجود دلائل لتأثرها بطرز عمارة عصر النهضة الايطالية، إلا أنهم يختلفون في مدى هذا التأثير، بينما بشير باحثون آخرون مثل أد بينس(Bennis) وماكنتوش (Mcintosh) إلى تأثير إسلامي واضح على حدائق عصر النهضة الأوروبية خاصة الايطالية نتيجة للتواصل المباشر بين الحضارتين من خلال قرب المسافة والتبادل التجاري والثقافي، بينما يشير البعض الآخر أمثال كويل إلى التأثير المحدود الذي ألحقته التعديلات والترميمات التي جرت في الفترات اللاحقة لسقوط الحكم الإسلامي في الأندلس على هاتين الحديقتين.

وتؤكد الحفريات والأبحاث التاريخية التي أجريت في حديقة العارف والتي يعود أقدمها إلى عام 1812 حينما أجريت دراسة عليها بهدف القيام بإصلاحات ووفقا لكويل "فالحديقة القديمة الأصلية لم تختلف كثيرا عما هي عليه الآن". (Cowell ,1978 ,P. :73).

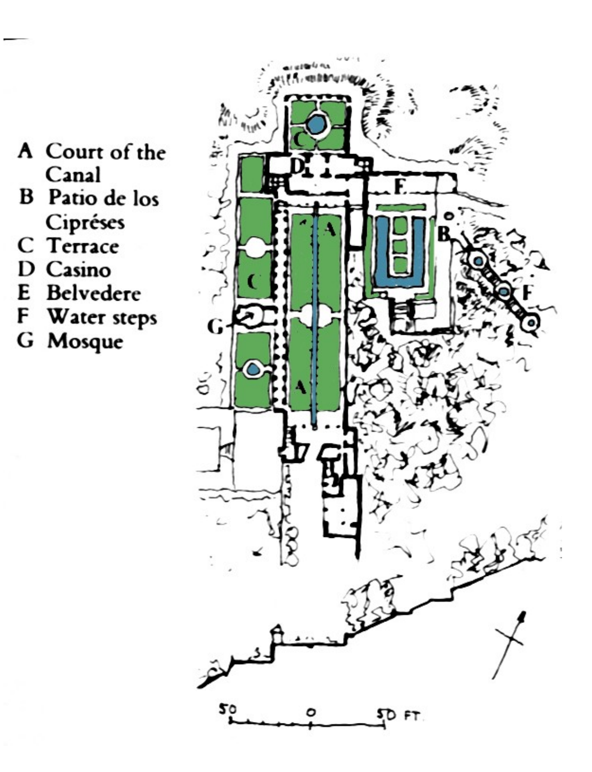
وقد بنيت حديقة العارف في بداية القرن الرابع عشر كمقر صيفي لملوك بني الأحمر في غرناطة وتقع عاليا على منحدرٍ مجاور لقصر الحمراء وعلى مستوى أعلى منه، ومروي بشكل جيد، والحديقة بشكل عام هي حديقة فناء داخلي تقليدية تحوي قناة مائية عبارة عن محور طولي بينما المحور العرضي عبارة عن ممر مبلط، إلا أن ما يميزها عن غيرها هو التعامل الحساس مع الموقع المنحدر بالإضافة إلى التواصل مع الطبيعة المحيطة الذي يؤمنه الموقع المرتفع والمطل لحديقة القناة دون الإضرار بالخصوصية لكونها مكان مغلق، وذلك ما يتيحه الرواق المعمد من الجانبين والذي يقسم الحديقة طوليا ويشكل الجدار الغربي لحديقة القناة ويتيح النظر منها إلى المحيط، وفي وسطه مسجد صغير يقسم الامتداد الغربي للحديقة إلى قسمين.



شكل(1–12): حديقة القناة كما كانت تبدو في 2004/3/10 ، المصدر :(http://picasaweb.google.com).

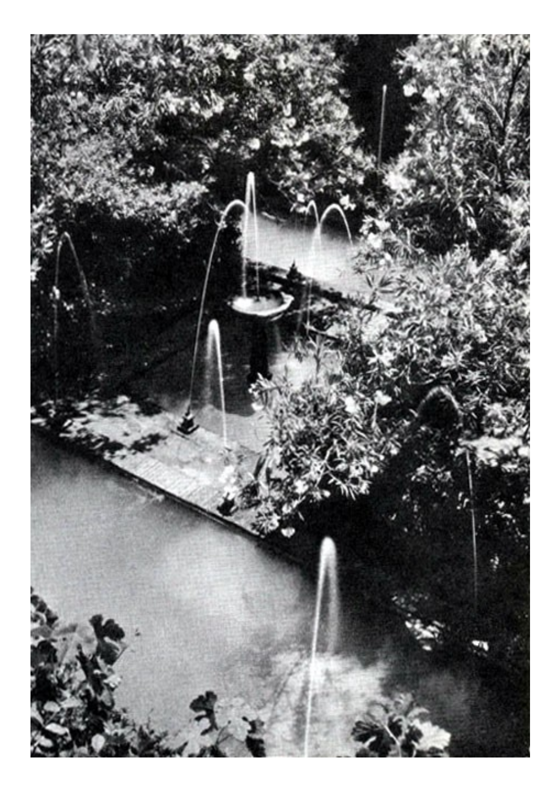
وهنالك أيضا بالمبنى فناء صغير معروف بالتراس ذو نسب مربعة يقع في الناحية الشمالية خلف المبنى المعروف بأسم (كازينو) وتظهر مخططات عام 1812 أنه كان يعتمد التخطيط المحوري من خلال محورين عمودي وأفقي يشكلان ممر الحركة وفي الوسط بركة دائرية، لكن أهم مميزات هذه الحديقة الصغيرة هو جدارها الشمالي الذي يتيح إطلالة على المحيط الخارجي من خلال ثمانية أقواس تشكل نوافذ للرؤية ويبدو أن عددها يشير إلى عدد أبواب الجنة.

وفي مستوى أعلى إلى الشرق تقع حديقة أخرى أصغر قليلا من حديقة القناة، تعرف بأسم حديقة السرو وفي بعض الأحيان حديقة الحريم، وهي حديقة كانت مخصصة لنساء القصر ولا يتضح الكثير من معالمها الأصلية، إلا أنها كانت على ما يبدو محددة بواسطة قناة مائية على شكل حرف U وكانت تزرع بالورود والأزهار.



شكل (1–13): مخطط حديقة العارف كما تشير إليه حفريات العام 1812،

المصدر : (Jellicoe,1975,P: 42) بتصرف.



شكل (1–14): صورة لحديقة الحريم كما بدت عام 1966 ،

المصدر : (Janick, 2005,P:25).

إن أحد أكثر المعالم أهمية في الحديقة هي ما تعرف بالدرجات المائية وهي عبارة عن درج ينحدر من قلب الجبل المشجر إلى حديقة الحريم، وتحوي الدرجات على عدد من النوافير بالإضافة إلى الشلالين الصغيرين الذين يعلوان الجدارين الجانبيين للدرج (الدرابزين)، وهو ما يصفه جوليكو وسوزان جيوليس بقولهما :"إن الهواء البارد والمنظر الرائع، يكونه رؤية وسماع صوت الماء المنهمر ليس في النوافير فقط ولكن على الدرابزينات من كل جهة ". (Jellicoe,1975, P: 42).

وأهمية هذه الدرجات هو ما يعتقد أنها تمثله من الاهتمام بروايات السيرة النبوية عن وصف الجنة ويتسق ذلك على مايبدو مع وصف زهير حميدات دلال حور الجنة وفقا لما جاء فيها في كتابه نعيم الجنة بقوله :" وبينما أنت يا ولي الله في الجنة مع زوجتك من الحور العين، على سرر من ياقوت أحمر، وعليك قبة من نور، فتقول لها: قد اشتقت إلى مشيتك، فتنزل من سرير الياقوت الأحمر إلى روضة مرجان أخضر (من خلال درج)، فيُنشئ الله عز وجل لها في تلك الروضة طريقين من نور، أحدهما نبت الزعفران، والآخر نبت الكافور، فتمشي في نبت الزعفران، وترجع في نبت الكافور، وتمشي بسبعين ألف لون من الغنج". (حميدات،2001 ،ص 72)



شكل (1–15) : الدرجات المائية كما بدت عام 1972،

المصدر : (Janick, 2005,P:27).

وبسقوط غرناطة وما تبعه من قسوة محاكم التفتيش الاسبانية، وسياسة التهجير والتنصير التي اتبعتها، انتقل الكثير من الحرفيين والفنانين المهرة من الأندلس إلى شمال أفريقيا (منطقة المغرب العربي) حيث حملوا مهاراتهم وخبراتهم، وبذلك استمرت الحدائق ذات الطراز الأندلسي وتطورت دون تدخل خارجي، وقد ساعد في ذلك بقاء جزء كبير من المغرب العربي خارج سيطرة الإمبراطورية العثمانية .

1-2-6: الحديقة المغولية في آسيا والهند:

في حدود العام 1219 غزا المغول (الذين عرفوا ببداوتهم حينها) أجزاء كبيرة من آسيا إلى أن وصلوا في العام 1258 إلى بغداد فأحرقوها ودمروا مكتبتها الشهيرة، إلا أن المغول بعد هزيمتهم في معركة عين جالوت الشهيرة التي وقعت في شمال فلسطين في العام 1260 م تراجعوا إلى ما وراء نهري دجلة والفرات وأنشئوا دولة امتدت من الصين إلى فارس، واتخذوا عاصمتها مدينة سمرقند ذات العمارة الغنية بالطابع الفارسي الإسلامي، تأثر المغول بالديانة الإسلامية التي كانت ديانة الشعوب التي سيطروا عليها، فأسلموا وتعمقت في نفوسهم بعاداتها وتعاليمها، وقاموا بنشر الدين الإسلامي في كثير من المناطق التي سيطروا عليها.

وقام تيمورلنك بجلب المعماريين والفنانين والشعراء ومصممي الحدائق من مختلف المناطق لإثراء عاصمته سمرقند "وأنشئت فيها الحدائق التي تميزت بالمقاصير والممرات التي تحدها الأشجار والنوافير"، (Lehrman,1980,P:140)، وقد تأثرت هذه الحدائق الأولى بالطابع الإيراني وحملت في كثير من الأحيان أسماء فارسية كما حملت سمات مختلفة متأثرة بالحضارات التي سيطر عليها المغول مثل الطابع الصيني.

وخرجت سمرقند بعد صراع طويل مع الفرس من سيطرة المغول بقيادة بابور (Babur) الذي نقل عاصمته إلى كابول في أفغانستان، حيث عرف بابور بعشقه للحدائق وتأثره بما فقد في سمرقند من حدائق فقام ببناء عدد من الحدائق في محيط كابول وأهمها حديقة (Bagh-i-Vafa) والتي ذكرها عدة مرات في مدوناته باللغة التركية المحلية، ويبدو أن هذه الحديقة بنيت للتعبير عن الانتصارات العسكرية لملوك المغول.

وهذا الأمر الذي يتضح من خلال وصف الحديقة على لسان بابور والذي يورده ستيوارت فلرز (Stuart Villiers) بقوله: "على الجهة المقابلة لحصن ادنبور(Adinahpur) والى الجنوب على أرض مرتفعة شكلت حديقة على طراز الشارباجة في العام 1508 وسميت (Bagh-i-Vafa)، وهي مطلة على النهر الذي يجري ما بين القلعة والقصر، وفي العام الذي هزمت فيه بيهار خان وسيطرت فيه على لاهور وديبل، لقد أحضرت النباتات وزرعتها هنا وقد نمت وأثمرت، وفي السنة الماضية زرعت فيها قصب السكر أيضا والتي نمت بشكل جيد جدا وقد أرسلت بعضا منها إلى بخارى، والحديقة تقع على منحدر وتتمتع بالماء الجاري والجو في فصل الشتاء معتدل، وفي الحديقة ربوة

صغيرة يخرج منها نبع ماء جاري ينساب ليدير طاحونة ويتدفق مباشرة إلى الحديقة في الأسفل وأرض الحديقة المقسمة إلى أربع أجزاء، وفي القسم الجنوبي الغربي من الحديقة يقع خزان ماء مربع للماء مساحته 20 متر مربع ومحيطه مزروع بالكامل بأشجار البرتقال بالإضافة إلى أشجار الرمان وجميع بقعة الأرض حول الخزان مزروعة بنبات البرسيم وهذه الرقعة من الحديقة هي آية من الجمال، في الوقت الذي يصبح لون البرتقال أصفر ولا شك بسحر هذه الحديقة ".

(C.M Villiers, Chapter 1 ,P: 11)

بعد أن ثبت الملك بابور سلطته على كابول التفت نحو الهند التي غزاها وفي بداية القرن السادس عشر، وأعلن نفسه حاكما لدلهي ليشكل أول ملك ضمن سلالة من 6 ملوك مغول حكموا شبه القارة الهندية في الفترة 1526–1707 حين سقطت إمبراطوريتهم بأيدي البريطانيين، تمركز المغول في الهند في منطقتين أساسيتين هما آجرا (دلهي) ووادي كشمير، تمتاز آجرا بطبيعتها السهلية ذات المناخ الاستوائي الحار الجاف والذي يكاد يخلو من الماء الجاري باستثناء بعض الأنهار بالإضافة إلى الأمطار الموسمية في شهري 7 و8 بينما على النقيض من ذلك يتمتع وادي كشمير بطبيعة جبلية تدرجه بوقوعه على سفوح جبال الهمالايا والبيئة الخصبة المليئة بالأشجار والينابيع الجارية، وهو الأمر الذي دفع الإمبراطور المغولي جاهنجير (Jahangir) لوصفها بقوله:" إن كشمير عبارة عن حديقة ذات ربيع أبدي، أو قلعة حديدية لقصر ملكي وأحواض من الزهور الرائعة والينابيع الجارية التي لا تحصى وأينما تقع عين الناظر فهناك ماء جاري ". (Lehrman,1980,P: 139)

وقد منح هذا التنوع الجغرافي والمناخي عمارة الحدائق المغولية تنوعا معماريا كبيرا ساهم فيه أيضا تأثر المغول بعدد كبير من الحضارات والثقافات مثل الصينية والفارسية وحتى المحلية الهندية المتمثلة بالثقافة الهندوسية والبوذية وهو ما يؤكده جونز ليرهام بقوله :" تتمتع شبه القارة الهندية بتاريخ وتقاليد عريقة في إنشاء الحدائق وبعض وسائل الري وحتى الحدائق العامة تعود بغنى عبر الزمن إلى أكثر من ألفي عام مضت ".

وتشير العديد من المصادر التاريخية إلى ارتباط الحدائق الهندية قبل الإسلام بالطقوس الدينية البوذية وارتباطها بالمعابد والأديرة الأمر الذي منح عامة الناس حرية الدخول إلى هذه الحدائق، وفي مرحلة لاحقة أصبحت الحديقة جزء من قصور الأمراء والتجار والنبلاء الذين اهتموا بها كثيرا ومالوا إلى التباهي وإبراز النباتات وتصميمات الحدائق على الرغم من المحافظة على الخصوصية والأمن فيها.

وقد أثر هذا الأمر كثيرا في ثقافة الحدائق المغولية الإسلامية في الهند من خلال أنماط الحدائق التي ظهرت لاحقا، وهو الأمر الذي يؤكده جونز ليرهام بقوله: "ليس هناك شك أن التقاليد الهندسية لم يقتصر تأثيرها على الحدائق المغولية فقط ولكن أثرت أيضا على الحدائق الإيرانية المبكرة"(Lehrman,1980,P:139)، وذلك على الرغم من الاختلاف الجوهري في تصميم الحدائق البوذية المعتمد على المخطط الحر الطبيعي (ارجع إلى باب حدائق الصين).

ويتضح الاهتمام المكثف بالحدائق الذي أولاه الملوك المسلمين في الهند عند العودة إلى الروايات التاريخية حول نيروز شاه في القرن الرابع عشر التي تشير إلى إنشاءه أكثر من 200 قرية وخمسين سدا وثلاثين خزان لجمع الماء والعديد من الحدائق المختلفة في محيط مدينة دلهي وان كان معظم هذه الحدائق عبارة عن بساتين من الأشجار إلا أنها احتوت على أفنية للري والعديد من النوافير وتميزت بمخططاتها الهندسية المنتظمة في استبدال للمخطط الحر الذي ميز الحدائق البوذية.

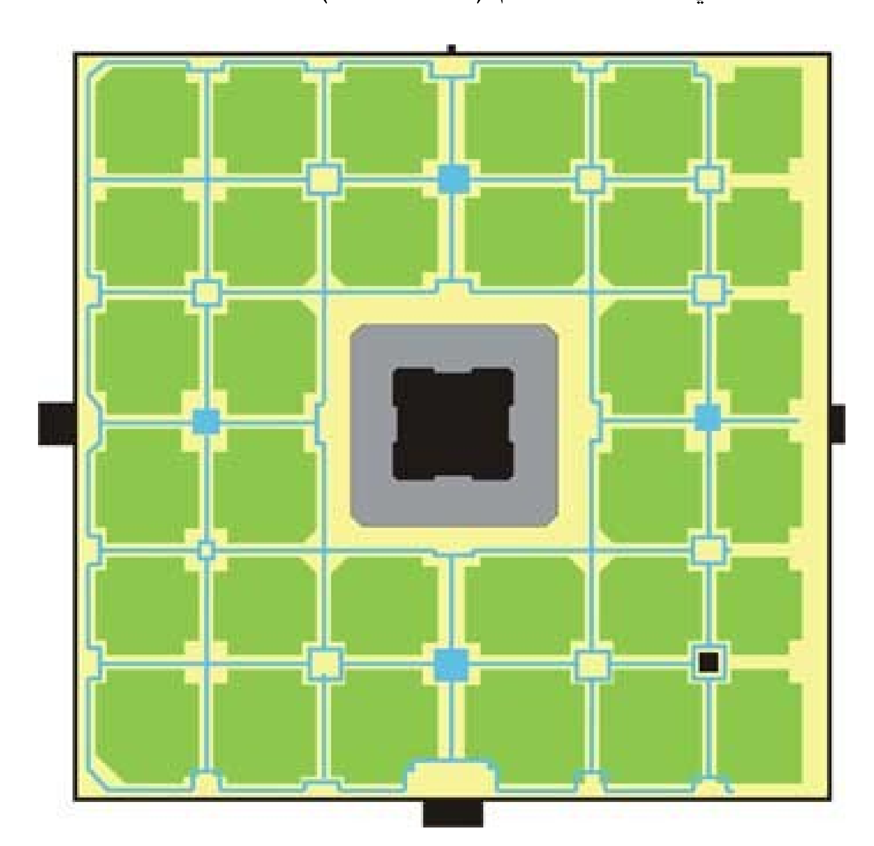
بلغت الحدائق المغولية في الهند أوج تطورها في حدود القرن السادس عشر أي بعد أكثر من 200 عام على عهد السلطان نيروز شاه ،وظهرت أولا الحدائق ذات المخطط الهندسي ذو النسب المربعة لأول مرة في منطقة (Baz-bahadur) مع بركة ومنزل للمتعة في مركز الحديقة التي احتوت على الأشجار والأزهار وقد أحتوى القصر أيضا على النوافير والبرك ذات البلاط الملون .

ولقد كانت الحدائق الملكية المغولية غنية بالعناصر المعمارية المختلفة مثل الماء وخاصة الجاري والنوافير والشرفات والقنوات والآبار وحتى المدن الحدائقية حيث تشير المصادر التاريخية إلى بناء المغول مدينة حدائقية في حدود القرن الخامس عشر أسموها بارودا (احمد أباد) وكانت عاصمة إقليم غوجرات الإسلامية، وهو الأمر الذي دفع العديد من الباحثين أمثال ليرهام إلى وصف الحدائق الإسلامية المغولية " بأنها أكثر الحدائق الإسلامية تطورا".

وقد ساهم في ذلك ما يصفه ليرهام بمعرفة كل ملوك المغول بدءا من بابور وانتهاء بأورانجيب(Aurangzeb) بأساسيات ومفاهيم حدائق الجنة الإيرانية وحبهم للحدائق وإنشائهم إياها وقضائهم الوقت فيها وزراعتها وصيانتها وتدوينهم لانجازاتهم في هذه المناطق، بل يبدو من بعض الروايات والمدونات التاريخية قيام بعض الملوك بتصميم حدائقهم بأنفسهم كما يتضح من وصف السلطان بابور لقيامه بإنشاء أول حديقة له في آجرا.(Lehrman ,1980,P: 140).

وقد لعبت البيئة الطبيعية لآجرا التي لم تتناسب مع زراعة الأشجار التي ميزت عمارة حدائق المغول في كابول وسمرقند دورا مهما في تطور الحدائق المغولية في الهند حيث دفعهم ذلك إلى التعويض عن الأشجار من خلال تطوير العناصر المعمارية لهذه الحدائق، كما أعطت الطبيعة المنبسطة لسهل آجرا للحدائق الإسلامية أبعادا مساحية جديدة غير معهودة في السابق بحيث خرجت من إطار الأفنية الداخلية وأصبحت تغطي مساحات شاسعة.

ولا شك أن أهم العناصر التي تطورت بشكل كبير في الحدائق المغولية هو الاستخدام المكثف للعناصر المائية خاصة في سهل آجرا، بالرغم من ندرة مصادر المياه الجارية باستثناء بعض الأنهار، الأمر الذي دفعهم إلى استخدام وسائل مختلفة لرفع الماء إلى قنوات الري والبرك، وعلى عكس الحدائق المغولية المبكرة التي كانت فيها القنوات المائية رفيعة وضحلة ومحاطة بمساحات مبلطة عريضة من الجانبين كما في حديقة قبر هميم (Humayum) .



شكل(1-16): مخطط حديقة قبر هميم "Humayum" ،

المصدر :(http://www.gardenvisit.com)



شكل (1–17): حديقة قبر "Humayum" (من الضريح بأتجاه المدخل الرئيسي) ،
المصدر : (http://ira.informatik.uni-freiburg.de).

ولقد تميزت حدائق الفترات اللاحقة بعرض القنوات المائية ومساحات البرك الكبيرة وهو الذي يظهر بشكل جلي في حديقة شلمار باجة، حيث دفعت البيئة المنبسطة لسهول آجرا المعماريين في تلك الفترة إلى البحث عن وسائل لإعطاء انطباع بحركة الماء من خلال تبليط أرضية القنوات ببلاط متعرج على شكل أمواج ألوان مختلفة للإيحاء بحركة الأمواج، بينما بنا المغول الشلالات في منطقة كشمير التي تتميز بكثرة الينابيع والتضاريس المنحدرة كما تميزت البرك في الهند بشكلها المربع .

ولم تقتصر الرمزية في حدائق المغول على صفة الجنة في القرآن والسنة بل تعدتها إلى أمور علمية وثقافية فنجد جونز ليرهام يقول:"الحديقة المغولية قد تحوي على ثمان شرفات (مستويات) متعاقبة التي تتبع الفكرة الإسلامية التي تقسم الجنة إلى ثمان درجات وفي بعض الحالات قد تحوي الحديقة على سبع مستويات في إشارة إلى الكواكب السبع التي عرفوها، بينما يشير بعض الدارسين أن حديقة نشأت باجه المقسمة إلى اثني عشر مستوى متتالي هي إشارة إلى الأبراج السماوية ".
(Lehrman,1980,P: 142)

وفي الغالب تطورت الحديقة المغولية في الهند ضمن نمطين أساسين: **النمط الأول يتمثل في حدائق الأضرحة والمزارات** في الهند عن مثيلاتها في إيران بينما كانت مثل هذه الحدائق تبنى في إيران حول أضرحة العلماء والأولياء بعد وفاتهم.

ويبدو وفقا لجونز ليرهام وسوزان جوليكو "أن هذا الأمر تطور من عادات وتقاليد المجتمع المغولي والهندوسي، حيث كانت الحديقة تبنى خلال حياة الشخص المالك لها وليس بعد وفاته ويبدو أن المبنى الذي يوضع في مركزها كان يستخدم للاستقبال والحفلات، وبعد وفاة الشخص المالك كان يحول إلى ضريح وبعد ذلك تفتح أمام العامة ومن الأمثلة عليه ضريح اعتماد الدولة"، وفي الغالب كانت حدائق هذا الطراز مصممة حسب طراز الشارباجه ولعل أهم الأمثلة على هذا النوع هو حديقة تاج محل التي سيتطرق اليها البحث لاحقا.

أما **النمط الثاني من الحدائق المغولية الإسلامية فيتمثل بحدائق المتعة** التي ميزت حدائق منطقة كشمير وانحصرت في الغالب بها وأظهرت اهتمام ملوك المغول الخاص بها، حيث مثلت مصيفا لجئوا إليه من حر صيف سهل آجرا بما يتمتع به من سهول خصبة وهضاب خضراء وينابيع دافقة، حيث يصفه جونز ليرهام " بأنه جنة طبيعية على الأرض " .

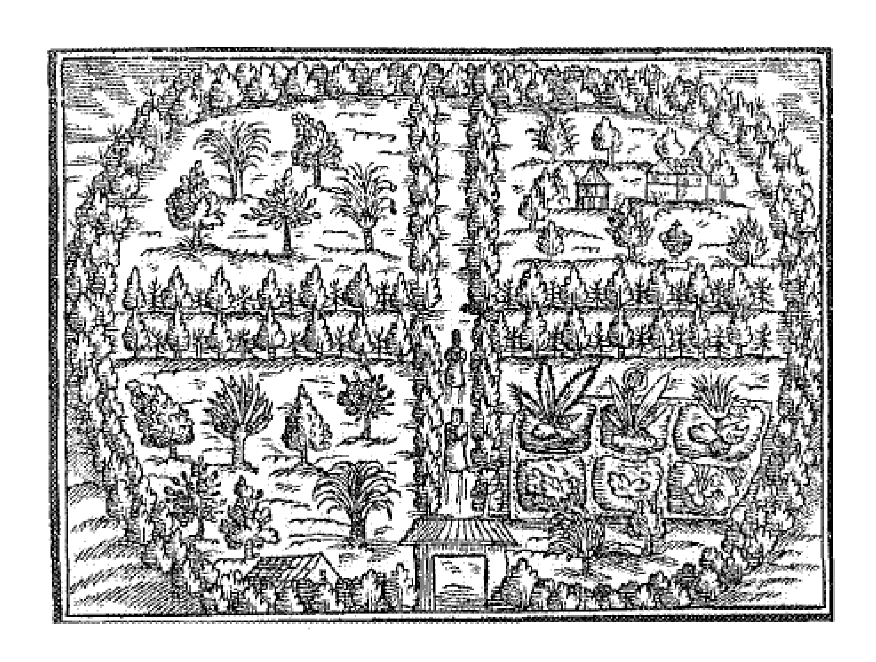
1-2-7: الحديقة في تركيا العثمانية :

لا تتوفر الكثير من المعلومات عن الحدائق في الفترة التي سبقت سيطرة الأتراك العثمانيين على اسطنبول(القسطنطينية) في العام 1453م، حيث امتازت القسطنطينية في حينها بحضارة متقدمة معماريا وفنيا، ووفقا لنورهان أتسوي (Nurhan Atsoy)" فقد واصل العثمانيون العمل في تلك الحدائق والمزارع التي وجدوها فيما أصبحت عاصمتهم والأراضي التي استولوا عليها من بيزنطة، مضيفين عليها معارفهم الثقافية وأذواقهم وخبراتهم وعاداتهم"، (مقالAtasoy 8/2002)، وتمتعت هضبة الأناضول بطبيعة ساحرة تمتاز بغزارة الأنهار و المياه و الأمطار الأمر الذي أثر على تصميم الحدائق العثمانية واكسبها أبعادا جديدة مختلفة عن تلك التي كانت في باقي المناطق الإسلامية التي تميزت بجفافها و ندرة الماء فيها في غالب الأحيان .

ويؤكد نورهان أتسوي على ذلك بقوله "عند إنشاء العثمانيين حدائقهم أوجدوا حلولا تتناسب مع الطبوغرافية والأبعاد والمناخ والظروف العامة لموقع الحديقة بعينه عوضا عن وضع شروط وقوانين مسبقة، ولذلك بدلا من بناء قنوات مائية للري أنشئوا الحدائق حيث يتوفر الماء الجاري والأشجار بشكل طبيعي". (Atasoy , 2002 ,P:1)

ولعدم وجود حدائق عثمانية حية تعود إلى القرن السادس عشر وما قبله فقد اقتصرت دراسات الباحثين على النصوص المكتوبة واللوحات والرسومات التي رسمها المؤرخون الأوروبيون والأتراك لتلك المرحلة، ويشير نيكيبولجو (Gulru Necipoglu) " إلى أن التقليد العثماني في الحدائق لا يتناسب بشكل مريح مع التعريف المعتاد للحدائق الإسلامية ولذلك نادرا ما يتطرق الباحثون إلى الحدائق العثمانية في الكتب التي تحمل عناوين مثل الحديقة الإسلامية، أو حدائق الجنة الإسلامية، والتي عادة تركز على الحدائق الإسلامية ضمن طراز الشارباجة بمحاورها المتعامدة وقنواتها المائية، إلا أن الحدائق العثمانية تمثل امتدادا لهذا الفكر القائم على تصوير الجنة والغني بالرمزية". (Petruccioli , 1997,P: 32)

وعلى الرغم من أن معظم الحدائق العثمانية تمتاز بكونها أقل نظامية من مثيلاتها في المناطق الإسلامية الأخرى إلا أن ذلك لم يمنع وجود حدائق تمثل التصميم المحوري المتعامد (شارباجه) وهو الأمر الذي تؤكده روايات المؤرخين الأوروبيين وفقا لنيكيبولجو (Gulru Necipoglu) التي تتحدث عن وجود حديقة من هذا الطراز بين حدائق ريف اسطنبول في القرن السادس عشر الميلادي عرفت بحديقة كرابالي(Karabali) في منطقة كاباتس(Kabatas) التي تقع على الجانب الأوروبي من البوسفور، وهو الأمر الذي لم يشكل حالة معزولة حيث أستمر استخدام المحاور في العديد من الحدائق العامة العثمانية ولكن بصورة اقرب لحدائق عصر النهضة الفرنسية.



شكل (1–18): مخطط حديقة (Karabali) ،

المصدر : (Petruccioli ,1997,P:53)

ولقد ساهمت الطبيعة المناخية المختلفة للأناضول في إيجاد أنماط معمارية مختلفة للحدائق حيث يقول مورس سيراسي (Maurice Cerasi): " إن الحدائق الهندسية النظامية كانت نادرة ولعبت دورا هامشيا في استمتاع العثمانيين بالطبيعة خارج الأبواب"، إلا أن ذلك لم يعني عدم اهتمام العثمانيين بالحدائق فنجده يضيف معقبا:"إن فناء داخلياً مبلط بالرخام قد يولد نفس الشعور الذي تمنحه المساحات الطبيعية مثل حديقة مزروعة بالزهور وأشجار السرو، حيث كانت معظم مباني الأمارة مثل المدارس والمكتبات والأسبلة كبيره كانت أو صغيرة تحوي على حديقة أو حتى مقبرة مزروعة بالأشجار والزهور حيث كان التعامل مع الطبيعة بالنسبة للعثمانيين جزء من حياتهم اليومية".

(Cerasi ,1986,P: 16)

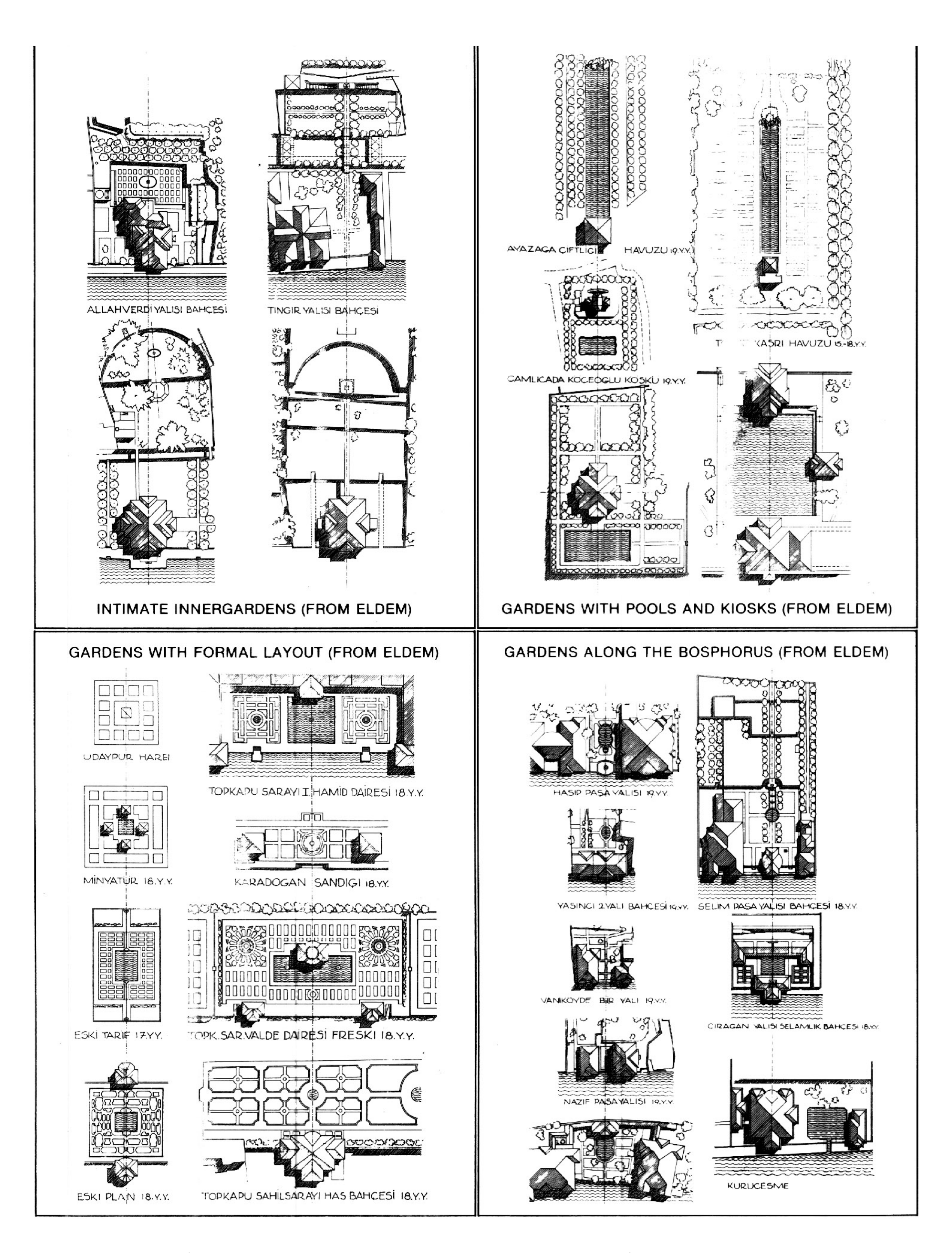
وهو ما يؤكده نيكيبولجو (Gulru Necipoglu) من خلال سرده لمجموعة من الكتابات لرحالة أوروبيين في القرن السادس عشر تؤكد أن سواحل البوسفور كانت مسورة بخطين من الحدائق التابعة لملكية القصور الكبيرة وأن معظمها تركزت في الجانب الآسيوي من هذا المضيق.

(Petruccioli,1997, P:33)



شكل (1–19): صورة لمضيق البوسفور (القرن الذهبي) ،ويلاحظ انتشار الحدائق والأشجار على جانبيه.

المصدر: موقع (www.huseyingungor.gen.tr)



شكل (1−20): مجموعة مخططات لأنماط مختلفة من الحدائق العثمانية ، حيث يلاحظ خروجها عن الأنماط النظامية للحدائق الإسلامية، المصدر :(Cerasi ,1986,P: 18)

يشير جوليكو وسوزان ليرهام إلى مدينة بورصة التي بناها العثمانيون الأتراك في العام 1326 م في سهل خصيب أسفل جبال الأولداج على أنها حديقة ممتدة لا تقطعها التحصينات مثل تلك التي كانت تميز القسطنطينية المسيحية في حينه .

وبشكل عام امتازت العمارة العثمانية ببروز عناصر معمارية على حساب أخرى، ويبدو أن أحد أكثر العناصر المعمارية التي ميزت العمارة العثمانية هي القباب التي استخدموها بكثرة والتي دعت إليها الحاجة المناخية والحاجة إلى تمييز عمارتهم عن العمارة المسيحية المجاورة التي امتازت بالأسقف المائلة .

يصف جوليكو وسوزان ليرهمان استخدام العثمانيين القباب في حدائقهم وتشكيلاتهم الطبيعية بالقول" تبدو القباب في مقبرة السلطان مراد الملكية في بورصة كالمشروم بين الأشجار بما يمثل الفلسفة العثمانية ".(Jellicoe ,1975 ,P:36)



شكل (1–21) : صورة لمقبرة السلطان مراد الملكية ،

المصدر : (Jellicoe ,1975, P: 36)

وقد ظهرت هذه الفلسفة من خلال العديد من العناصر المعمارية التي ميزت الحدائق العثمانية وأهمها المقصورات التي امتازت بتشكيلات كثيرة ومختلفة عن بعضها البعض وتنوعت من المتوسطة في الفخامة والحجم إلى الضخمة والفاخرة، ويشير اتسوي (Nurhan Atsoy)" إلى أن أهم نقطة فيها هو اختيار أفضل موقع لها والذي يوفر أفضل إطلالة على المحيط وأن يندمج وسط الحديقة كجزء من الطبيعة ". (Atasoy , 2002 ,P:2)

كما امتازت الحديقة في الفترة العثمانية بزراعة العديد من الأشجار مثل البلوط والسنديان والسرو (Cypress) الذي كان يزرع على شكل صفوف تشكل ممرات طبيعية فيما بينها، وعلى غرار معظم الحدائق على امتداد العالم الإسلامي تعددت وظائف الحديقة العثمانية فبالإضافة إلى الوظيفة الجمالية التي مثلتها الأزهار زرعت الحدائق بأشجار الفواكه والخضراوات المختلفة لتمثل واحة إنتاجية.

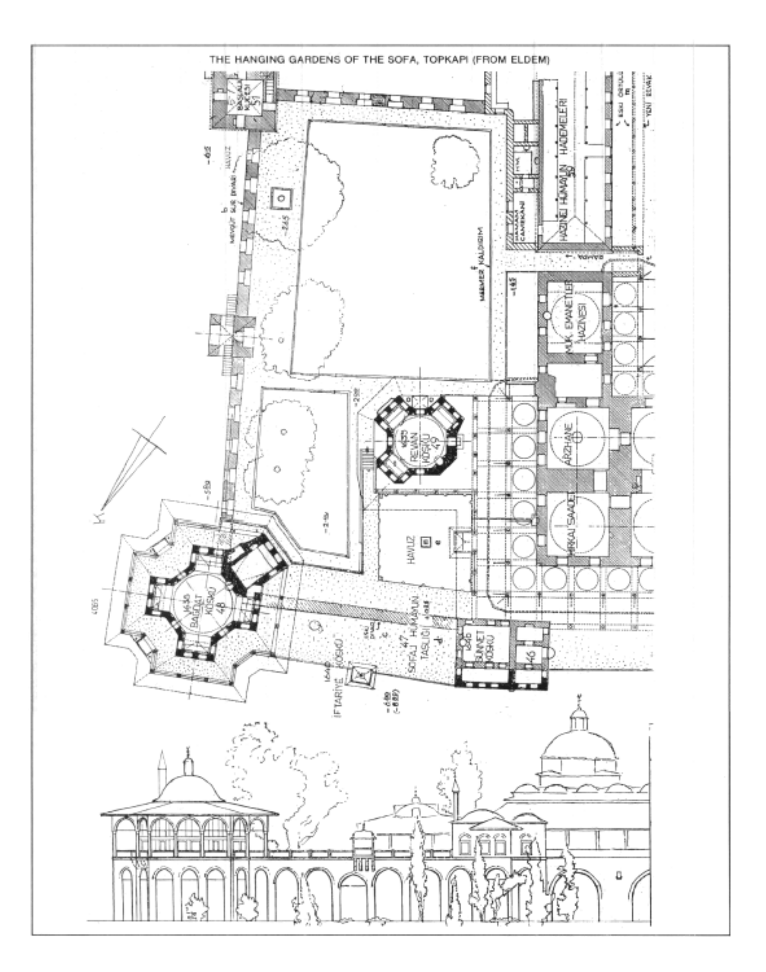
ولم تخرج الحديقة العثمانية عن التقليد السائد في استخدام النوافير والبرك التي تصب فيها على الرغم من وقوع تلك الحدائق في الغالب على ضفاف الأنهار وشواطئ البوسفور، وأن كانت هذه النوافير متواضعة واقتصرت على برك مربعة أو ثمانية الأضلاع، حيث كانت كل حديقة تحوي على بركة أو أكثر.

ولقد مثلت زراعة الزهور أهمية كبيرة لدى العثمانيين حتى عرفت فترة السلطان احمد الثالث الذي عرف بحبه للورود والأزهار مثل الليلك والياسمين وخاصة التيوليب الذي انتشر بعهده بكثرة ودخل إلى أوروبا لأول مرة من تركيا بالقرن السادس عشر بعهد التيولب، ويشير سيراسي إلى أن "الحدائق العثمانية بلغت أوجها في القرن السادس عشر إلا أن التقليد والتأثر بالحضارة الغربية الذي بدأ في القرن الثامن عشر والمتمثل بالتأثر بالحدائق الانجليزية والفرنسية وحتى الصينية قوض طبيعتها وطرازها الخاص ". (Cerasi,1986, P: 16)



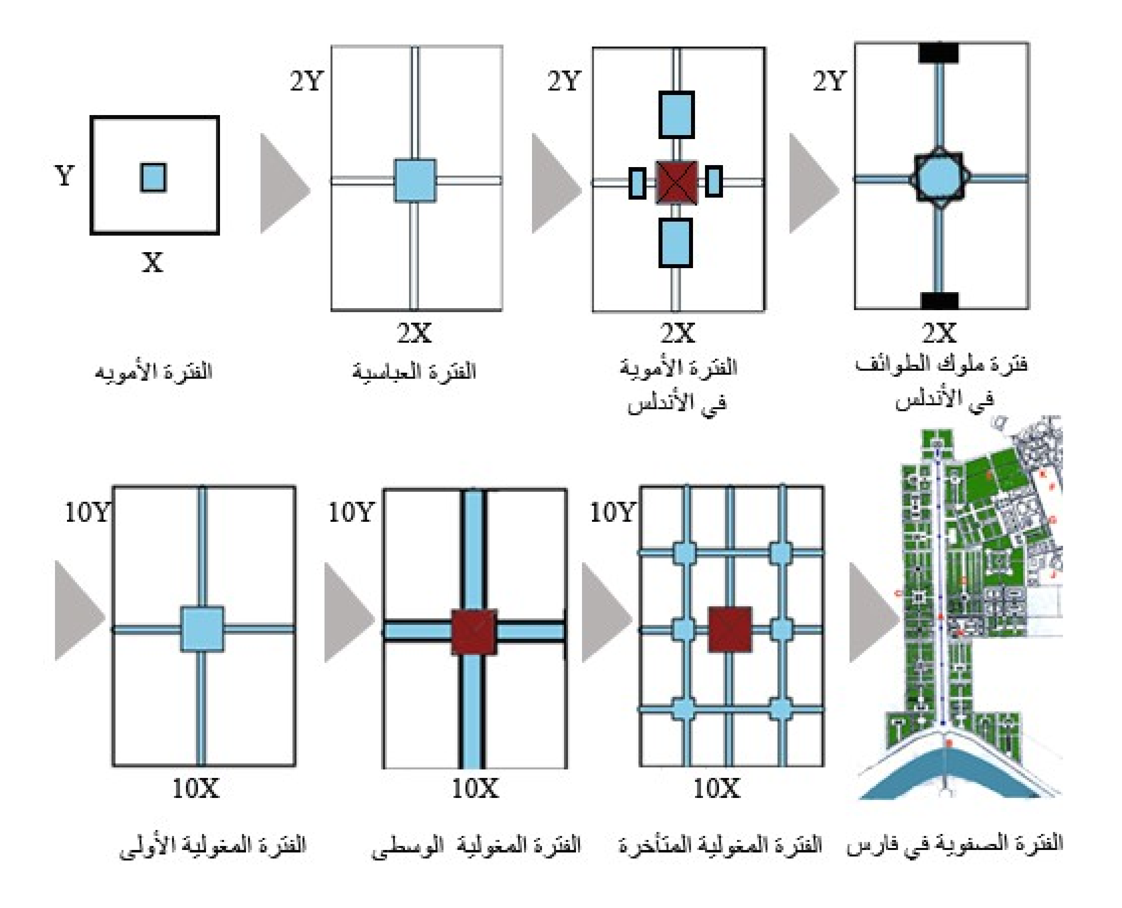
شكل (1–22): صورة لأحدى نوافير حديقة قصر توباكي،

المصدر : (www.gardenvisit.com)،



شكل (1–23) : مخطط قصر توباكي (Topaki) ، ويلاحظ بها ضخامة الحديقة التي جاءت على شكل فناء داخلي.
المصدر : (Cerasi,1986, P: 18)

ويرجع ذلك التراجع على ما يبدو إلى انحسار دور الدين الإسلامي في هذه الفترة فأصبحت المساجد الكبيرة والمركزية نادرة البناء وأصبحت مباني الإمارة أصغر وفي بعض الحالات اختفت تماما، ورافق ذلك زيادة التبادل التجاري في المحلات والخانات، ونتيجة لذلك تراجعت أهمية الخصوصية في حدائق الفترة العثمانية المتأخرة وهو ما يصفه سيراسي بقوله "إن الحدائق الإسلامية الشرقية المغلقة وذات الطبيعة الهندسية المنتظمة والتي سيطرت على طبيعة الحدائق العثمانية المبكرة تراجع دورها وتلاشت أمام حدائق أغنى بالعناصر وأكثر انفتاحا"، ويمثل قصر توباكي (Topaki) أحد أهم الأمثلة على عمارة حدائق القصور في الفترة العثمانية. (Cerasi, 1986,P: 16)



شكل (1–24) : رسم توضيحي لتطور الحدائق عبر الفترات الإسلامية المختلفة من ناحية القياس و التشكيل،

المصدر : الباحث بتصرف عن مخططات الحدائق الواردة في الفصل الأول.

وبشكل عام يلاحظ أن المسلمين أبدعوا كثيرا في الاهتمام بالحدائق حيث أهتم المصممين في العمارة الإسلامية بالمباني وكذلك بالعمارة الخضراء لما لها من مزايا بيئية وجمالية واجتماعية، وطوروا حدائقهم انطلاقا من الأفنية الداخلية البسيطة إلى حدائق القصور والمزارات، ومرت هذه الحدائق بمراحل تطور تدريجي على مدى تاريخ الحضارة الإسلامية، فتعددت أنماطها وأشكالها وهو ما سيناقشه الفصل الثاني .

الفصل الثاني

أنماط و أشكال الحديقة في المجتمعات الإسلامية.

2-1 : الفناء الداخلي.

2-1-1: أفنية المنازل السكنية.

2-1-2: أفنية القصور.

2-1-3: أفنية المساجد.

2-2 : الحدائق الكبرى.

2-2-1: الحدائق الملكية.

2-2-1-1: حدائق لإبراز قوة وسلطة الملوك .

2-2-1-2: حدائق المتعة.

2-2-2: حدائق المقامات و المزارات.

2-3: المدن الحدائقية.

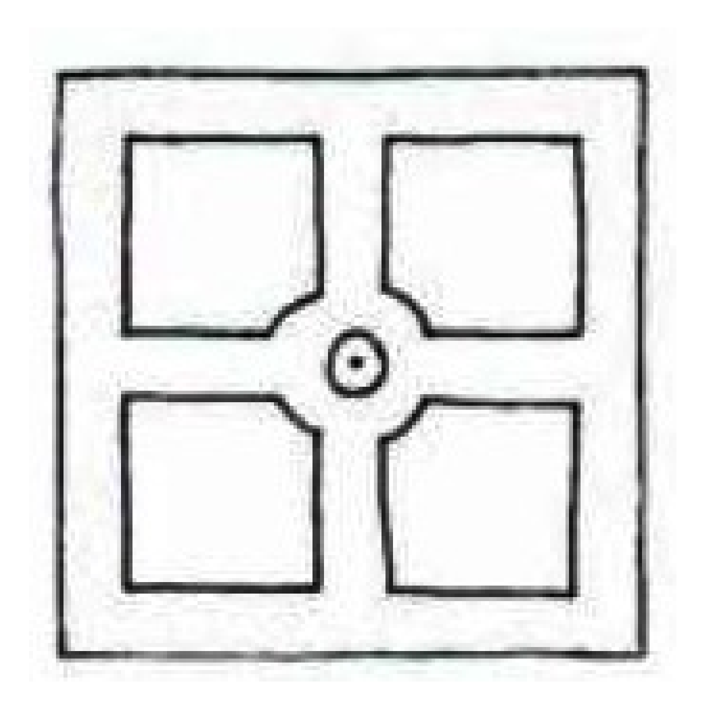
الفصل الثاني

أنماط وأشكال الحديقة في المجتمعات الإسلامية

انطلاقا من البساتين ذات الأهداف الزراعية في الأساس التي عرفها عرب الجاهلية في الجزيرة العربية تطورت الحدائق في المجتمعات الإسلامية تدريجيا عبر التاريخ وشهدت ازدهارا في العمران وتطورا غنيا في العناصر المعمارية وتشكيلاتها وتغيرت وظائفها وتعددت واكتسبت خواص جديدة من أهمها الخصوصية بمستوياتها المختلفة، إلا أن الدارس لهذه الحدائق يلاحظ انحصارها في نمطين أساسيين يتشابهان في العناصر المعمارية ويختلفان في ناحية المقياس وطبيعة الاستخدام، وهما حدائق الأفنية الداخلية والتي تنقسم بدورها إلى ثلاثة أنواع مختلفة هي أفنية البيوت وأفنية المساجد وأفنية القصور، والنمط الثاني هو حدائق المزارات والقصور الكبرى الأكبر في المقياس والمختلفة في التعامل مع العناصر والوظائف.

ويثير الفارق بين النمطين جدلا كبيرا بين العديد من الباحثين إلا أن ليرهام يرى أن: "الحدائق (الحديقة الكبرى) والفناء يتشاطران العديد من الخصائص والعناصر وأنهما يعادلان بعضهما البعض، وأن كلاهما يعكسان أحساسا عميقا بالمكان ".(Lehrman,1980, P: 34), وهو الأمر الذي يتضح من خلال شكل المخطط المشترك بين النمطين على اختلاف مستوياتهما، حيث تحول المخطط رباعي الأضلاع سواء بالنسب المربعة أو المستطيلة إلى النمط الغالب في تصميم هذه الحدائق، وهو ما يؤكده أرنود ماوريز(Arnaud Maurieres) بقوله:"إن المخطط المثالي لحدائق الجنة الإسلامية هو عبارة عن مخطط مغلق في مركزه نافورة تسقي أربع أحواض زهور مربعة يفصلها قنوات مائية أو ممرات معبدة بالطين أو الأحجار" . (Maurieres ,2001,P: 15).

وهو الأمر الذي يتضح أكثر في قول ليرهام: "إن الأفنية في العادة مربعة أو قريبة من الشكل المربع وهو ما يرمز إلى الثبات (Stability) والحدائق أيضا مربعة أو على الأقل رباعية الأضلاع، وعندما تكون الأرض مائلة تكون على شكل مستويات متلاحقة". (Lehrman ,1980,P: 34).



شكل (2-1) : المخطط المثالي للحديقة في المجتمعات الإسلامية كما يراه أرنود ماوريز،
المصدر :(Maurieres,2001, P: 15)

ويمكن تقسيم أنماط الحدائق الإسلامية إلى ثلاثة أقسام :

2-1 : الفناء الداخلي Court Yard :

يعود استخدام الفناء الداخلي إلى فترة طويلة قبل الإسلام، فقد ظهر البناء في هذا النمط في معظم الحضارات التي سبقت الإسلام في منطقة الشرق الأوسط، فنرى هذا النمط في تشكيل المباني في الحضارة الفرعونية وحضارة ما بين النهرين وكذلك الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية، ويبدو أن ذلك يرجع إلى نجاعة هذا النمط في عملية التكييف البيئي والتي تتطلبها البيئة القاسية الحارة والجافة التي تسود المنطقة، وتعمق هذا المفهوم في المجتمعات الإسلامية من خلال تطور نسب الفناء وارتفاع المباني والجدران المحيطة به لتحقيق أفضل حماية بيئية وهو ما يؤكده عبد الباقي إبراهيم بقوله: "لقد أكتسب الحوش في العمارة الإسلامية بعدا جديدا وانتظمت العناصر حوله وارتبطت به لتحقيق الاستفادة القصوى من هذا الفراغ، فتصميم المسكن الإسلامي نبع من الداخل إلى الخارج وبالتالي فقد أنصب الاهتمام والتأكيد على الواجهات الداخلية ويمكن ملاحظة ذلك في التنويع في استعمال الزخارف والحليات حول الفتحات والأبواب بالإضافة إلى التنويع في الفتحات ضمن أطار الوحدة التي أدت في النهاية إلى صورة متكاملة متزنة".

ويضيف إبراهيم:" لم يتوقف التشكيل على السطح الخارجي ولكنه تعداه إلى التشكيل بالكتل بإبراز ورفع وخفض بعض العناصر وبذلك تم الحصول على صورة متغيرة ومتنوعة مع استخدام أمثل للظلال والإضاءة".(Ibrahim,1998,P.P:10-13)، ولعل أهم إضافة قام بها المسلمون على تركيبة الحوش هو التركيز على عنصر الخصوصية الذي حققوه من خلال التلاعب بالكتل والفراغات وأسلوب ربط المدخل بالحوش (الفناء)، وهو ما يؤكده كويل بقوله :" يوفر الفناء الداخلي فراغا يتمتع بالخصوصية والحماية ويمثل الحياة الداخلية للأفراد، ومن الناحية الوظيفية يوفر الإضاءة والهواء البارد للغرف المحيطة به، وحتى أبسط الأفنية يحتوي على قوارير تحوي نباتات أزهار عطرية و شدروان (نافورة)، البركة والظلال وحتى شجرة وحيدة وذلك للرمز لانعكاس الجنة " .

.(Cowell , 1978,P: 31)

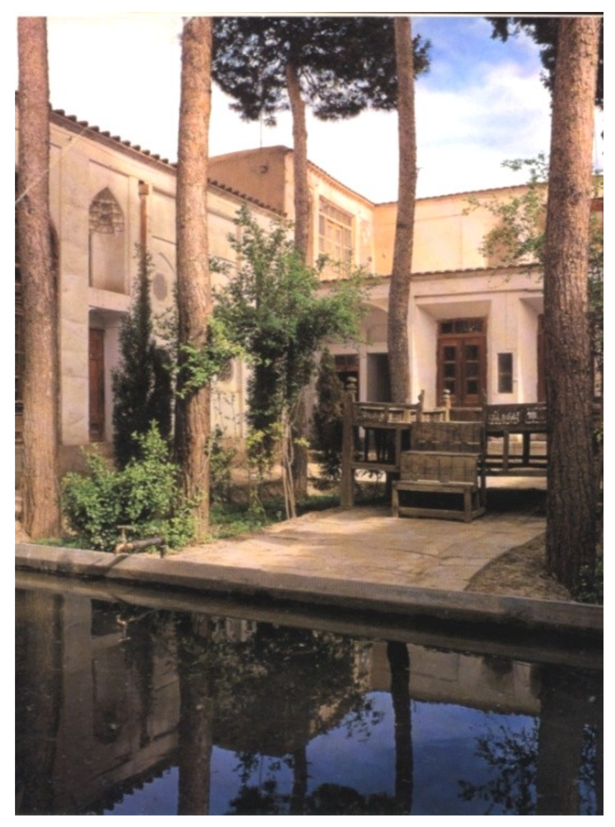
ولم يقتصر استخدام الأفنية في المباني الإسلامية على وظيفة معينة بل شمل أبنية مختلفة ذات وظائف عامة وخاصة وهو الأمر الذي يؤكده عبد الباقي محمد إبراهيم بقوله "في المجتمع الإسلامي وعلى امتداد الزمن كان الحوش (الفناء) الحلقة الرابطة أو العنصر المميز لكل العمائر على اختلافها من عمائر دينية أو دنيوية مدينيه"،(Ibrahim,1998,P.P:10-13)، والناظر إلى حدائق الأفنية في المجتمعات الإسلامية يجد أنها تنقسم إلى عدد من الأشكال المختلفة وظيفةً وتشكيلاً وأهمها :

2–1–1: أفنية المنازل السكنية :

وهو الشكل الأكثر انتشارا حيث تعتبر اللبنة الأساسية في تشكيل البيوت في معظم المجتمعات الإسلامية حيث يتخذ الفناء دور مركز البيت الذي تصطف حوله باقي فراغاته المعمارية ويشكل قلب نشاطات البيت ومكان اجتماع العائلة وملجئها من حر الصيف .

وقد تطور التشكيل المعماري للفناء الداخلي تدريجيا في المجتمعات الإسلامية حيث يشير إبراهيم " إلى أن الفناء أصبح يبنى وفق نسب ومعايير هندسية حددت نسب الطول إلى العرض والارتفاع بحيث يحقق الفناء أفضل تكييف بيئي"،(Ibrahim, 1998, P:10-13).

وهو الأمر الذي يختلف من مجتمع إسلامي إلى أخر وفقا للبيئة المحلية كما يختلف الفناء من ناحية المساحة والغنى بالعناصر المعمارية والتشكيل حتى ضمن نفس المجتمع حيث تلعب عدة عوامل في تحديد أبعاده وزخارفه بدءا من مساحة قطعة الأرض المخصصة لبناء الفناء إلى عوامل الاقتصاد والسياسة وتوفر المهارات الحرفية .



شكل (2−2) : صورة لفناء أحد المنازل في أصفهان (إيران) يحوي على العديد من عناصر الحديقة الإسلامية،
المصدر : (Grube,1996 , P: 184)

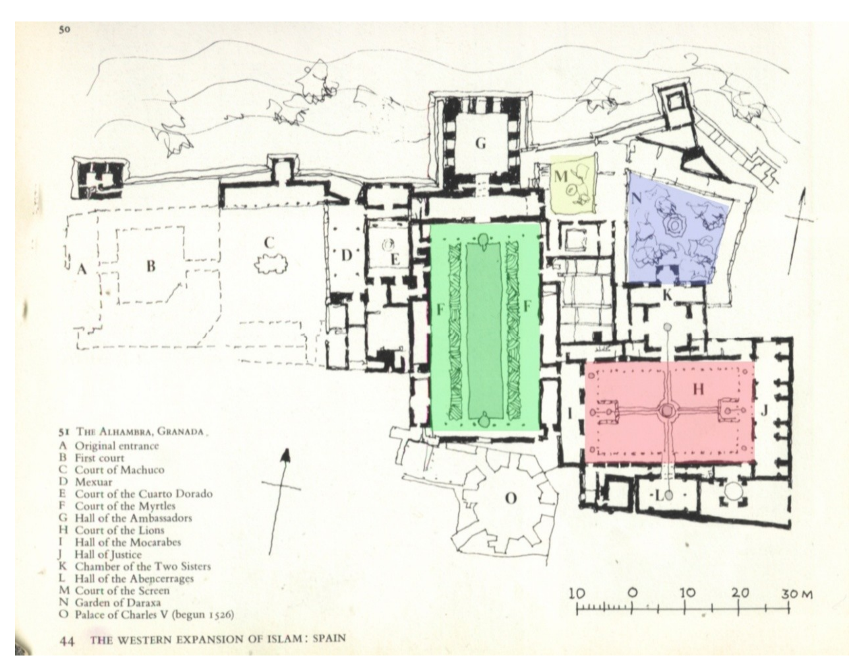


شكل (2−3) : صورة لفناء بيت مملوكي بالقاهرة ،يظهر فيها التشابه في كثير من العناصر المعمارية واختلاف النسب والمواد عن شكل (2−2) وفقا لاختلاف المعطيات البيئية و الاقتصادية،
المصدر : (Grube, 1996 , P: 185)

2-1-2: أفنية القصور :

تمثل أفنية هذا الشكل قمة تطور حدائق الأفنية في العمارة الإسلامية وبلغت ذروتها في عهد ملوك الطوائف في الأندلس وتمتاز باكتمال عناصرها المعمارية وارتباطها الوثيق بالمدلولات الرمزية، ولعل أهم ما تمتاز به عن أفنية المنازل يتلخص بنقطتين أساسيتين :

1- **تعدد الأفنية في إطار المبنى الواحد** وتعدد مستويات الخصوصية وفقا لمستخدمي كل فناء، حيث في كثير من الأحيان كان القصر يحتوي على ثلاث أفنية على الأقل كما نشاهد في قصر الحمراء في غرناطة حيث خصص احدها للنساء ويمتاز بمعايير خصوصية عالية، بينما خصص الثاني لاستعمال الملك وحاشيته وخصص الثالث لاستعمال زوار الملك من العامة في المناسبات الرسمية .



شكل(2-4): مخطط لقصر الحمراء يبين تعدد الحدائق والأفنية،

المصدر: (Jellicoe , 1975, P:44) بتصرف.

2- **تطور نسب الطول إلى العرض والارتفاع** وزيادة مساحته عما هو معتاد في أفنية المنازل وغناه بالعناصر المعمارية المختلفة حيث تشكل حدائق متكاملة العناصر ودخلت إليها عناصر غير معهودة في الأفنية الصغيرة مثل المقاصير الحجرية والقنوات المائية المتعددة والبرك الكبيرة، ووصلت الزخارف الهندسية الإسلامية فيها إلى أقصى درجات الحرفية والتطور.

ولعل أهم الأمثلة على حدائق هذا الطراز هو **قصر الحمراء** بما يحويه من حدائق، لقد أنشئ قصر الحمراء كمقر ملكي وقلعة لبني الأحمر في منتصف القرن الثالث عشر، وكان عرضة للعديد من التعديلات والتطويرات على مدى أكثر من قرنين ونصف تحت حكم آل الأحمر لغرناطة، وكقلعة صممت كل الحدائق (التي هي عبارة عن أفنية داخلية) لتكون محتواه داخل الأسوار وموزعة ضمن بنية القصر، وقد تم المحافظة على القصر بشكل جيد بعد سقوط غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر على الرغم من تدمير بعض أجزاءه من قبل تشارلز الخامس ليبني قصر على طراز عصر النهضة، إلا أنه وفقا لليرهام (Lehrman) :" فمن حسن الحظ انه من الممكن إهمال التأثير البصري الذي خلقته هذه الإضافة على القلعة الحمراء ككل"(Lehrman ,1980,P: 95)، ويمتاز قصر الحمراء بوجود العديد من الأفنية أهمها ثلاثة أفنيه رئيسية تمتاز بالحفاظ على طابعها الأصلي وهي:

- **فناء البركة والمعروف باسم (Court of Myrtles)**، وهو أوسع الأفنية ويمتاز بوجود بركة كبيرة مستطيلة تنتهي من الجانبين بنافورتين رقيقتين ويشكل سطح الماء الهادي والمنخفض عن مستوى الممرات المحيطة بها مرآه تعكس تفاصيل البرج والممرات المعمدة التي تحد الفناء من الشمال والجنوب.

ويحيط البركة من الجانبين ممران طوليان محصوران بحوضين طوليان مزروعان حاليا بنباتات خاصة (معروفة بميرتل الأسيجة)، ويتميز هذا الفناء بالشمس الساطعة التي توفرها نسب ارتفاع الأبنية المحيطة به، وتصميم هذا الفناء شبيه بنمط الحدائق المغولية الإسلامية في الهند .



شكل (2-5) : صورة لفناء البركة ،

المصدر : (www.fll.vt.edu).

• **الفناء الثاني و المعروف بفناء الأسود،** نسبةً إلى النافورة التي تتوسطه وهي عبارة عن صحن مبسط مضلع محمول على ظهر 12 أسد منحوت عبارة عن نوافير يتدفق الماء من فمها، ويمتاز هذا الفناء بغناه بالتفاصيل والزخارف مما دفع ليرهام لوصفه بقوله "أن فناء الأسود يشبه الجوهرة بغناه " .(Lehrman ,1980,P: 95).

ويأتي تصميم هذا الفناء ضمن طراز حدائق المحاور المتعامدة من خلال قناتين مائيتين رفيعتين تلتقيان في منتصف الفناء بالنافورة، وتمتدان إلى داخل الأروقة المعمدة والتي تحمل أقواسا صغيرة وتحيط بالفناء من الجهات الأربع ويبرز من الجانبين الشرقي والغربي مقصورتين مربعتين صغيرتين تتصلان بالأروقة المعمدة، وتنتهي القنوات داخل الأروقة والغرف بنوافير صغيرة ذات أحواض منخفضة .

وساحة الفناء مبلطه لكنها كانت في الماضي على ما يبدو وفقا لليرهام مزروعة وغير مبلطة بهذا الشكل وذات مستوى أخفض ويؤكد نظريته من خلال الإشارة إلى ارتفاع النافورة المنخفض بالنسبة لمستوى النظر، كما يشير إلى أنها كانت مزروعة بالنباتات والأشجار.(Lehrman ,1980,P: 96)، ويؤكد جوليكو ذلك بقوله" أن هذه الحديقة كانت في الأصل غنية بأشجار البرتقال ".
.(Jellicoe , 1975, P:6)



شكل (2–6) : صورة لفناء الأسود، وتبدو فيها الأروقة المعمدة المحيطة بالفناء، والمقصورة التي تشكل جزء منها والشدروان الشهير في الوسط.

المصدر: (www.interamericaninstitute.org)

• **أما الفناء الثالث والمعروف بحديقة دراكسا (Daraxa)**، والمزروع بالسرو فقد تعرض للكثير من التغييرات اللاحقة إلا أن النافورة المرتفعة التي تتوسطه تعود لفترة الحكم الإسلامي بينما جرت تعديلات على الحوض المائي أسفلها في فترة عصر النهضة، إلا أنها رغم ذلك تشبه إلى حد كبير الطراز المملوكي في تصميم الأحواض من خلال تداخل الدائرة والمربع .



شكل (2–7) : صورة لحديقة دراكسا ،

المصدر : (http://forum.hawaaworld.com)

2–1–3: أفنية المساجد :

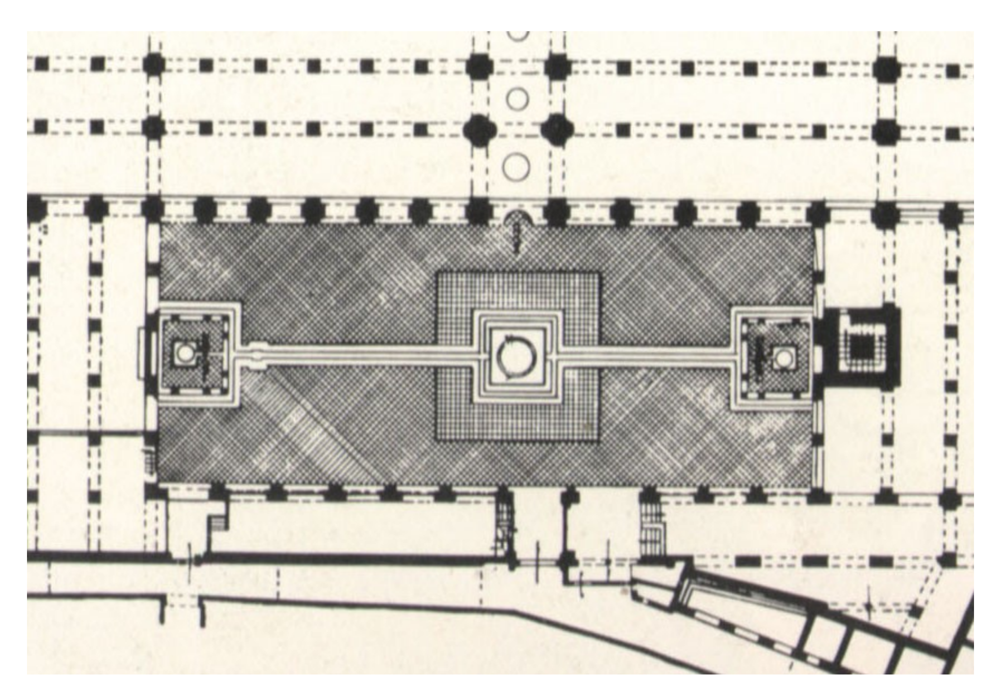
لقد أرتبط الفناء بالمسجد منذ البداية وذلك يرجع إلى تصميم المسجد النبوي الذي بناه الرسول الكريم في المدينة المنورة حيث كان عبارة عن فناء مسور من جهاته الأربع وجدار القبلة فيه مغطى بمظلة من أوراق وجذوع النخيل، الأمر الذي تطور تدريجيا ليصبح سمة غالبة في عمارة المساجد الإسلامية حيث تطورت نسب هذا الفناء وتعددت استخداماته، فبعد أن كان يقتصر على أيجاد مكان مخصص للصلاة محمي من العوامل البيئية أصبح يلعب دورا جماليا ورمزيا تمثل بتعدد وتنوع العناصر المعمارية فيه .

ورغم ذلك بقي فناء المسجد مهيئا للاستخدام العملي في الأساس وهذا ينسجم مع قول **ليرهام** (Lehrman) :"عندما ترتبط الأفنية بالمساجد فأنها ترتبط بوظائف أكثر جدية وأهداف مختلفة تماما ،إلا أنها تبقى مصممة ومنفذة بشكل جيد وهي في الغالب مبلطة وتحوي حوض للوضوء في المركز"،(Lehrman,1980,P: 143)، ولذلك تم الاستعاضة عن الكثير من العناصر الطبيعية في الحدائق

بعناصر معمارية ترمز إلى تلك العناصر ويتضح ذلك من خلال التشكيلات المختلفة التي ظهرت على مدى التاريخ الإسلامي ومنها :

- **أفنية بسيطة** : ذات أرضية مبلطة للصلاة، بقيت ضمن الشكل الهندسي الأساسي ذو النسب المستطيلة أو المربعة التي ميزت عمارة الأفنية والحدائق الإسلامية، وفي كثير من الأحيان كانت تتم الاستعاضة عن الأشجار والعناصر الخضراء بأعمدة الأروقة المحيطة والتي شكلت تيجانها على أشكال أوراق النخيل وأحيانا زخرفت الواجهات بزخارف طبيعية وهندسية تمثل نباتات وأشجار الجنة كما نشهد في المسجد الأموي الكبير بدمشق .

- **أفنية يتوسطها بركة ونافورة (شدروان):** بما يخدم الغايتين الجمالية والعملية كمصدر لماء الوضوء، وتطور التشكيل المعماري لهذه البرك ليخدم وظيفة الوضوء،
- وقد ظهرت **أفنية تحوي قنوات مائية ومقصورات** كما في فناء جامع القرويين بفاس الذي يشبه بتشكيله إلى حد كبير تشكيل حديقة الأسود بقصر الحمراء .



شكل (2–8) : مخطط فناء جامع القرويين (فاس المغرب)،

المصدر : (Hoag ,1977,P: 102)



شكل (2–9) : صورة لفناء جامع القرويين (فاس المغرب) ،

المصدر : (Hoag , 1977,P: 103)

- **أفنية تحوي تبليطات وزخارف تشبه إلى حد كبير طراز الشارباجة** (المحوري)، وتقسم الأرضية إلى أربع أقسام أو أكثر كما نشاهد في فناء مسجد حلب الكبير.



شكل (2–10) : صورة توضح تبليطات أرضية فناء مسجد حلب الكبير ،

المصدر :(Terry,1983,P.P: 7-12)

- **حدائق كاملة تحوي أشجار ونباتات وبرك وقنوات مائية،** كما نشاهد في عدد من المساجد مثل فناء جامع أشبيلية الكبير، حيث زرعت أشجار البرتقال في صفوف موازية لأروقة المسجد،



شكل (2–11) : حديقة البرتقال بجامع أشبيلية الكبير ،

المصدر :(Glaire, 2001,P: www.Archnet.org)



شكل (2–12) : صورة للنافورة في وسط حديقة البرتقال في جامع اشبيلية الكبير،

المصدر :(Hoag ,1977,P: 101)

2-2 :نمط الحدائق الكبرى :

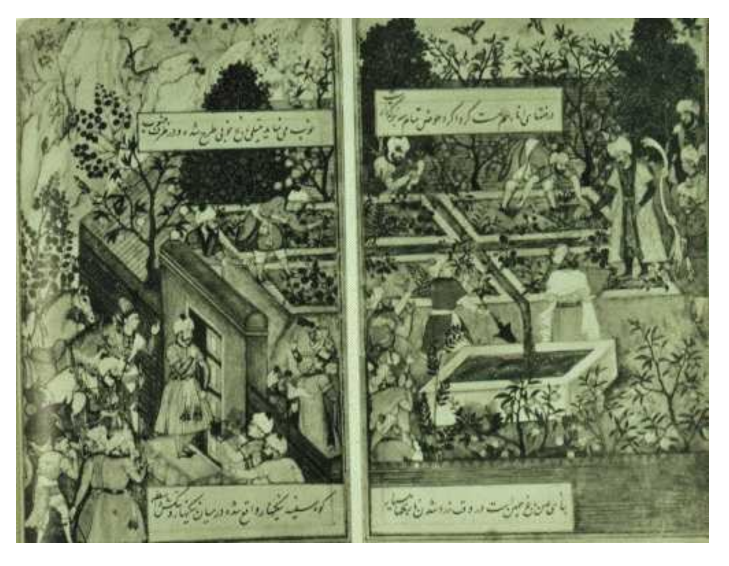
لقد بدأ هذا النمط من الحدائق بالظهور في الفترة الإسلامية المتأخرة خاصة في المجتمعات المغولية والفارسية، حيث تطورت الحدائق من ناحية المساحات والمقاييس وخرجت من أطار الأفنية الداخلية وذلك رغم بقائها محاطة بالأسوار والجدران من كافة الاتجاهات، وأصبح المبنى في كثير من الأحيان يمثل مساحة محدودة وصغيرة غالبا في مركز الحديقة بعد أن كانت الحديقة في الأنماط السابقة تشكل جزءا من المبنى، كما خرج أطار استخدام الحدائق من الخاص إلى العام وشبه العام، حيث أصبحت العديد من الحدائق مكرسة للاستخدام في المناسبات الدينية والشعبية.

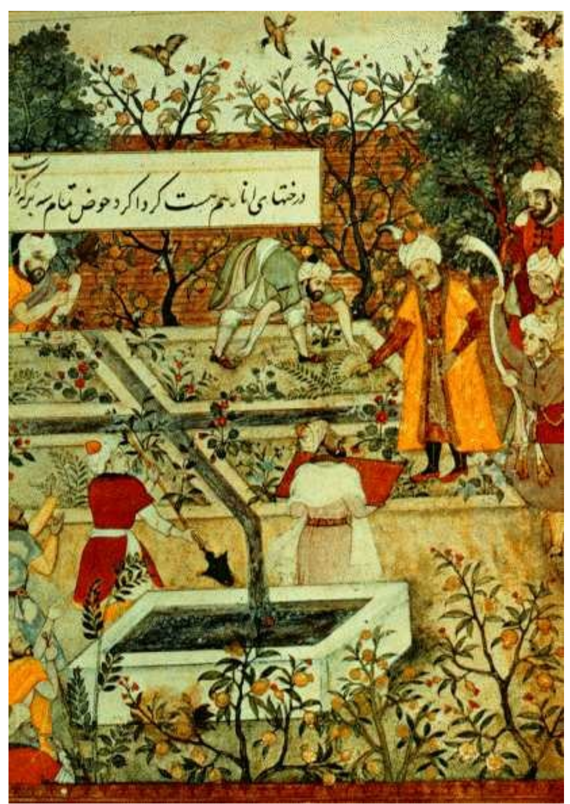
ويؤكد كويل هذه الفكرة بقوله :"تؤدي الحديقة الإسلامية مجموعة من الوظائف سواء تحت الملكية الفردية المعهودة أو الاستخدام المحدد كحدائق عامة في المناسبات"(Cowell, 1978,P:31)، ومع تطور المساحة تطورت العديد من العناصر والتشكيلات المعمارية لتساهم في إثراء هذه الحدائق فظهر استخدام التدرج والشلالات المائية، كما ظهرت المسطحات المائية الكبيرة والجدران الداخلية، وتنقسم الحدائق الكبرى إلى نمطين أساسيين :

2-2-1: الحدائق الملكية :

والتي تنقسم بدورها إلى نوعين أساسيين من ناحية الدور والوظيفة :

2-2-1-1: حدائق خصصت لإبراز قوة وسلطة الملوك وتخليد ذكراهم وكمدفن لهم بعد وفاتهم مثل حديقة تاج محل أو لتخليد ذكرى انتصاراتهم العسكرية مثل حديقة (Bagh-i-Vafa) التي بناها الملك بابور بالقرب من مدينة كابل بأفغانستان، وهو الأمر الذي اكتسب أهمية كبرى لدى ملوك الفترة المغولية حيث تشير المصادر التاريخية إلى قيام هؤلاء الملوك ببناء الحدائق بأنفسهم مما يشير إلى سعة إطلاعهم على أساليب وتقنيات وثقافات بناء هذه الحدائق وهو ما يتضح من وصف السلطان بابور لقيامه بإنشاء أول حديقة له في آجرا. (Lehrman, 1980,P: 140).





شكل (2-13) : منمنمة مغولية تعود للقرن السادس عشر تظهر الملك بابور وهو يوجه أعمال البناء في حديقة Bagh-i-Vafa،

المصدر : (Bennis , 2006 ,P: 6)

ولعل أحد أهم الأمثلة على هذا النمط من الحدائق وأكثرها اكتمالا وغنى بالعناصر المعمارية هو حديقة تاج محل رغم أنها تمثل استثناء لعملية وضع الضريح في مركز الحديقة، حيث وضع المبنى في نهاية الحديقة بحيث يظهر في مقابل خط السماء بحيث يقابل الضريح نهر جامو، لقد بنى الإمبراطور شاه جهان مبنى تاج محل تخليدا لذكرى زوجته الثانية المحببة ممتاز محل التي توفيت

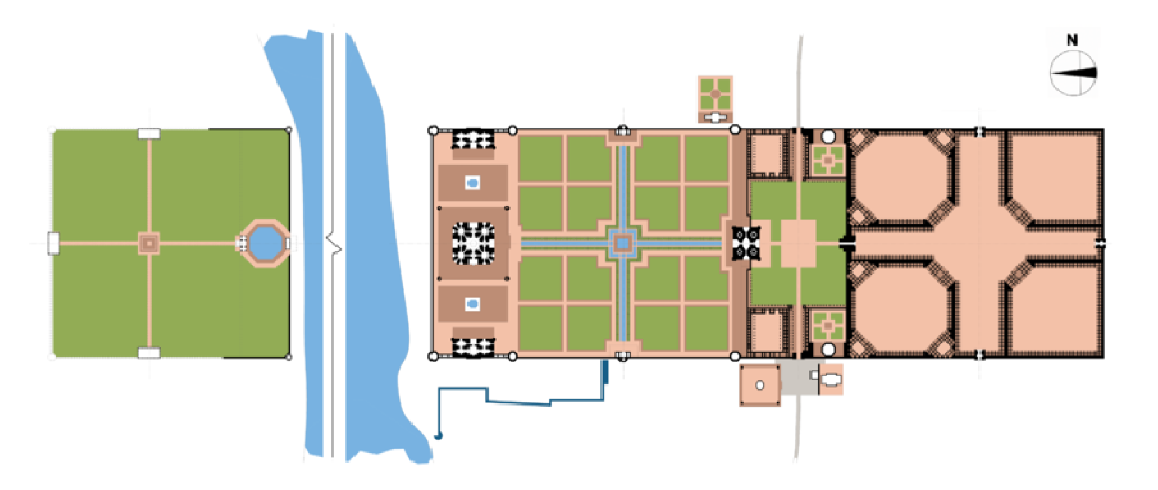
أثناء الوضع وذلك في القرن السابع عشر الميلادي، وأستخدم 20 ألف عامل من البنائين والحجارين وبناه بالرخام والحجر الرملي والأحجار شبه الكريمة التي أحضرت في بعض الحالات من مسافات بعيده .



شكل (2–14): صورة لضريح وحديقة تاج محل ،
المصدر : (http://blog.lib.umn.edu)

يصف بعض الباحثين تاج محل بالقصر العائم ذو الجودة والدقة العاليين، ويتغير مظهره بتغير الضوء الساقط عليه وفقا لأوقات النهار، ولقد بني أحد جوانب الضريح من الرخام الأبيض وهو مسجد مكسو بالحجر الرملي الأحمر يحقق التوازن مع الجهة الأخرى للمبنى من خلال بيت اللقاء والاجتماع وعلى محيط المدخل المرتفع نقوش من آيات القرآن الكريم ،وواجهات الضريح مطعمة بنقوش هندسية تمثل أزهارا ،أما القبة فمرصعة بالأحجار شبه الكريمة التي تعكس برومانسية ضوء القمر والمبنى يتموضع بوقار في نهاية حديقة تمثل شارباجه تقليدية .

وبنمط يتكرر في حديقة القلعة الحمراء فالحديقة الضخمة مغلقة بجدار ضخم من ثلاث جهات بينما تفتح الجهة الرابعة على نهر، يقع مبنى الضريح على تراس (مستوى) مرتفع مع أربع مقاصير ثمانية الأضلاع تقع على زوايا التراس،ومن مدخل الحديقة الأساسي ينخفض درج يؤدي إلى قناة مائية تحوي نوافير تقود باتجاه مبنى الضريح الرخامي ،ويحد القناة ممران معبدان محددان بصف من أشجار السرو ذات اللون الأخضر الداكن التي تركز الرؤية من الداخل باتجاه الضريح ،ويعزز ذلك صف النوافير المتلاحقة ضمن القناة .



شكل (2-15): مخطط حديقة تاج محل،

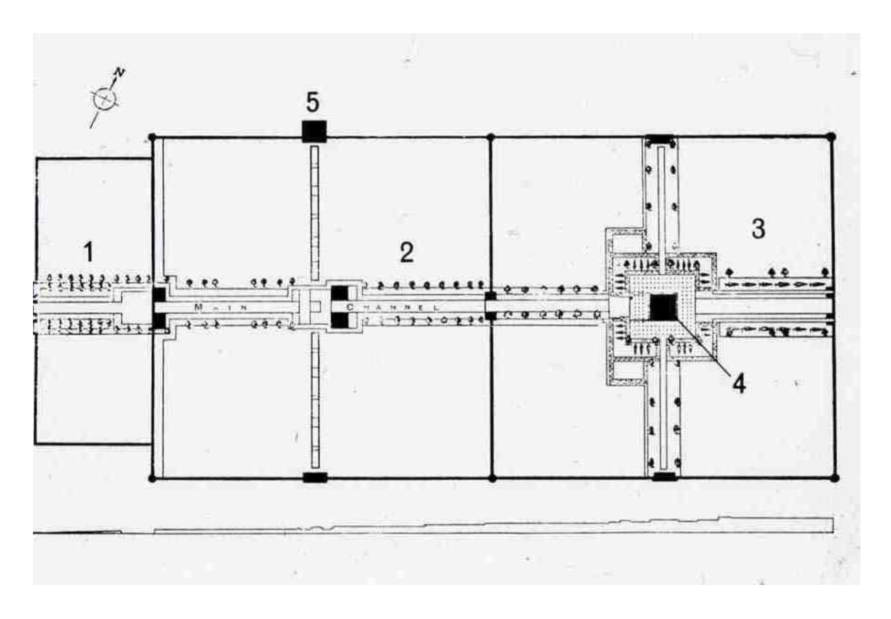
المصدر : (http://en.citizendium.org/wiki)

وعند تقاطع القناتين الطولية والعرضية يقع خزان ماء مربع مرتفع مصنوع من الرخام ومحاط من الأربع جهات بمجموعة من الأدراج والمصاعد المتشابهة ويعكس سطح الماء صورة ضريح تاج محل ،والحديقة بشكل عام مقسمة إلى أربع أجزاء بواسطة ممرات مبلطة بالحجر الرملي يمر في وسط كل منها قناة مائية عريضة وضحلة ،والأرباع الأربعة مقسمة بدورها إلى أربع أجزاء أصغر مزروعة بالأعشاب والأشجار القصيرة والعالية ،وتنتشر المقاعد الحجرية والرخامية التي تتيح النظر إلى مشاهد مختلفة، وفي الأصل كان الماء يحضر إلى الحديقة من خلال نظام دلاء حيث كان يرفع بواسطتها إلى خزانات مائية على سطح الغرف التي يحويها الجدران المحيطة بالحديقة قبل أن يتم استبدالها حاليا بنظام ضخ آلي.

2-2-1-2: حدائق المتعة :

وهي حدائق بنيت كحدائق خاصة بالملوك وحاشيتهم حيث مثلت مصيفا لجأوا إليه من حر الصيف، ولذلك بنيت معظم هذه الحدائق في سفوح الجبال والهضاب (خارج إطار المدن و القصور الملكية) حيث يتوفر الماء و الينابيع الجارية والموقع المطل على المناطق الطبيعية المحيطة (وقد ازدهرت هذه الحدائق في الفترة المغولية خاصة في منطقة كشمير بين الباكستان و الهند حيث أبدى ملوك المغول اهتماما خاصا بهذا النمط من الحدائق)، ومما لاشك فيه أن حدائق هذا الطراز جاءت أصغر في المساحة من حدائق الطراز السابق، كما تميزت بالعودة إلى الخصوصية ضمن مفاهيم جديدة تمثلت بالتدرج في مستوى الخصوصية وظهور ما عرف بتراس النساء ضمن نفس الحديقة وهو ما

يتضح في حديقة أشبال (Achabal) وشلمار باجه (Shalamar) في كشمير المكونتان من ثلاث مستويات متلاحقة مفصولة عن بعضها بأدراج و أسوار الأول فيها لزوار الملك من العامة والثاني يمثل حديقة الملك الخاصة التي يجتمع بها بحاشيته وخاصته والمستوى الثالث العلوي خاص بالنساء ومطل على كافة أنحاء الحديقة وتتميز حديقة أشبال بالإضافة إلى ذلك بشلالاتها العريضة التي تنحدر برفق ضمن عدة تدرجات و يتوسطها المقاصير.



شكل (3–16): مخطط حديقة شلمار باجه يوضح المستويات الثلاثة المختلفة ،
المصدر: (Rabbat , 2008,P: 611)

هذا بالإضافة إلى عودة الحدائق إلى نمط ونسب الأفنية الداخلية التي استخدمت بكثرة في حدائق هذا النوع حيث تنوعت وتعددت العناصر المعمارية بداخلها تحوي جميع العناصر من ماء وأشجار وأزهار وأعشاب وظلال حتى أصبحت تمثل حديقة صغيرة متكاملة، ومعظم الحدائق الباقية من هذا النوع تتركز في قلعتي لاهور في آجرا ودلهي.

2–2–2: حدائق المقامات و المزارات:

وهي الحدائق التي أنشأت حول المزارات والمقامات الدينية وخصصت في الغالب للاستخدام العام أو شبه العام في المناسبات الدينية و انتشرت بشكل خاص في فارس (إيران) حيث ينتشر المذهب الشيعي الذي يقوم على تقديس الأئمّة .

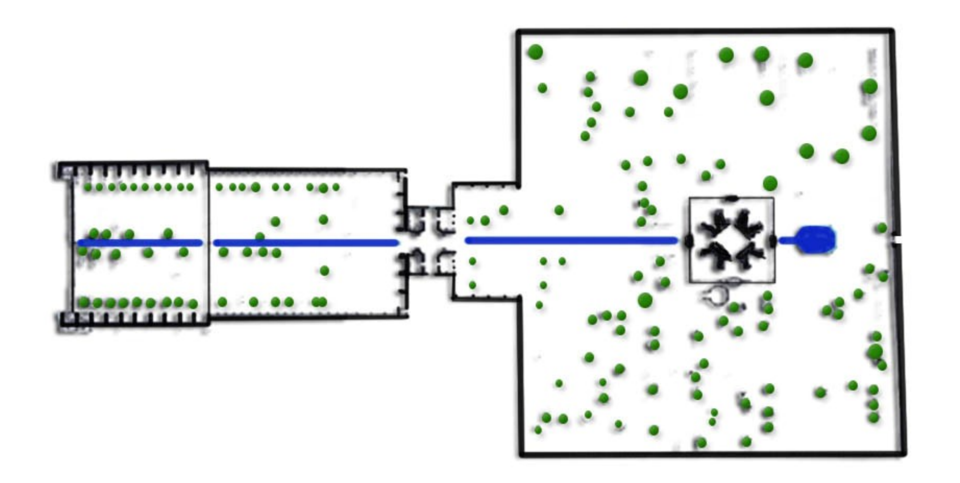
ويلاحظ هذا في حديقة قدماج (qadamgah) بمعنى القدم ،والتي تقع على بعد 25 كلم من مدينة نيسابور ويعود اسمها إلى حجر أسود موجود فيها يحوي على ما يعتقد من قبل العامة أنه آثار أقدام الأمام (REZA) ثامن خلفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفقاً للمذهب الشيعي، ويؤكد دانيش دوست (Daneshdoust) أن الإمام(REZA) قد قدم إلى المكان خلال جولة له في مدينة مشهد وقام الناس بحفر آثار أقدام على الصخرة تكريماً له، وبعد عدة سنوات تم بناء هذه الحديقة تكريماً له، وتتكون الحديقة من 3 أجزاء أساسية أولها المقام والفراغ المستطيل المحيط به والمقدر ب 102 X115م ومحاط بالأسوار، ويحوي قناة مائية تروي الحديقة تدخل من خلف المقام وبعد أن تملأ بركة مستطيلة بأبعاد 13 X16 م (وتستخدم كخزان للماء) يمضي الماء في عدة قنوات تصب في أربع برك أصغر منها موزعة حول مبنى المقام وموزعة على طول المحور الرئيسي للحديقة.

وأجزاء الحديقة المختلفة تقع على أرض مائلة وغير مستوية ولذلك تم تشكيلها من عدة مستويات ترتبط مع بعضها بأدراج، ويقع مبنى المقام المزين بالفخار المزجج (القاشي) بالقرب من مركز هذا الجزء من الحديقة على امتداد المحور الأساسي، وزرعت هذه المساحة بالعديد من الأشجار وتحوي على نبع طبيعي يعتقد الشيعة بقدسيته والحديقة في هذه المنطقة بسيطة جداً وذلك يعود إلى أن معظم الزخارف والاهتمام موجه لمبنى المقام ومحيطه.



شكل (2–17): صورة لضريح قدماج، توضح مدخل الضريح الذي يشكل مقصورة كبيرة في وسط الحديقة،

المصدر: (www.neyshaburian.blogfa.com)



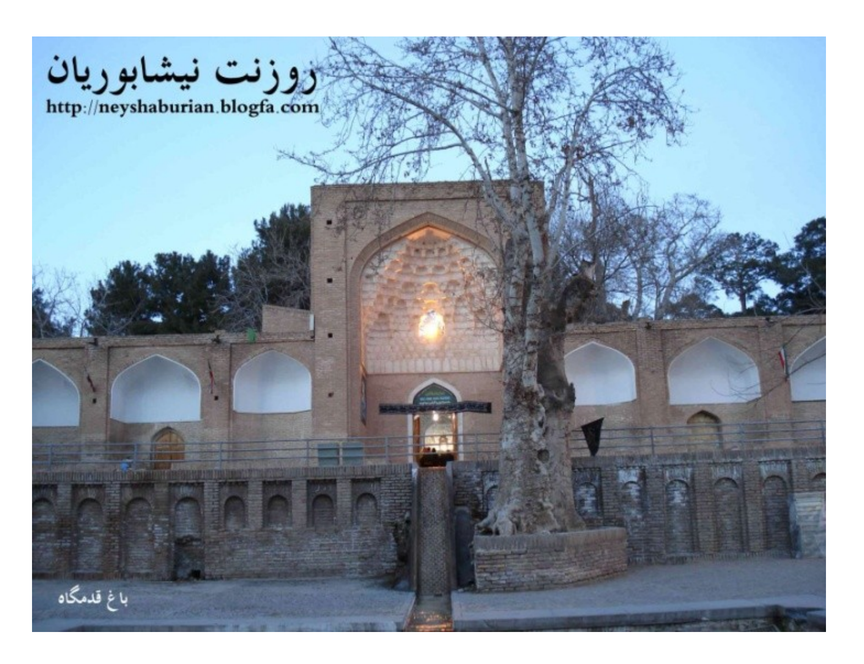
شكل(2–18): مخطط حديقة قدماج ،

المصدر : (Daneshdoust, 1976,P:53)

الجزء الثاني من الحديقة وهو الجزء العام والمصمم على شكل محور طولي يقسم الحديقة إلى قسمين متماثلين، وعلى كل جانب هناك عشرين كشك تستخدم كمآوي للحجاج من زوار الحديقة ،ومعظم أشجار هذا الجزء من التوت والتي وفقاً للاعتقاد المحلي في إيران لا تزرع إلا لأغراض الخير ولذلك يحق لأي شخص أن يقطف من ثمارها .

والقناة المحورية تستمر في هذا الجزء من الحديقة وبعد اجتيازها لشجرتي تين شوكي عملاقتين تصل إلى بركة بأبعاد 11X8 م وبعد امتلاء البركة يستمر الماء بواسطة قناة رفيعة تستمر على طول هذا المحور وقد زرعت أشجار التوت في ثلاث صفوف متميزة، والصف الأوسط يمتاز عن الآخرين بأنه صف مزدوج من الأشجار يحدد جانبي القناة المائية الممتدة على طول المحور، يلقي الظلال التي تتطلبها الحدائق الإسلامية، أما الصفين الآخرين من الأشجار فزرعا أمام أكشاك الحجاج .

بنيت هذه الأكشاك على طابقين ويمثلان تصميمان مختلفان، الطابق الأول أوسع من الثاني ومصمم لإيواء الحجاج لفترة طويلة ويحوي مدفأة أما الطابق الثاني فأصغر ويمثل قوس مزخرف مصمم لإيواء الحجاج لفترات قصيرة، ويمتاز هذا الجزء من الحديقة بعدم وجود جدار يحيط به أو بوابة على مدخله، كما تمتاز الحديقة بعدم وجود التصميم المحوري فيها وأن احتوت وفقا لدانيش دوست (Daneshdoust)"على معظم العناصر المعمارية للحدائق الإسلامية".(Daneshdoust, 1976,P: 44).



شكل (2-19): صورة لضريح قدماج ،

المصدر : (www.neyshaburian.blogfa.com)

أما الجزء الثالث من الحديقة هو الجزء الفاصل بين الجزء الأول والثاني العام ويمثل المنطقة العليا منه وهو عبارة عن فناء داخلي محاط بأسوار وهذا الفناء خالي من الأشجار ويمثل منطقة للتعبد وانتظار للدور في الدخول إلى فناء المقام .

2-3:نمط المدن الحدائقية :

ظهر هذا النمط من تخطيط المدن في الفترة الإسلامية المتأخرة ومن أهم الأمثلة عليه مدينة أصفهان في إيران (بلاد فارس) والتي لا يزال تخطيطها الأصلي بارزا للعيان رغم ما جرى عليه من تعديلات خلال الفترات اللاحقة، وعلى ما يبدو لم تكن مدينة أصفهان حالة فردية خاصة من ناحية تخطيطها الحدائقي بل كانت ضمن نمط معماري تكرر في أكثر من مدينة إسلامية مثل مدينة احمد أباد التي بناها السلطان المغولي احمد شاه في عام 1411 م لتكون عاصمة إقليم غوجرات الهندي، إلا إنها تعرضت للتدمير خلال الحروب المختلفة التي مرت بالمنطقة ولم يبقى من أثرها سوى الوصف في كتابات الرحالة والمستشرقين. (Brahmbhatt, 1986,P.P:38-41).

لقد تطورت مدينة أصفهان إلى مدينة حدائقية بعد تحولها إلى عاصمة للصفويين (سلالة حكمت إيران) في القرن السادس عشر وبلغت ذروة التطور في القرن السابع عشر الميلادي ،وتمتاز بعدد كبير من المناطق الخضراء والحدائق المشجرة بداخلها الأمر الذي دفع السير توماس هيربرت

(Sir Tomas Herbert) السفير البريطاني في إيران لوصفها بقوله :" أن الحدائق هنا من ناحية العظمة والأتساع بحيث لا يوجد لها مثيل في أي من مدن أسيا، بحيث أنك من على مسافة صغيرة من المدينة سوف تراها على شكل غابة، وهي كبيرة جدا ولكنها على العموم جميلة وخضراء بحيث تستطيع أن تقول أنها جنة أخرى ". (Lehrman, 1980,P: 111).

ويرى جونز ليرهام "أن مدينة أصفهان نمت كرد فعل على حاجة سكانها، وتم اتخاذها كعاصمة من قبل الصفويين، وعندما أنشئت جادة جديدة وعدد من المعالم المعمارية أضيفت العديد من المناطق الخضراء من قبل الصفويين كل منها مقسمة هندسيا وتتبع طراز الشارباجة الذي سيتم ايضاحه لاحقا في هذا البحث، بحيث أنها تعكس التوجه الإسلامي إلى مالا نهاية ". (Lehrman, 1980,P: 116).

تحوي النهاية الغربية من أصفهان والمعروفة بمنطقة ناظر غريب (Nazer Jereeb) حديقة هي وفقا للسير هيربرت تستحق شهرتها، وإذا أردت التوجه من الميدان إلى هذه الحديقة فأنك تمشي في شارع وحيد (جادة بعرض50 م) عبارة عن حديقة على طراز الشارباجة والذي وفقا للسير هيربرت يتشابه كثيرا في عرضه مع شارع (Holborn) في لندن، وهو في نظره ما يؤكد التأثير الأوروبي على مخططي هذه المدينة .



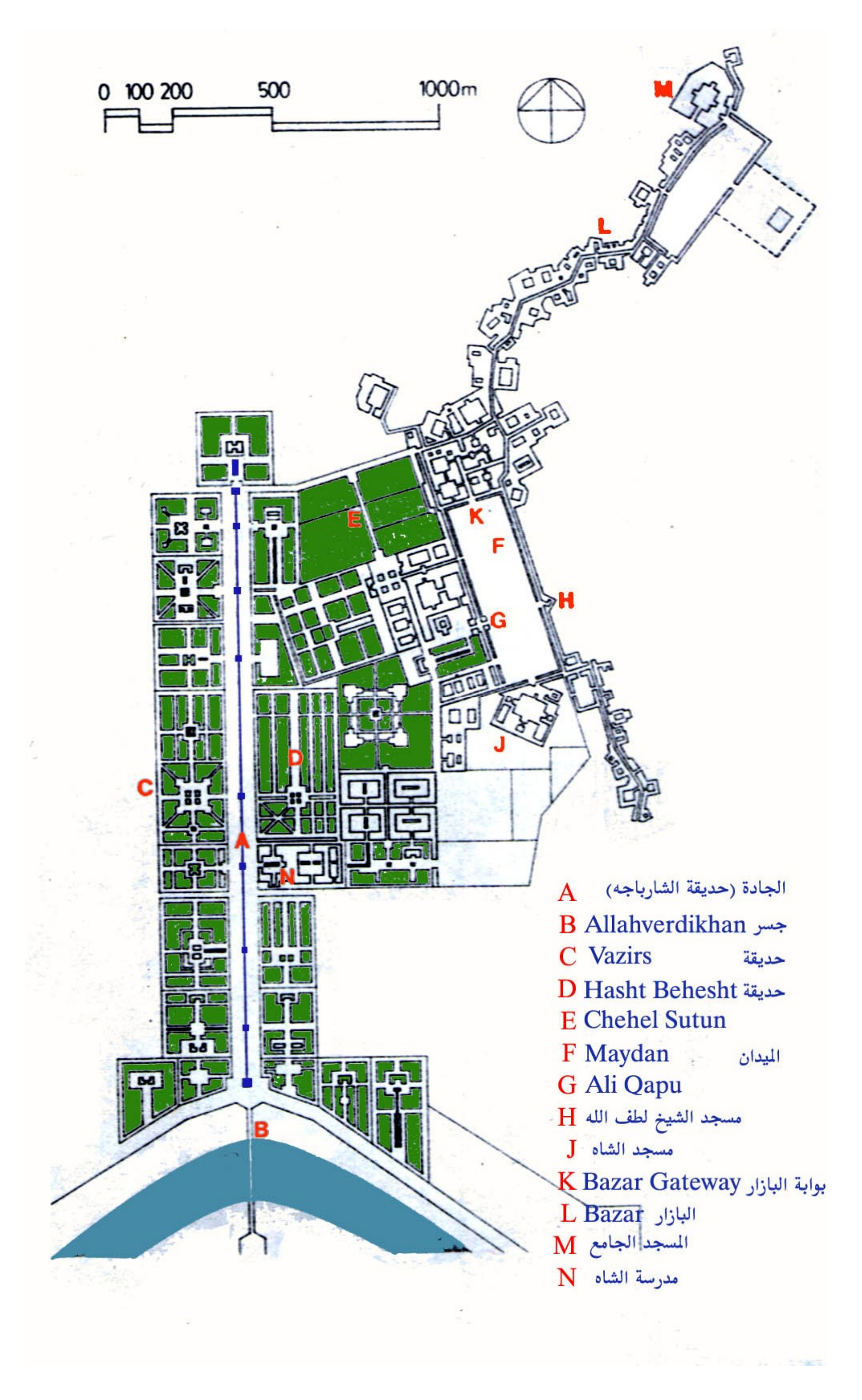
شكل (2–20) : صورة لميدان اصفهان كما بدت عام 2007،
المصدر : (Tulloch, 2007,P:1)

ويحد معظم أجزاء الشارع من الجهتين أسوار الحدائق المحيطة والشارع مزروع بطوله بأشجار الشنار(Chenear) وهي شجرة منشأها كشمير وظيفتها إلقاء الظلال وهي ذات جمال أخاذ، إلى أن تصل إلى حديقة ناظر غريب المحاطة بسور عالي يمتد 3 كيلومترات ويتم الدخول إليها من خلال ثلاث بوابات عريضة وحسنة البناء، تحوي الحديقة على قناة مفتوحة تمثل محور يجري على طول الجادة ويحوي تسع مستويات يرتفع كل واحد على عن الآخر قدم واحدة وكلها مستوية وناعمة وفي وسط الحديقة بركة مائية ذات أثنى عشر ضلع كل ضلع طولها 5 أقدام .



شكل (2–21) : صورة توضح الجادة كما تبدو اليوم ،
المصدر: (موسويان ،2007 ،ص:3)

وتعرضت الجادة في نهاية القرن التاسع عشر إلى قطع الكثير من أشجارها وتحولت إلى طريق ذو كثافة تنقل عالية للسيارات وأن بقيت الكثير من عناصر الحديقة الأصلية، كما تحوي أصفهان العديد من العناصر الأخرى من أهمها الميدان وهو أحد أكبر المساحات العامة في العالم في حينه، ويشكل مركز المدينة ونشاطها بالإضافة إلى العديد من حدائق القصور والمزارات و المساجد .



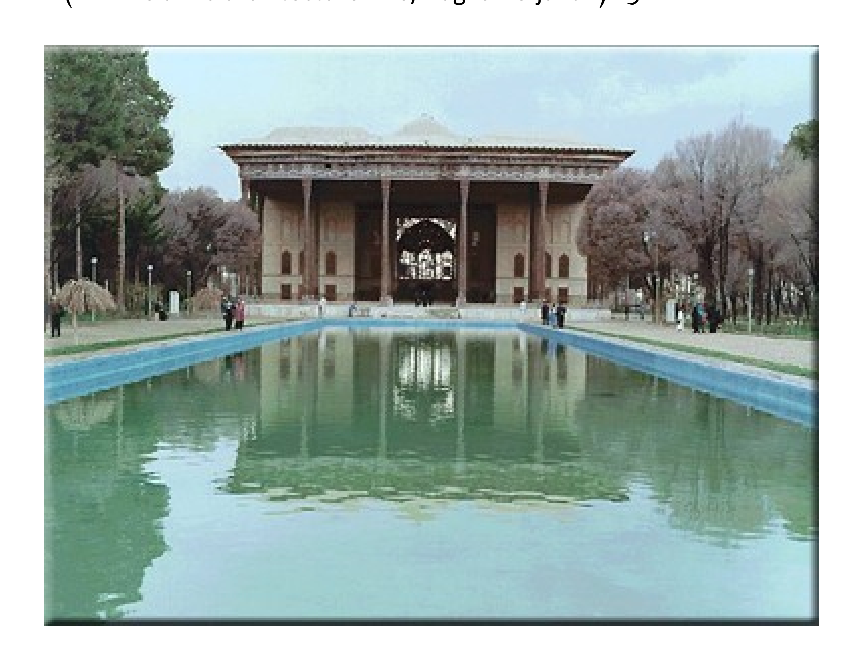
شكل (2–22): مخطط جادة ناظر غريب في مدينة أصفهان،

المصدر :(Lehrman,1980,P: 116) بتصرف.



شكل (2–23): صورة توضح جانب من الميدان ومسجد الشاه،

المصدر : (www.islamic-architecture.info/Naghsh-e-jahan)



شكل(2–24): صورة لحديقة شيشيل سوتون (Chehel Sutun) ،

المصدر : (www.iraniannet.net/esfahan6.jpg)

وخلاصة القول أن الحدائق في العمارة الإسلامية كان لها عدد من الأنماط اشتركت فيما بينها بالعديد من الخصائص وانفردت بأخرى وحتى يتم التعرف عليها بشكل أفضل لابد لنا من استعراض أهم العناصر المعمارية والوظيفية لها وهذا ما سنناقشه في الفصل الثالث.

الفصل الثالث

خصائص الحديقة لدى المسلمين وعناصرها المعمارية و الوظيفية.

3-1 :خصائص الحديقة في المجتمعات المسلمة .

3-1-1: وحدة الطابع المعماري(Sense of Unity).

3-1-2: السعي لتحقيق الخصوصية.

3-2: العناصر المعمارية الرئيسية.

3-2-1: السور.

3-2-2: التدرج و استخدام المستويات المتلاحقة.

3-2-3: استخدام المقاصير Pavilions.

3-2-4: الظلال.

3-2-5: الماء الجاري.

3-2-6: النباتات و الأشجار.

3-2-7: الطيور و الحيوانات.

3-2-8: الزخارف (الأرابيسك).

الفصل الثالث

خصائص الحديقة لدى المسلمين وعناصرها المعمارية و الوظيفية.

يناقش هذا الفصل الخصائص التي ميزت الحدائق في المجتمعات الإسلامية و عناصرها المعمارية و الوظيفية، والتي تميزت بتعددها وغناها وتعدد وظائفها وارتباطها مع بعضها البعض الذي أدى إلى تطورها عبر العصور المختلفة وقد شكلت تلك رموزا لمعان دينية واجتماعية ترسخت عميقا في ثقافة هذه المجتمعات، ملبية حاجاتها للمتعة والطعام والخصوصية عدا عن الحاجات الروحية، ومن أهم العناصر المعمارية لهذه الحدائق الجدران (الأسوار) المحيطة بهذه الحدائق والعناصر المائية والظلال والأشجار والزهور واستخدام الزخارف الهندسية والطبيعية الإسلامية، وقد اختلف تطور وطبيعة استخدام هذه العناصر من منطقة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر تبعا للموقع الجغرافي وثقافة المجتمع وغيرها.

3-1 :خصائص الحديقة في المجتمعات المسلمة .

يرى كويل الحديقة على أنها " فن رفيع ناتج من فعالية وجهد العقل و العواطف و اليد البشرية (المهارات الحرفية) " ويضيف " أن الخلاف الحاصل في تصميمها من منطقة الى أخرى يعتمد على الاختلاف في العناصر السابق ذكرها " . (Cowell , 1978,P:8).
ومن هنا يأتي تميز الحديقة في المجتمعات الإسلامية من خلال :

أ- عقل وشخصية الإنسان المسلم .

ب- المدلول والبعد الفلسفي والرمزي الذي يعطى العمل الفني أو المعماري للحدائق تميزه.

ت- الأشكال المستخدمة بتصميم الحدائق الإسلامية.(Grabar,1987,P.P.: 6-18)،ويتضح ذلك من خلال عدة سمات تميزت بها الحديقة في المجتمعات المسلمة منها :

3-1-1: وحدة الطابع المعماري (Sense of Unity):

رغم كبر التنوع الجغرافي والاختلاف الثقافي والبيئي على مستوى العالم الإسلامي إلا أن الناظر إلى عمارة هذه المجتمعات التي يوحدها الدين الإسلامي يرى بطانة دقيقة من التجانس المعماري وتشابهاً في أسلوب التصميم، حيث ينسحب على مختلف إنجازاتها المعمارية ومن ضمنها الحدائق .

يرى أوليغ غرابار(Grabar): "أن الفن الإسلامي هو مجموعة حالات خاصة ذات صفة كونية واحدة "أو على نحو أكثر دقة" أنه يتشكل من عدة مجموعات متمايزة ولكنها مجموعات كونية "، (Grabar ,1987,P.P.: 6-18).

بينما يرى المؤرخ الفرنسي جورج مارسيه " أن آثار العالم الإسلامي العمرانية المبنية خلال قرون متباعدة و التي يبعد بعضها عن بعض آلاف الكيلومترات تبدو فيما بينها وكأنها أفراد أسرة واحدة ". (صيداوي ،1992،ص 34).

وهو ما يؤكده المؤرخ المعماري نورمن نيوتن بوصفه التشابه في البيئة بين حدائق قصر الحمراء في اسبانيا والتي بنيت في القرن الثالث عشر وحدائق ضريح تاج محل في الهند التي بنيت في القرن السادس عشر بقوله : " أن التشابه بين المعلمين الإسلاميين العظيمين هو ليس مسألة تشكيل مفصل أو تشابه فيزيائي واضح فقط بل أنها وحدة بالروح ،حيث أن الحديقتان تمثلان تعبيرا واضحا لحقيقة بسيطة لكنها قوية وهي أنه لأكثر من ألف عام وسط شعوب موحده بنفس الدين لكنها مختلفة في الأعراق والجغرافيا، مثل مسلمي الأندلس ومغول الهند ورغم عوائق الزمان والظروف وفترات الرخاء والشدة فقد واصل هؤلاء حبا عميقا وعاطفة غير منقطعة للطبيعة والمساحات الخارجية وبهجة في التعبير عنها ". (Hamed,1994,P.P.:1-2).

ويعلق الباحث صفي الدين حامد على نيوتن قائلا :"خلال تلك الفترة الطويلة اتخذت تلك العاطفة أشكالا مختلفة متعددة ،لكنها في الأساس كانت هناك لأكثر من ألف عام وليست مجرد نزوة عابرة لكن التزام بإدراك لتجاذب قائم على فهم وقبول لفضيلة بسيطة ،حيث أن كل مسلم كان مدفوعا بتعاليم القرآن وعادات المجتمع وبالشعائر الدينية حيث أن للإسلام إنجازات عظيمة وهذه الحدائق هي من أصغرها ".

2-1-3: السعي لتحقيق الخصوصية:

يختلف تعريف الخصوصية من مجتمع إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى ،فنرى البستاني في كتابه المنجد في اللغة والإعلام يعرفها بأنها " من المصدر خص، وخص فلانا بالشيء أي فضله به وأفرده، والخاص هو ضد العام .

بينما تعرف جوديث ديكيو(Judith DeCew) في موسوعة ستانفورد للفلسفة الخصوصية (Privacy) على أنها قدرة الأفراد على حجب أنفسهم أو المعلومات الخاصة بهم عن الآخرين، وذلك بما يتيح للأفراد والجماعات ممارسة حياتهم بعيدا عن المتطفلين والإزعاج. (DeCew,2006,P:+)

والخصوصية تتدرج إلى مجموعة من المستويات المختلفة من خصوصية المعلومات إلى الاقتصاد إلى الخصوصية الفيزيائية (الجسدية) التي تعتبرها ديكيو أهم أنواع الخصوصية.

والخصوصية الفيزيائية تتعلق بمنع التطفل على الحيز الفيزيائي للإنسان، أي بمعنى أخر منع التصرفات الحميمة غير المرغوب بها وحجب الفرد عن أنظار الآخرين، ومنع الدخول غير المصرح به إلى الملكيات الخاصة بالأفراد، وبالتالي ترتبط الخصوصية بالفطرة البشرية وحساسية المجتمعات تجاه الكرامة الفردية والخجل والسلامة والأمن والابتعاد عن الإزعاج والتلوث وحاجة الأفراد للهدوء.

وقد جاءت تعاليم الدين الإسلامي متفقة مع هذه الفطرة البشرية و المتمعن في تعاليم القرآن الكريم و السيرة النبوية يرى تصوير الجنة كمكان يحقق الخصوصية المطلقة و المثالية، الأمر الذي حاول المصممون في العمارة الإسلامية تحقيقه من خلال تشكيل العناصر المعمارية المختلفة لتحقيق هذا الهدف، وهذا الأمر الذي سيلاحظ تأثيره الكبير على الحدائق خلال النقاشات اللاحقة .

وتعتبر الخصوصية أهم العناصر التي نتجت عن الثقافة الإسلامية و اعتبرت إضافة جديدة إلى مفهوم الحدائق البشرية ،وهو ما يؤكده كويل (F.R. Cowell) بقوله : "إن الخصوصية في الحدائق الفارسية كانت نتاجا إما لتأثير التعاليم الإسلامية بعد القرن السابع الميلادي ،أو نتيجة لتقليد محلي عززته ممارسات المسلمين ،حيث أصبحت الحدائق الفارسية بعد هذا التاريخ خاصة جدا وهو التقليد الذي استمر إلى الآن ".(Cowell , 1978,P: 71).

3-2: العناصر المعمارية الرئيسية :

3-2-1: السور :

أحيطت الحدائق الإسلامية إلا ما ندر بأسوار تعمل على إغلاقها من جميع الاتجاهات وكانت هذه الأسوار تلتف حول الحديقة بالكامل أو تتشارك مع جدران المباني في إغلاق الحديقة وفي بعض الحالات كانت المباني تحيط كليا بالحديقة من جميع الاتجاهات، ولم يقتصر استخدام السور في إحاطة

الحدائق على طراز معين مثل الحدائق الكبيرة بل أمتد ليشمل الأحواش[1] والساحات الداخلية للمنازل (Court Yards) وحتى حدائق المزارات الدينية والأضرحة، وهو ما يؤكده ليرهام بسرده للعناصر المعمارية التقليدية للحدائق المغولية في الهند بقوله :" أغلقت هذه الحدائق بجدران ضخمة ،تحوي العديد من التحصينات وذلك لتحقيق الخصوصية والسلام " . (Lehrman, 1980,P: 142).



شكل (4-1) : أنماط مختلفة لإحاطة الحديقة (أفنيه) بالجدران و الأبنية ،لثلاثة منازل بالقاهرة، المصدر:(Salama ,2006,P: 42)

ومن أهم وظائف السور في الحديقة :

1- تحقيق الخصوصية :

أستخدم السور في المجتمعات الإسلامية لتحقيق الخصوصية للسكان من خلال الفصل بين البيئة الداخلية والبيئة الخارجية حيث يؤكد كرزويل (Creswell) ذلك بقوله : "إن استخدام الأسوار و الأبنية والأشجار الطويلة هو عبارة عن شرط مسبق للحصول على الخصوصية التي تشكل عاملا مهما لإطلاق القدرات والخصائص الخفية للروح البشرية " . (Hamed , 1994,P.:4.).

وعلى ما يبدو فإن هذه الخصوصية تتصل بأيمان المسلمين بالفصل بين المؤمنين الصادقين في الجنة وبين المنافقين والكفار من جهة أخرى، حيث يتناول القرآن الكريم هذه النقطة بالنص الصريح في

---

[1] **الحوش و الفناء** : يعرف جميل عبد القادر أكبر الفناء أو الحوش بقوله:" إنه السعة أمام العقار سواء كان ذلك العقار بيتا أو غرفة في الدار أو الدار نفسها وليس كما هو شائع بين العوام بأنه الفسحة داخل الدار فقط ،و الأفنية كما يقول ابن منظور هي الساحات على أبواب الدور وفناء الدار ما امتد من جوانبها وهو في العادة مخصص لاستخدام سكان العقار الملاصق له " ،وقد يكون برأي اكبر مسورا أو ضمن حرم الشارع ويستعمله العامة . (أكبر،1995،ص: 240-247) ،إلا أن المقصود بالفناء و الحوش في هذا البحث هو كل فراغ مغلق سواء بسور أو بأجزاء الأبنية الملاصقة ومخصص لاستخدامات أهل البيت أو المبنى .

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ ،(سورة 57 الحديد ،آية 13)، وقوله تعالى :﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (سورة 7 الأعراف آية 46).

وقد جاء استخدام السور في هذه الآيات كأداة رمزية لتحقيق الفصل بين المؤمنين والكفار وبين الجنة وما سواها وهو الأمر الذي يتسق مع نظرة المسلمين للحديقة على أنها ظل للجنة فجاء مفهوم استخدام السور كأداة للفصل بين الحديقة التي تمثلها وبين الحياة الدنيا التي تمثلها الشوارع والمحيط الخارجي، ويؤكد ليزك(Lesiuk) ذلك بقوله: "إن إغلاق الجنان الأرضية بالأسوار والمباني تحركاً مجازيا لاستدعاء طابع الجنة في الطراز المعماري، وأن الصحراء في الخارج تمثل الجفاف والموت بينما تمثل الأزهار والفواكه والظلال والماء والحياة في الداخل الجنة ". (Lesiuk,1980,P.P.: 66-68).

2- حد للملكية :

لا شك بأن أحد أهم الوظائف التي يقوم بها السور على امتداد التاريخ هو دوره كحد فاصل للملكية حيث يفصل بين ملكيات الأفراد بالإضافة إلى دوره في تأمين الحماية ومنع الدخول إلى المساحات المسورة .

3- التكييف البيئي :

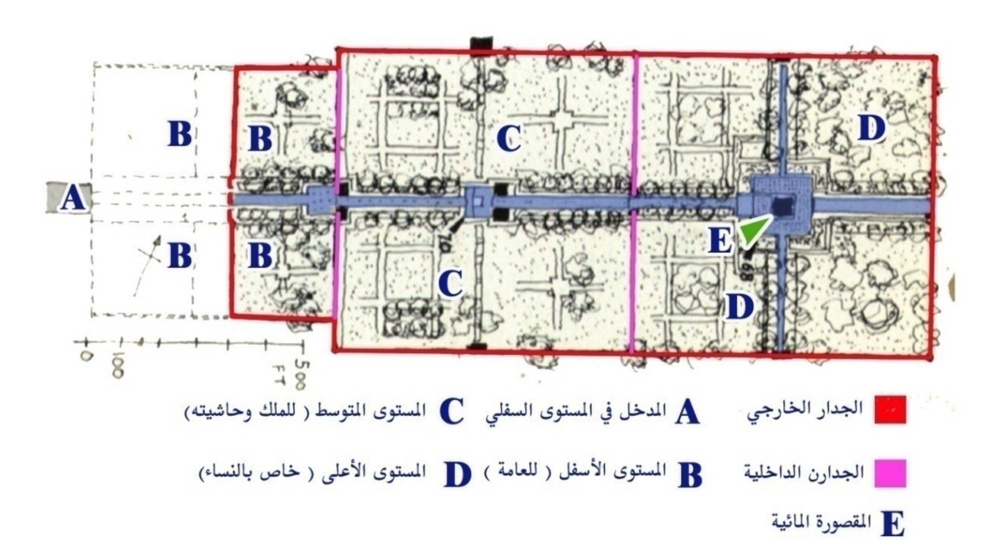
بما أن البيئة المحيطة بالحدائق في غالبية المجتمعات الإسلامية كانت قاسية وجافة فقد كان المسلمون بحاجة إلى عنصر معماري يقيهم العواصف الرملية والرياح الباردة والقاسية وحرارة شمس الصيف، فأتى استخدام السور لتحقيق هذه الغاية، وهو ما يتفق مع وصف الجنة في قوله تعالى:

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ (76 الإنسان 12-14) .

4- وظائف أخرى :

ولم يقتصر دور السور على النقاط السابقة بل لعب في كثير من الأحيان أدوارا أخرى منها الفصل بداخل الحديقة ذاتها، حيث ظهر في بعض الحدائق الكبيرة فصل داخلي يهدف لتحقيق التدرج في الخصوصية داخل الحديقة، ففي قصر الحمراء مثلا نرى عدة حدائق منفصلة عبارة عن أفنية داخلية تحيط بها المباني والجدران من كل جهة وأحدى هذه الحدائق خاصة بالعامة من زوار القصر والثانية خاصة بالملك وحاشيته بينما الثالثة خاصة بالنساء، وهو الأمر الذي تكرر في العديد من الحدائق الإسلامية خاصة الأندلسية.

أما في حديقة شلمار باجه(**Shalamar Bagh**) في كشمير، فيتضح من المخططات وجود جدران داخلية ثانوية تفصل الحديقة إلى ثلاث أقسام أولها وهو العام والأصغر مساحة، ثم حديقة السلطان وحاشيته في المستوى الأوسط ثم حديقة النساء في المستوى الثالث .



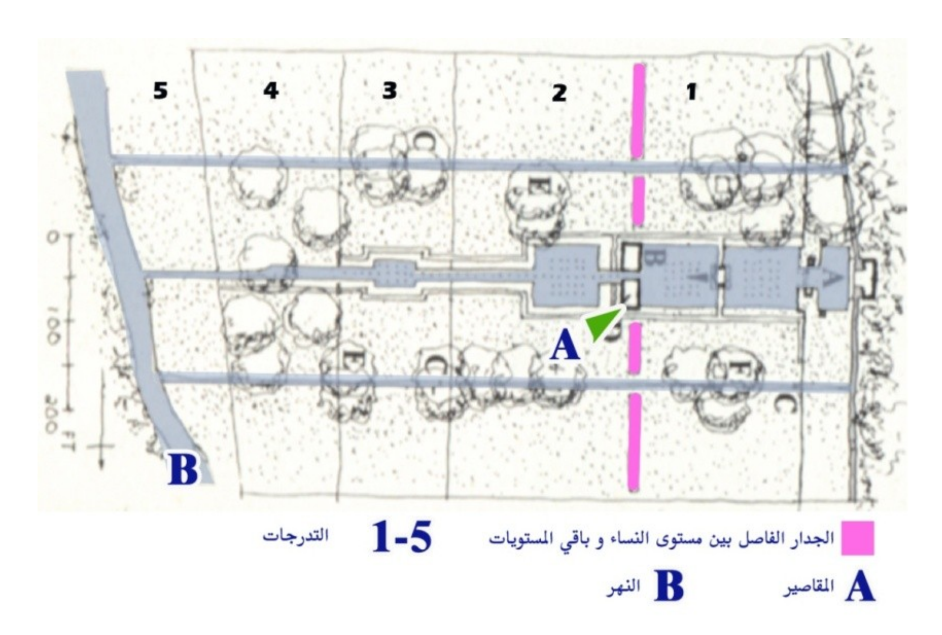
شكل(4-2) : مخطط حديقة شلمار باجة يوضح الأسوار الداخلية والخارجية ،

المصدر : (Jellicoe , 1975 ,P: 45.)

3-2-2: التدرج و استخدام المستويات المتلاحقة :

استخدم المصممون في العمارة الإسلامية التدرج في تشكيل العديد من حدائق المجتمعات الإسلامية خاصة الحدائق المغولية في كشمير وتعتبر حديقة أشبال في كشمير مثالا على الحدائق التي استخدم فيها التدرج ،حيث استخدم التدرج في هذه الحديقة لتحقيق الخصوصية والفصل بداخل الحديقة.

وهو ما يؤكده وصف ليرهام لهذه الحديقة بقوله: " تحتوي الحديقة على ثلاث مستويات رئيسة الأول وهو الأخفض مفتوح أمام العامة، والثاني الأوسط مخصص للملك وحاشيته بينما المستوى الثالث الأعلى مخصص للنساء" ،(Lehrman, 1980,P:142)، ويتضح من المخططات والصور المتوفرة للحديقة وجود جدار منخفض على حد هذا المستوى يمنع العامة والخاصة في المستويين السفليين من مشاهدة ما يجري في ذلك المستوى بينما يسمح ارتفاع هذا الجدار والمقصورتين اللتان تتخللانه للنساء بمراقبة ما يجري في الحديقة من خلال مقصورتين تتخللان ذلك الجدار.



شكل (3-3) : مخطط حديقة أشبال في كشمير ،

المصدر :(Jellicoe ,1975, P:45)

وبالإضافة إلى تحقيق الخصوصية استخدم التدرج في كثير من الأحيان كدلالة رمزية على العديد من الأمور وأهمها لربما الرمز إلى درجات الجنة المتمايزة وفقا لمستوى العمل الصالح والراسخة في إيمان المسلمين كما يتضح في قوله تعالى:﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ (20 طه 75 -76).

ولم تقتصر رمزية التدرج على الرمز إلى درجات الجنة بل يبدو أنها تعدتها خاصة في الفترة المغولية إلى الرمز إلى عدد الكواكب أو حتى عدد اشهر السنة وهو ما يؤكده ليرهام بقوله:" قد تحوي الحديقة المغولية ثمان درجات وهو الأمر الذي يتبع اعتقاد المسلمين بأن الجنة مقسمة إلى ثمان درجات، أو قد تحوي سبع درجات في إشارة إلى عدد الكواكب التي عرفوها بينما احتوت حديقة

نشأت باجه (Nishat Bagh) في كشمير12 مستوى في إشارة إلى الأبراج الأثنى عشر".
.(Lehrman,1980,P.: 142)

3-2-3: استخدام المقاصير (Pavilions) :

لقد أستخدم المصممون في المجتمعات الإسلامية منصات مسقوفة من الخشب أو الحجر كانت توضع في نقاط مركزية من الحديقة بحيث تسمح للجالس بداخلها مراقبة ما يجري في أرجاء الحديقة وتحميه من الريح والشمس وتمنع الآخرين من رؤيته من الخارج وغالبا ما كانت توضع فوق أو بجوار الماء في مركز الحديقة (وسطها) في محاولة على ما يبدو لتحقيق الوصف القرآني للجنة في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾. (29 العنكبوت -58).

وقد تعددت أنماط المقاصير في الحدائق الإسلامية بدءا من الأرائك الخشبية البسيطة المرتفعة عن سطح الأرض والموضوعة في ظل الأشجار والعرائش والجدران كما كان الحال في معظم حدائق الأفنية الداخلية الصغيرة، إلى المقاصير المسقوفة ذات المسقط الأفقي البسيط الذي يتخذ الشكل المستطيل والسداسي والثماني بما يسمح بتقابل الجالسين بداخلها ورؤيتهم لجميع أركان الحديقة، في أشارة على ما يبدو إلى حالة المؤمنين في الجنة الذي يتضح في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (56 الواقعة 11-16).

وفي حدائق القصور الكبرى أصبحت هذه المقاصير تشكل جزءا متصلا مع المبنى كما نرى في حديقة فناء الأسود في قصر الحمراء أو مبنى منفصل ذو فراغات متعددة منها المفتوح على الحديقة كمنصة للنظر ومنها ما هو مغلق كغرف للنوم والجلوس والخدمات المختلفة، وهو ما بدء ظهوره في حدائق الفترة الأموية في الأندلس مثل مقاصير حدائق قصر الزهراء التي خدمت كمنزل صيفي صغير، ليبلغ أعلى درجات التطور في مباني الأضرحة التي بناها المغول في مراكز حدائقهم مثل ضريح تاج محل .



شكل (3-4): صورة لإحدى مقاصير حديقة قصر توباكي، تركيا ــ تمثل المقاصير ذات المسقط البسيط والمسقوف،

المصدر: (http://commons.wikimedia.org)



شكل (3-5) : صورة للمقصورة العائمة في التراس السادس من حديقة اشبال

(تمثل مقصورة متعددة الفراغات)،

المصدر: (Rabbat,2008,P: 4/611)

وغالبا ما كانت هذه المقاصير على اختلاف أنماطها ترفع عن مستوى سطح الحديقة بعدد من الدرجات بما يتيح إطلالة أفضل للجالسين بداخلها وحماية من الحشرات والزواحف، وبالعودة إلى رأي العديد من الباحثين أن الحديقة في المجتمعات المسلمة هي مرآة للوصف القرآني للجنة، فأن ذلك يبدو متسقا مع قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾. (88 الغاشية 13+ 14).

3-2-4: الظلال :

لا شك بأن استخدام الظلال والتلاعب بكميات الإضاءة الساقطة على الأفنية، من أهم العناصر التي أستخدمها المسلمون في تشكيل حدائقهم في البيئة الصحراوية القاسية المحيطة بمعظم مناطق انتشار المجتمعات الإسلامية، والتي استدعت طريقة لتلطيفها واستحداث نظام تبريد طبيعي من خلال استخدام الأشجار والعرائش بالإضافة إلى تشكيلات المباني والجدران مما يدفع الهواء البارد إلى داخل المنزل عبر الفتحات المحيطة بالفناء، عدا عن تحقيقها الخصوصية لمن بداخل الحديقة من خلال حجبها الرؤية من الأماكن المرتفعة إلى داخل الحديقة .

إضافة لذلك فانه يبدو أن هنالك ارتباط وثيق بين الظل والجنة، الأمر الذي يتضح بقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾،(77 المرسلات 41-42)، حيث يعد الله عباده المتقين بالظل كنعمة من نعم الجنة، وقد استخدم المصممون عدد من الحلول التصميمية لتحقيق هذه الغاية الوظيفية أهمها:

أ- **استخدام الأشجار :**

نلاحظ أن الحديقة الإسلامية كانت تكسوها العديد من الأشجار الكبيرة التي تتلاءم مع البيئة المحيطة، بهدف أيجاد الظل والحماية البيئية ومن هذه الأشجار شجرة السدر التي أولاها المسلمون أهمية كبيرة لورود ذكرها كأداة لإلقاء الظلال في الجنة وذلك في قوله تعالى:﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ (56 الواقعة 27-34)،وهو ما يفسره **محمد علي الصابوني** في كتابه صفوة التفاسير بقوله :" إن السدر المخضود هو شجرة السدر المعروفة بشوكها وأما المخضود فإن شوكها مقطوع في الجنة وأن المؤمنين يكونون تحت هذه الأشجار وفي ظلها، أما الظل الممدود أي أنه ظل دائم لا يزول "(الصابوني ،1989،ج3،ص 308)، واستخدم المسلمون بالإضافة إلى شجرة السدر العديد من الأشجار مثل الحور و السرو (حماية بيئية)، والدردار والصفصاف والبلوط لإعطاء الظلال في الصيف والسماح للشمس بالمرور شتاءً .



شكل (3–6) : رسم لأحدى باحات قصر الحمراء يوضح أهمية الظلال واستخدام الأشجار للحصول عليها,
المصدر : (De Prangey ,1996,P:50).

ب– استخدام العرائش :

استخدم المسلمون العرائش في كثير من الحدائق والأحواش لإلقاء الظلال وغالبا ما كانت هذه العرائش تصنع من الأخشاب ومن أغصان وجذوع الأشجار الجافة وكانت تستخدم لتعريش بعض النباتات المتسلقة المزهرة إلا أنها كانت في معظم الأحيان تستخدم كعرائش للعنب، وقد ارتبط هذا النبات بالحدائق في مختلف المجتمعات الإسلامية حتى كادت العريشة ترتبط به وذلك على ما يبدو لوروده في القرآن الكريم وارتباطه بالجنة في تسع آيات . يقول الله تعالى :﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (23 المؤمنون – 19) ،

واستخدام العرائش في حدائق المجتمعات الإسلامية من ناحية وظيفية جاء على ما يبدو مرتبطا بوصف العرائش في الجنة الوارد في قوله تعالى :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ (6 الأنعام –141).



شكل (3–7) :   رسم لحديقة القناة في قصر الحمراء يوضح العرائش،
المصدر :(De Prangey ,1996,P : 53)

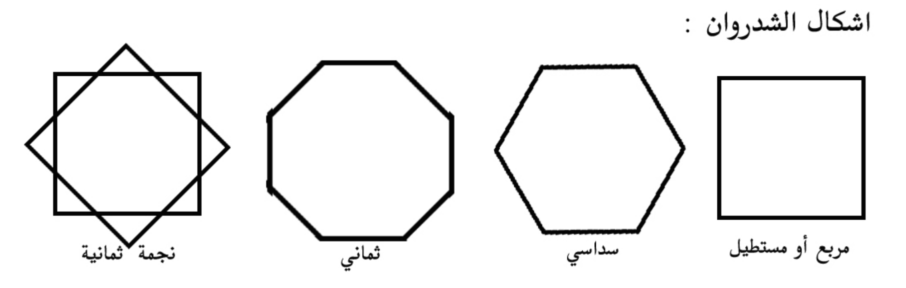
3–2–5: الماء الجاري :

عند النظر إلى البيئة الصحراوية الجافة التي إنطلق منها المسلمون الأوائل يشعر الناظر بالدهشة للتناقض بين هذه البيئة واستخدام عنصر الماء في تصميم الحدائق الإسلامية وذلك لندرة الماء في هذه البيئة وصعوبة إحضاره إلى هذه الحدائق، وما تطلبه ذلك من إبداع للمصممين في استحداث تقنيات تسمح باستخدام هذا العنصر، إلا أن هذه الدهشة تتلاشى حين النظر إلى الوصف القرآني للجنة وربط الجنة بوجود الأنهار والماء الجاري كما نرى في قوله تعالى:﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزۡقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ﴾
(2البقرة – 25) ، وفي قوله تعالى:﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ ﴾ (17 الإسراء – 91)، ويتكرر ارتباط الجنة بالأنهار والماء في كثير من الآيات، وتعد جملة ((جنات تجري من تحتها الأنهار)) أكثرها تكرارا في وصف الجنة حيث تتكرر في القرآن أكثر من أربعين مرة .

ويرى جونز ليرهام" أن شكل الحديقة الإسلامية حدد بشكل كبير بواسطة تقنيات الري، حيث انه لولا عنصري الماء والظل لأستسلم كل شيء أمام الحر الشديد، وأن الماء استخدم بإبداع ليسهم في العمارة والمناظر الطبيعية، حيث وفر الماء الهدوء والعمق والبرودة والرطوبة".(Lehrman,1980,P: 37).

أما ارنست جروبي(Ernst Grube) فيقول: " لقد ارتبط الماء بالثروة والخصوبة والبرودة، والماء عنصر أساسي في العمارة الإسلامية، والبرك والقنوات هما أهم عناصر الحديقة الإسلامية، وهي في الأساس ضرورية للري وطورت لجمالها الشكلي وأدرجت ضمن عناصرها المعمارية" .
.(Grube, 1996 ,P: 156)

لقد أستخدم المسلمون العنصر المائي على جميع المستويات فلا نكاد نجد حديقة صغرت أو كبرت ألا والعنصر المائي موجود بها، ولقد تطور استخدام هذا العنصر على مدى تاريخ الحضارة الإسلامية، ففي ساحات البيوت الصغيرة(Court Yards) تم استخدام الشدروان (نافورة ماء صغيرة) تتوسط الباحة الخارجية (الحوش)، حيث اتخذت أشكالا متعددة بدءا من الشكل المربع أو المستطيل إلى الشكل السداسي الأضلاع والدائري إلى الشكل الثماني الأضلاع والنجمة ثمانية الرؤوس الناجمة عن تداخل مربعين ببعضهما ولقد اكتسب التشكيلين الأخيرين أهمية خاصة لدى المصممين في العمارة الإسلامية لتضمينهما مفهوما رمزيا يرتبط بعدد أبواب الجنة الثمانية.

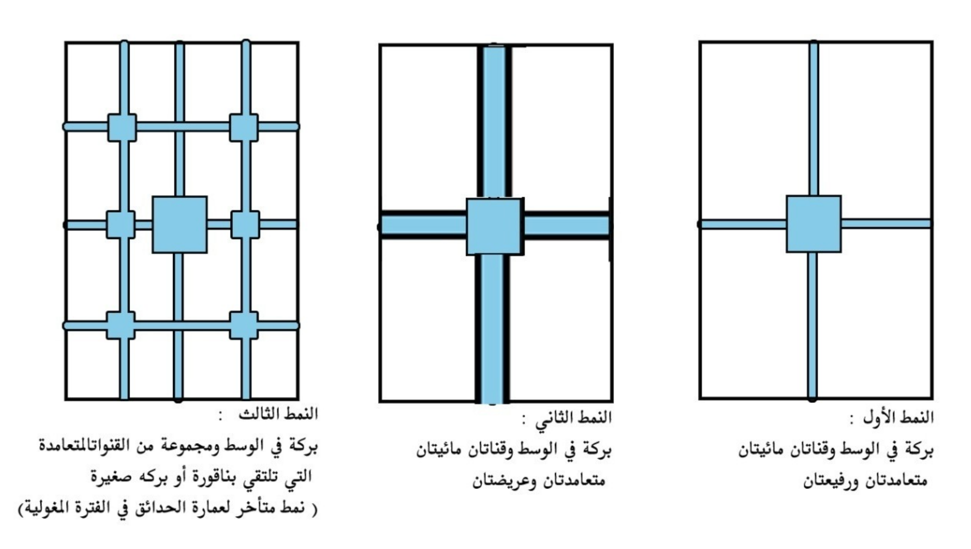


شكل (3–8) : الأشكال الهندسية المختلفة للشدروان،
المصدر: الباحث.

أما في حدائق القصور فتم استخدام قنوات ومسطحات مائية، وفي كثير من هذه الحدائق كان يتم قسمة سطح الحديقة إلى أربع أجزاء بواسطة قناتين مائيتين أو مسطحين مائيين يتقاطعان في الوسط بواسطة بركة أو نافورة (وهو ما عرف من قبل عدد من الباحثين بطراز الشارباجة) وذلك وفقا لتوفر الماء وتقنيات رفعه وضخه في البيئة حيث انه في بلاد فارس والعراق اقتصرت على قنوات

رفيعة بينما في الفترة المغولية المتأخرة في الهند استخدمت المسطحات المائية العريضة التي تحدها ممرات للمشي مع نافورة في الوسط أو بركة .

وهذا التصميم ينسجم مع قوله تعالى:﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾(47 محمد – 15)، حيث تصف هذه الآية وجود أربع أنواع من الأنهار في الجنة رمز المصمم المسلم أليها بأربع قنوات مائية .



شكل(4–9) : أنماط استخدام القنوات المائية في حدائق المجتمعات المسلمة،

المصدر:الباحث بتصرف عن مخططات الحدائق الواردة في الفصلين الأول و الثاني .

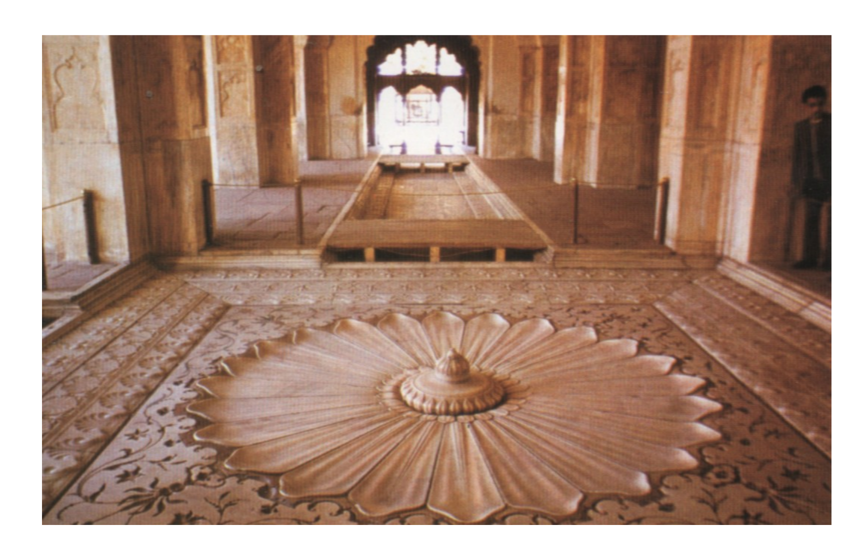
اتسم استخدام المسلمين لهذه النوافير والقنوات المائية بالرقة والاتزان حيث كان الماء ينساب من هذه النوافير ضمن الحوض أو القناة المائية وذلك لسببين الأول ندرة الماء في البيئة المحيطة والثاني أن الإسلام حض المسلمين على الاقتصاد وخاصة بالماء و**ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم** لسعد عندما مر به وهو يتوضأ: "ما هذا السرف يا سعد، فقال سعد وهل في الماء من سرف: قال صلى الله عليه وسلم نعم وإن كنت على نهر جار." (سابق ، 1971،ج 1، ص48).

كما لعب عنصري الحركة والصوت دورا كبيرا في تشكيل العناصر المائية للحديقة، حيث يضيف العنصر المائي للحديقة الإسلامية عنصر الصوت الجمالي من حيث أن انسياب الماء من الشدروان أو القنوات يضفي صوتاً هادئاً يذكي الحواس، كما أن ارتباط الماء بالحركة والجريان عائد إلى وصف

الماء في الجنة في قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ (17 الإسراء – 91).

وقد استخدم المصممون عدد من التقنيات في إظهار حركة الماء، فمن استخدام النوافير الرقيقة التي تلقي الماء ضمن إطار الحوض، إلى الشلالات التي ميزت عمارة حدائق كشمير في الفترة المغولية، إلى استخدام النقوش وزخارف البلاط الملون بشكل يوحي بحركة الماء والأمواج، وفي المسطحات المائية الكبيرة التي من الصعب تحريكها استخدم انعكاس المباني والأشجار على سطح الماء لإعطاء انطباع جمالي خاص ويؤكد جروبي:" أن عمل الماء كمرآه تكرر الزخارف والأشكال وتكسبها أبعادا جديدة خارقة للطبيعة، وأن هذا التأثير جيد سواء استخدم في المناطق المغلقة أو المفتوحة " (Grube, 1996 ,P:157).

وهو ما يراه أرنود مواريز (Arnaud Maurieres) مرتبطا بالدلالات الرمزية للعناصر المعمارية في حدائق المجتمعات المسلمة بقوله: " إن جريان الماء في النافورة والقناة يمثل التجدد الأبدي بينما تمثل البركة انعكاسا لأقامتنا المستقبلية في الجنة، فإذا كان العالم الذي نعيش فيه مجرد انعكاس للجنة الموعودة، فإن انعكاس عالمنا هو الجنة وبالتالي فإن البركة التي في وسط الحديقة تمثل بوابة لجنات عدن الموعودة ".(Maurieres, 2001,P: 64).



شكل (3–10) : صورة لأحدى نوافير الماء داخل قصر القلعة الحمراء(آجرا – الهند) توضح الزخارف والنقوش التي استخدمت لإضفاء إحساس بالحركة والصوت ،

المصدر :(Grube,1996 ,P: 156)



شكل (3−11) : انعكاس الواجهات على سطح البركة في فناء مدرسة يوسف في مراكش بالمغرب,
المصدر :(Grube,1996 ,P: 15).

واستخدم المسلمون الوصف الوارد في القرآن والسنة النبوية لأقصى درجة، ومن هذا محاولتهم في عديد من الحالات إظهار الماء وكأنه يجري على سطح الأرض دون قناة، من خلال قيامهم بعمل قنوات رقيقة جدا تكاد تكون غير بارزة للعين، وذلك يتضح في وصف أنهار الجنة على لسان أبن القيم الجوزية في نونيته بقوله :

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

من تحتهم تجري كما شاءوا مفج رة وما للنهر من نقصان

ويعتبر نظام القنوات المائية في حديقة مقام تاج محل مثالا أخر على هذا الفكر المتقدم، حيث تم تصميم البركة المركزية بالوسط بحيث تكون ضمن مستوى مرتفع عن باقي أجزاء الحديقة وتخرج منها أربع قنوات مائية عريضة، في إشارة رمزية على ما يبدو إلى وصف السيرة النبوية لمنبع أنهار الجنة الأربعة من الفردوس أعلى درجات الجنة في نظر المسلمين، وهو ما يتضح في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه الذي أورده البخاري في صحيحة ويقول فيه:((إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة - أراه- فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)). (البخاري،2003،ج2،ص277)

3-2-6: النباتات و الأشجار :

أستخدم المسلمون تشكيلة رائعة من الأشجار والشجيرات والأزهار بعضها ورثوه عن الحضارات التي سبقتهم وبعضها ورد ذكره في القرآن الكريم، وكان لاستخدامهم لتلك النباتات غايات مختلفة ومتنوعة منها :

*** الظلال و التكييف البيئي(كما سبق ذكره) :**

فقد إستخدم شجر الحور(Poplars) والسرو لتحقيق التوازن البيئي أما أشجار الدردار والصفصاف والبلوط الضخمة فاستخدمت لإلقاء الظلال في الصيف الحار بينما يسمح تساقط أوراقها شتاءً بدخول الشمس، ولتخفيف الاضطراب الناتج عن الجدران تم زراعة أشجار السرو الطويلة والرفيعة لتخفيف سرعة الرياح وتنقية الغبار داخل الحديقة حيث كانت هذه الأشجار تزرع على طول الجانبين الشرقي والغربي وذلك لإلقاء الظل على الحديقة طوال اليوم .



شكل (3-12) : بعض الأشجار المستخدمة في حدائق المجتمعات المسلمة،
المصدر : الباحث.

***مصدر للطعام و الفواكه و الروائح العطرة :**

استخدم المسلمون تشكيلة كبيرة من أشجار الفاكهة في الحدائق الإسلامية وذلك على ما يبدو على صلة بارتباط الوصف القرآني للجنة بالفاكهة وأشجارها المختلفة وهو الأمر الذي يتكرر في عدة آيات منها قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (77 المرسلات 41-43).

ومن الأشجار التي أستخدمها المسلمون أشجار الحمضيات بمختلف أنواعها **يقول بعض المؤرخون:** "**إن حديقة الأسود في قصر الحمراء بغرناطة كانت مزروعة بأشجار البرتقال في الأصل** "، كما نلاحظ أن أهميتها استمرت حتى عصرنا الحالي ففي حديقة برلين الإسلامية تمت زراعة هذه الأشجار رغم عدم تناسب البيئة المحيطة وما يتطلبه الأمر من صعوبة تقنية للحفاظ على هذه الأشجار، وذلك لما تنتجه هذه الأشجار من ثمار وما يصدر عن أزهارها من رائحة عطرة. (Mirza, 2005,P:1) .



شكل (3–13) : صورة لحديقة برلين الإسلامية، وتظهر فيها المقصورة والسور.
المصدر : (Mirza, 2005,P:1)

واستخدم المسلمون أشجار النخيل والزيتون والرمان والعنب والتي ذكرت جميعا في القرآن الكريم إلا أن النخيل أتخذ مكانة خاصة عند المسلمين وذلك على ما يبدو لتكرار ذكره في القرآن ثلاث وعشرون مرة، بالإضافة إلى كونه مصدر الغذاء الأساسي للمسلمين الأوائل في الجزيرة العربية حيث لا تكاد الحدائق الإسلامية تخلو من شجرة نخل واحدة على الأقل.

يقول تعالى :﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾،(80 عبس25–32).

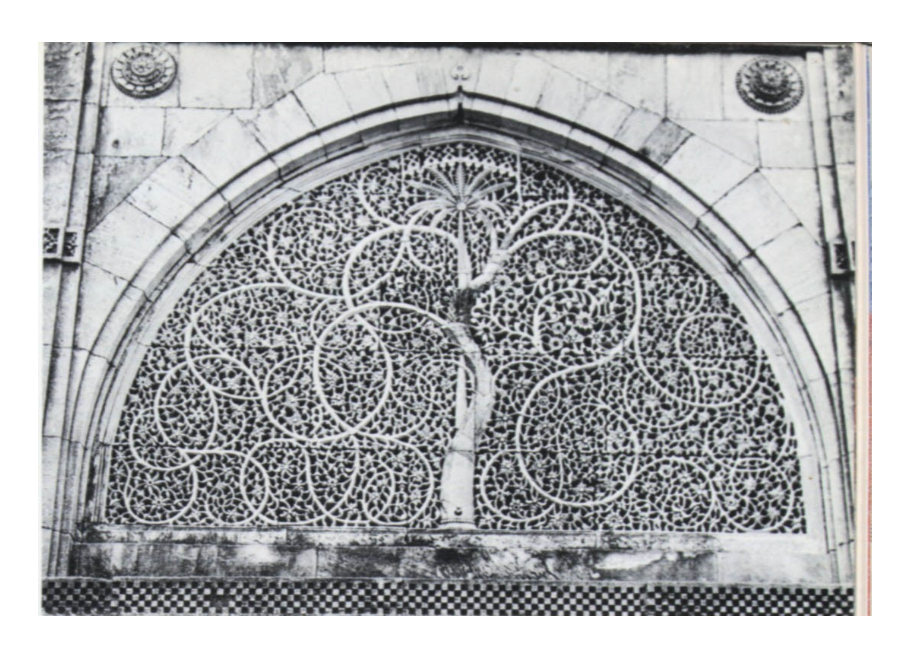
ولم يقتصر استخدام المسلمين على هذه الأشجار حيث زرعوا الكثير من النباتات والأزهار والبقول ((وعنبا و قضبا)) وذلك للاستمتاع بألوانها الجميلة وروائحها العطرة، بالإضافة إلى استخدامها كمصدر للغذاء ومصدر للعلاج حيث كانت الكثير من هذه النباتات تستخدم كنباتات طبية وبهذا تحقق تعدد الاستخدام للحديقة الإسلامية .

3-2-7: الطيور و الحيوانات :

بالإضافة إلى النباتات ربى المسلمون أنواعا من الحيوانات ضمن الحديقة لإضفاء عنصري الحركة والصوت مما يمنح الحديقة أحساسا بالحياة، مثل البجع والبط والحمام والطيور المغردة حيث اكتسبت أصوات الطيور أهمية كبيرة وذلك مرتبط على ما يبدو بوصفها من قبل القرآن الكريم بالتسبيح وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (24 النور 41)،هذا بالإضافة إلى أن هذه الحيوانات كانت مصدرا للغذاء واللحوم .

3-2-8: الزخارف (الأرابيسك):

أستخدم المسلمون الزخارف بشكل مكثف في تزيين الحديقة وجدرانها وتمتاز هذه الزخارف بتكوينها الهندسي والنباتي وفقا لما جرت عليه عادة المسلمين، واستخدمت في تزيين الجدران المحيطة بالأفنية وتغطية النوافذ بالكوليسترا وكنقوش تزين العديد من عناصر الحديقة من الشدروان إلى المقاصير إلى التبليطات المختلفة للأرضيات.



شكل (4-14) : نافذة في مسجد سيدي سعيد في الهند، يغطيها كوليسترا حجرية منقوشة على شكل أغصان و أوراق وأزهار متشابكة لشجرة (وهذه الزخارف متطابقة وعضوية رغم أنها قد تبدو عن بعد عشوائية)، المصدر :(Grube,1996 ,P: 185)

وخلاصة القول أن الحديقة في المجتمعات الإسلامية احتوت العديد من العناصر المعمارية والنباتية، التي أبدع المصممون في الفترة الإسلامية في استخدامها والتي اتخذت أبعادا وظيفية وجماليه ورمزيه على حد سواء وهو ما ميزها عن الحدائق في الحضارات القديمة الأخرى وهو ما سيناقشه الفصل الرابع.

الفصل الرابع

الإسلام والمدلول الرمزي للحديقة عند الحضارات القديمة.

4-1: حضارات ما قبل الإسلام.

4-1-1 فلسفة الحدائق عند الفراعنة .

4-1-2: فلسفة الحديقة في بلاد ما بين النهرين.

4-1-3:فلسفة الحديقة عند اليهود .

4-2: الحضارات التي عاصرت الإسلام.

4-2-1: فلسفة الحديقة لدى أتباع الديانة المسيحية .

4-2-2:فلسفة الحديقة لدى الصينيين.

4-3: الحديقة في الحضارة الإسلامية.

4- 4: تصوير الجنة في الفنون الإسلامية المختلفة.

4-4-1 : فكرة الجنة في الفنون اللغوية.

4-4-2: فكرة الجنة في العمارة الإسلامية.

4-4-3 : فكرة الجنة في الزخارف و الفسيفساء والمصورات.

4-4-4: فكرة الجنة في السجاد و المنسوجات.

الفصل الرابع

الإسلام و المدلول الرمزي للحديقة عند الحضارات القديمة

لم يقتصر فكر تصوير الجنة في الحدائق على المسلمين، فقد تأثرت الكثير من الحضارات، بالتعاليم الدينية السائدة، ويرى ايد بينس (ed bennis) أن قصة ارتباط الحديقة بالجنة تعود إلى الحضارات القديمة في مصر وبلاد ما بين النهرين وأن الحديقة في تلك الحقبة لعبت دورا هاما يحدد التاريخ الاجتماعي والاقتصادي بالإضافة إلى بعد رمزي كصورة للجنة". (Bennis,2006, P:3).
وقد رسخت قصة أخراج سيدنا ادم والد البشرية وزوجه حواء من الجنة والواردة في الكتب السماوية الثلاث التوراة والإنجيل والقرآن، كعقوبة على مخالفتهم أوامر الله عز وجل الجنة لدى أتباع هذه الديانات بحيث أصبحت الجنة هدفا' يسعون إليه، فهي جزاء المتقين ومقام الآخرة ورمز للكمال والمثالية .

يرى كويل (Cowell) " أن الإنسان سعى من خلال بنائه الحدائق إلى تحديد هدفين أساسيين هما المثالية الفكرية والحاجة البشرية للمتعة الدنيوية، والمثالية كما يعرفها قاموس أكسفورد الإنجليزي: هي طريقة الحياة التي توعز بها القيم الثقافية والتي تم تقديرها واحترامها في الجزء الأكبر من التاريخ البشري والمحملة في تعاليم الدين والتقاليد." (Cowell,1978,P:9) .

كما يرى جوليكو وسوزان " أن اصل حدائق الجنة يعود إلى ما يذكره التاريخ التوراتي(العهد القديم) الذي يصف أول حديقة من هذا النوع ويحدد موقعها إلى الشمال من بابل ويورد الوصف الوارد في العهد القديم: ((وزرع الله حديقة إلى الشرق من عدن، ويخرج نهر من عدن ليروي الحديقة، وهناك قسم النهر إلى أربعة أفرع والفرع الرابع هو الفرات))، ويرى جوليكو أن هذا الوصف يحوي فكرة حدائق الجنة التي مثلت على الأرض بشكل مربع، والذي بقي حتى الآن الإلهام الأساسي لتصميم الحدائق لدى الحضارات المركزية "، (Jellicoe , 1975, P: 23).

وهو ما يؤكده كويل بقوله :" أن القليل من المراجع للحدائق في كتاب أو اثنين من الإنجيل أحدثت تأثيرا عميقا على عقول الرجال في العالم الناطق بالانجليزية أكثر مما فعلته أيا من ثقافات الحدائق القديمة، وفي الحقيقة لم تكن هذه الحدائق التي ذكرتها هذه المراجع سوى بقع صغيرة من كروم العنب وأشجار الزيتون مع شجرة من التين ورمانه أو اثنتين، وهي لم تكن لتعطي ذلك الأثر لولا أن هؤلاء الرجال أصغوا بجدية لكل كلمة في هذه النصوص المقدسة " . (Cowell , 1978,P.P.:61-62).

1-4:حضارات ما قبل الإسلام:

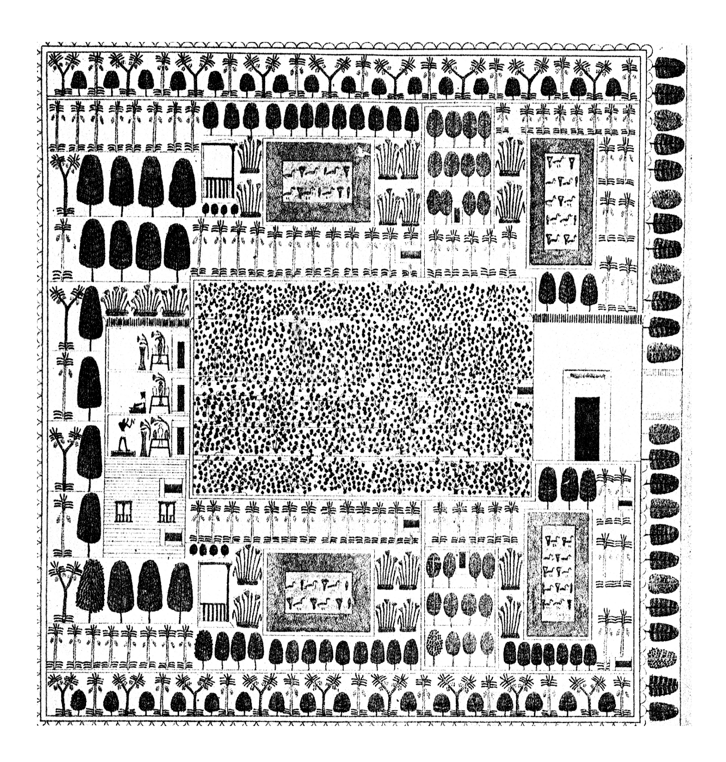
1-1-4 فلسفة الحدائق عند الفراعنة :

تعتبر الحضارة الفرعونية المصرية أول الحضارات التي تركت تسجيلات عن طريقتها بالحياة ، ومنها أقدم وصف معروف على الإطلاق لحديقة يعود إلى الفترة من 2600−2576 ق.م على جدران المقبرة الملكية للفرعون سنفرو(Senferu) والتي شكلت مصدر فخر لبناتها.

وارتبطت الحدائق المصرية التي بنيت لأغراض جمالية (حدائق الزهور و الأشجار) بالاعتقاد الفرعوني بالحياة بعد الموت، وتكريسهم هذه الحدائق إلى تقاليدهم المرتبطة بالسحر و الدين والرهبنة، والتي كانت من محددات الحياة اليومية، وكان الهدف الأساسي من بناء هذه الحدائق تقديمها كقرابين للآلهة ولكي ترافق ملوكهم في حياة ما بعد الموت.(Cowell , 1978,P.P.:11-31) ، ولم يكن الهدف منها تحقيق الحاجات البشرية للمتعة والراحة، وهو ما استمر في ظل مختلف السلالات الحاكمة في مصر .

وقد بنيت الحدائق في مصر بطريقة هندسية وكان مخططها في الغالب على شكل مستطيل أو مربع مغلق بجدران، كما سعى الفراعنة إلى إثراء حدائقهم بأنواع نباتات لا توفرها البيئة المصرية المحلية، حيث توضح بعض النقوش الهيروغليفية إحضارهم الأزهار الجديدة من مناطق مثل بلاد بونت (الصومال حاليا) .

وكانت بعض المباني والبيوت تبنى بداخل تلك الحدائق بهدف تزيينها، ولاحظ كويل انه "عند مقارنة مقياس هذه البيوت بمقياس الحديقة، فقد كانت الحديقة تبتلع البيت"، أي كانت نسبتها كبيرة.



شكل (4–1) : مخطط لحديقة فرعونية وفقا لتصور Cowell مبني على برديات ورسومات تعود للملكة الفرعونية المتأخرة، ويظهر بها المخطط المتماثل والبرك المظللة ووفرة الأشجار والنباتات، المصدر :(Cowell,1978,P:17).

4-1-2: فلسفة الحديقة في بلاد ما بين النهرين:

لقد كانت حضارة ما بين النهرين أولى الحضارات البشرية التي استخدمت المظاهر الطبيعية والحدائق كنوع من التعبير الرمزي عن أمور دينية، فبالإضافة إلى حدائق بابل المعلقة الأسطورية فقد كانت الزاقورة التي يعتبرها العديد من المؤرخين أمثال جيليكو وليناردو ويلي "أولى محاولات البشرية لترك بصماتها على الأرض وسط السهول الممتدة إلى نهاية الأفق". Jellicoe,1975,P:23).

واعتبرت الزاقورة تمثيلا للجبل المقدس الذي تعيش الآلهة على قمته، وتعتبر زاقورة أور المخصصة لأله القمر أعظم الأمثلة الحية المتبقية على ما يعتبر" تله من صنع البشر تمثل الجنة "وفقا لجيليكو، وارتبطت الاحتفالات التي كانت تقام بها بالمواسم الزراعية المختلفة.

والزاقورة المكونة من عدة مصاطب ترتفع عن المدينة المحيطة والتي كانت برأي ليونارد ويلي مزروعة بالأشجار، بينما يشكل المحور الاحتفالي المؤدي للقمة أول تصميم حضري ضخم لأدراج، الأمر الذي يتناقض مع الأفنية الداخلية المربعة التي كانت الركيزة الأساسية في بناء منازلهم.

.(Jellicoe ,1975,P:25)



شكل (4-2) : نقش حجري يعود للفترة 627-668 ق.م للملك اشور بنيبعل مع زوجته في الحديقة الملكية في نينوى – العراق.

المصدر :(http://www.ancientreplicas.com).

4-1-3:فلسفة الحديقة عند اليهود :

تظهر الروايات التوراتية أن الحدائق كانت تقدر كثيرا ولها أهمية كبيرة في فلسطين القديمة، إلا أن هذه الروايات وفقا لكويل "أخذت كدروس أخلاقية أكثر من عامل تشجيع للبشر على الانخراط في بناء الحدائق ومسرات هذا العالم، حيث صورت القصص التوراتية الحدائق الأرضية على أنها فانية". (Cowell , 1978,P:62).

وشكل عامل عدم الاستقرار السياسي ومحدودية الفترة التي كان بها كيان سياسي لليهود والانقسام الذي سرعان ما حل بذلك الكيان حتى أصبح كيانين (يهودا والسامرة) والتهديد الأشوري والعداء الروماني عاملا إضافيا في ذلك، حيث يتضح من خلال فصول هذا البحث أن الحدائق هي نتاج لسلسة طويلة من التطور الذي مدعاته الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

وتوضح النصوص التوراتية حبا كبيراً وواضحاً للنباتات والأزهار حيث ذكر فيها أكثر من 150 نبات وزهرة وشجرة، إلا أن عدم وضوح مدوني التوراة وفقا لكويل "جعل من غير الممكن التعرف على الغالبية العظمى منها رغم الأبحاث المتعددة التي أجريت بهذا الهدف".

ولم يتطور مفهوم الحديقة في تلك الفترة بشكل ملحوظ، فاقتصرت الحدائق التي بنوها على حدائق مدافن الملوك والقصور وبعض المنعزلات، والتي بنيت على أساس الوصف التوراتي لجنة عدن ولاسيما الحديقة التي زرعها سيدنا إبراهيم ليضحي فيها بابنه أسحق وفقا لرواياتهم .

وتورد ماري لويس جوتين (Gothein) الوصف التوراتي لجنة عدن والذي يشبه برأيها حديقة أشجار شرقية، وفيه " لقد أكرم الله يهوه بأن جعل جميع أنواع الأشجار تنبت من الأرض ،أشجار الفاكهة الصالحة للأكل والجميلة عند النظر إليها، وفي وسط الحديقة شجرة المعرفة للصالح والخبيث وشجرة الحياة " وفي وصف لاحق في التوراة أضيفت المياه اللازمة للحياة على شكل نبع مصدره جنة عدن و يتفرع إلى أربعة انهار خارجها، وفي هذه الحديقة تعيش الحيوانات والوحوش مع بعضها، وهو ما يشبه برأيها الحدائق الأشورية في تلك الفترة. (Gothein,2001, e-book).

وكانت الحديقة برأي جوتين "تعطي الكثير من الانتعاش من خلال الفواكه والظلال التي تعطي شعورا بالبرودة وتشير أيضا إلى السرد الوصفي الساذج في التوراة بقيام الله عز وجل بجولة بنفسه في الحديقة في برودة ساعات المساء".

أما الروايات التي يوردها التاريخ اليهودي فتشير إلى وجود العديد من الحقول والبساتين المحيطة بمدينة القدس، والتي كانت تزرع بالخضار والأشجار وأحيانا الأزهار إلا أن عقيدة الطهارة اليهودية منعت بناء الحدائق داخل أسوار المدينة المقدسة وسمحت فقط بزراعة الأزهار وفقا لماري لويس. .(Gothein،2001،e-book)

وتشير أيضا هذه الباحثة أيضا إلى أن اليهود تبنوا التقاليد الحثية المجاورة لهم في بناء الحدائق حيث كانت عبارة عن حدائق مغلقة بجدران بها أبراج صغيرة للحراس، وهو الأمر الذي حرمه كهنتهم لاحقا وعارضوه بشدة(لأسباب تتعلق بعقيدة الطهارة ومنع التشبه بالأغيار)، إلا أن حب هؤلاء للطبيعة لم ينقطع وفقا لجوتن وذلك واضح في أنشودة سليمان المتوارثة بما فيها من وصف للأزهار وروائحها .

4-2: الحضارات التي عاصرت الإسلام:

4-2-1: فلسفة الحديقة لدى أتباع الديانة المسيحية :

بحلول نهاية القرن الرابع الميلادي تبنت الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الدين المسيحي ليصبح الدين الوحيد للإمبراطورية (وذلك بعد أن تبناه الإمبراطور قسطنطين كدين رسمي للدولة مع إبقائه على ديانتها الوثنية كدين رسمي أخر قبل ذلك)، وكانت الإمبراطورية الرومانية في ذلك الحين تتمتع بالتقدم المعماري والثقافي الذي شمل الحدائق.

وبدأ فن الحدائق والعديد من الفنون الرومانية الأخرى بالتلاشي التدريجي في الفترة الرومانية المسيحية مع حلول مبادئ الدين المسيحي التي أعطيت الأهمية الكبرى على حساب السعي وراء المتع الأرضية، ولقرون طويلة أستمد المؤمنون المسيحيون قيمهم وأخلاقياتهم من كتابي العهد القديم والعهد الجديد، التي أمرتهم بالتخلي عن المتع الدنيوية .

ويشير كويل إلى أنه في"الدولة البيزنطية تم توجيه المهارات والحرفيين والفنانين إلى خدمة الأهداف الدينية، والتي ظهرت الحديقة (الجنة) فيها على شكل لوحات وتصويرات دينية، حيث زين العمال البيزنطيون جدران بعض الكنائس والكاتدرائيات بالفسيفساء إضافة إلى تزيين الكتاب والمبشرين كتبهم المقدسة بتلك الرسومات"، ويضيف كويل: " لقد مثلت المناظر الطبيعية في تلك الفترة بشكل خام تقليدي كرموز لأشجار ونباتات، وأنه لربما وجدت بعض الحدائق بسبب وراثة البيزنطيين تراث ثقافي كبير مشتق من الإغريق والإمبراطورية الرومانية، إلا انه لا يوجد دليل متبقي أن هؤلاء امتلكوا أو تمتعوا بحدائق جمالية مثل تلك التي كان يملكها الأثرياء الرومان." (Cowell , 1978, P:63).

وتشير رسائل الرهبان في بداية القرن الخامس حول أجزاء من فرنسا الحالية (بلاد الغال) إلى فقدان الدولة الرومانية قوتها السياسية والعسكرية، وإلى حدوث انقطاع بين الشعوب في هذه المناطق والحضارة الرومانية، وتراجعا حضاريا دام لفترة طويلة بما رافقه من حروب ودمار، مع بقاء المعلم الحضاري الوحيد في تلك الفترة الكنيسة المسيحية التي بدأت بالتشكل.

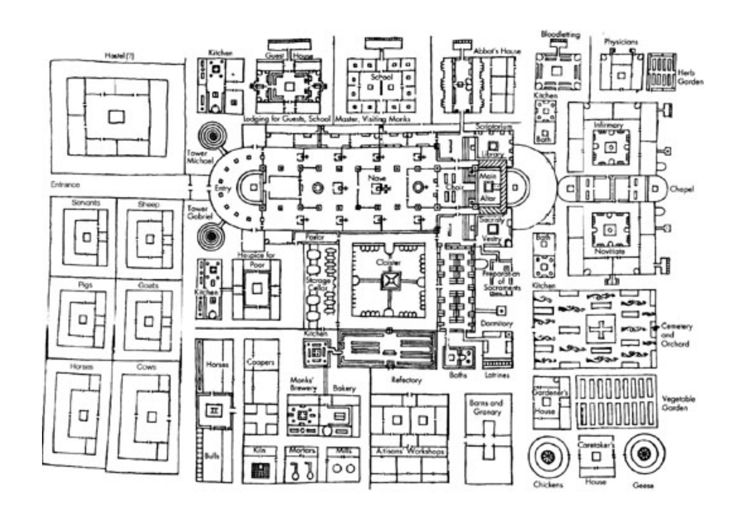
أما في بداية القرن السادس فقد دخلت الكنيسة المسيحية إلى بريطانيا (بعد حوالي قرنين من خروج الرومان منها)، واتجهت الكنيسة إلى السيطرة التدريجية على الأراضي الزراعية، وبدأ الأمر باستغلال الأراضي المحيطة بالكنيسة لأغراض زراعة الأغذية، الأمر الذي تطور لتصبح أكثر من ثلث أراضي بريطانيا تحت سيطرة الكنيسة بحلول منتصف القرن الثامن الميلادي .

يشير كويل إلى وجود وثائق تعود للقرن التاسع الميلادي تحدد طبيعة الحدائق الكنسية، حيث بدأت بعض الاهتمامات الثقافية بالظهور بأوروبا بشكل متفاوت، أحدى هذه الوثائق هو مخطط كاتدرائية بندكتين وحديقتها المسماة (St. Gall) في جنوب غرب ألمانيا.

وبدأت بعض الحدائق الصغيرة المغلقة تظهر داخل حدود الكنائس، والتي كانت تزرع ببعض الأشجار المظللة وكانت عادة أشجار فاكهة وبعض الأزهار والأعشاب، بينما خصصت الأراضي

بمحيط هذه الكنائس لزراعة الخضراوات والفواكه والحبوب، والتي على ما يبدو جاءت لتحقيق الاكتفاء الذاتي وليس لهدف روحاني أو ديني.

وتظهر صورة هذه الحدائق بوصف الشاعر ابوت (Abbot) في قصيدة أهداها لذكرى معلمه: "أستطيع أن أتخيلك جالسا هناك في تلك الحديقة الخضراء المغلقة، تحت ثمرات التفاح المتدلية في ظلال الأشجار، حيث شجرة الخوخ ترسل أوراقها في كل اتجاه بحثا عن الشمس ، بينما يجمع لك طلابك المسرورين الفواكه بالانحناء للأسفل والتقاط حبات التفاح الكبير".(Cowell,1978,P:79).



شكل(4–3): مخطط كاتدرائية بندكتين (St. Gall)، ويوضح قسمة الحديقة إلى مساحات لزراعة المحاصيل المختلفة.
المصدر : (Jellicoe ,1975, P:142)

ويرى كويل "أن هذه الحدائق البسيطة في النوع في زمن ثقافي مثالي، عندما كانت المتع الحسية معروفة لكن مكرسة لخدمة الأهداف الدينية"، ويضيف أيضا " أن الحدائق المخصصة للمتعة الواضحة والبسيطة غابت لقرون طويلة " ،(Cowell , 1978,P:79).

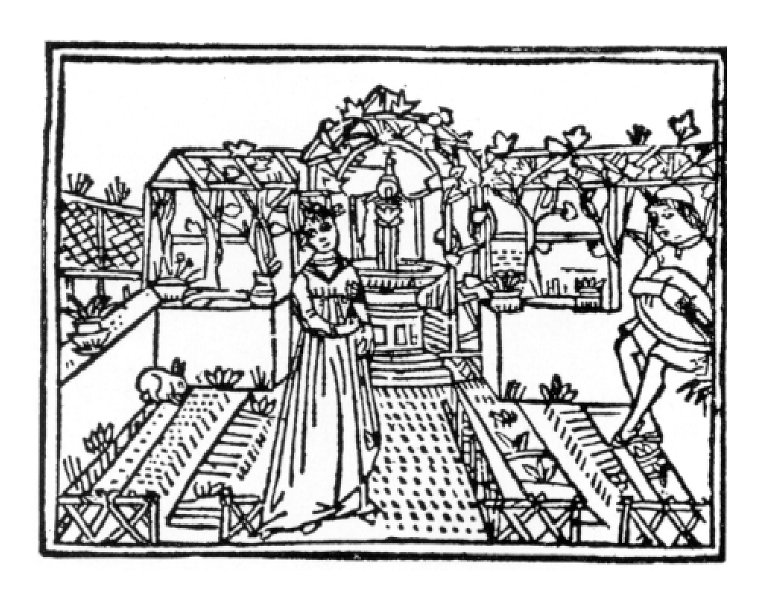
ويرى جوليكو وسوزان :" أنه تحت الحكم الكنسي لم يعد هناك مخطط مثالي يطبق على العالم المحيط (كما فعل الرومان) لكن اقتصر فقط على العالم المغلق للمجتمع "،ويضيف أن الكنيسة لم تعبر عن نفسها من خلال الحدائق لكن من خلال المستوى الحضري المتمثل بالبازاليكا، التي حملت بالرموز، ومثلت هذه الكنائس منذ القرن السادس الميلادي ".

ولم يبدأ تطور الحدائق والمنازل في أوروبا من جديد إلا بعد نهاية عصور أوروبا المظلمة بانطلاق الثورة الصناعية وتراجع الدور الكنسي، ويرى جوليكو: "أن الكنائس هي الصلة الوحيدة التي بقيت مع ما يعتبر الآن تاريخ كلاسيكي رائع ". (Jellicoe ,1975, P.P.: 142-147).

لقد بدأت الحدائق الجمالية عند المسيحيين بالظهور في بداية القرن التاسع الميلادي على يد الحكام من الملوك والإقطاعيين، وأول حديقة معروفة من هذا النوع هي حديقة **(Capitulare de Vills)** التي بناها الملك الألماني شارلمان عام 812م، إلا أن هذه الحدائق تميزت بالغالب بصغر ومحدودية مساحتها وافتقارها للتنوع، حيث بدأ معظمها كحدائق أعشاب، وساعد على ذلك إحاطه المدن بأسوار ومحدودية المساحة المتوفرة داخلها وهو ما استمر حتى بداية عصر النهضة.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي والذي ترافق بتغيير على المستوى الثقافي والاجتماعي بدأت الحدائق بالتطور، وبدأ تراجع الدور الكنسي واتجاهه للانعزال، وذلك على الرغم من أن الكنيسة في القرن الثالث عشر كانت لا تزال تسيطر على الجزء الأكبر من اقتصاد أوروبا وبريطانيا ،وكان هذا التطور الذي أطلق بدايات عصر النهضة متفاوتا من منطقة إلى أخرى، فبريطانيا مثلا لم تصل إلى مستوى التطور الحاصل في ايطاليا في القرن الثاني عشر إلا بعد 200 عام تقريبا .

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر تطورت الحدائق من ناحية المساحة والنوع والوظائف مع اتجاه الإقطاعيين والكنائس للبناء خارج أسوار المدن المحصنة، واختيارهم مواقع البناء على جوانب الينابيع والأنهار وفي المناطق السهلية، كما بدء إثراء الحدائق بأنواع مختلفة من النباتات والأزهار الجديدة والأزهار المتسلقة التي تميزت بها الحدائق البريطانية .



شكل (4-4) :   تصور لحديقة Capitulare de Vills،

المصدر :(Heise, 2004, www.gallowglass.org)

كما ظهرت العديد من الحدائق التي تحوي الدلالات الرمزية الدينية وهو ما يؤكده جوليكو وسوزان بالقول :" أن الحدائق المثالية في القرون الوسطى هي حدائق ربانية للمشي بداخلها ومغلقة بجدران عالية تحيط بها، وكانت رمزية"، وهو ما تصوره مخطوطة حديقة الجنة التي رسمت لإقطاعي من الراين في القرن الخامس عشر. (Jellicoe ,1975, P: 147).

وكان الاتجاه العام لعصر النهضة مختلفا عن سابقه، فعلى الرغم من تأثر الحدائق الأوروبية وخاصة الايطالية في القرن الثالث عشر بالحدائق الإسلامية في الأندلس من ناحية التصميمات الهندسية، والذي يظهر من خلال التشابه في العديد من العناصر المعمارية وحتى في شكل المخطط الأفقي أحيانا، إلا أن التأثير الأكبر كان للزخارف الهندسية والقواعد الرياضية لتصميمها، فقد كانت القواعد الهندسية مصدر الهام فناني عصر النهضة، واعتبروها تعود إلى جذورهم الرومانية، حيث انشغلوا في عملية إعادة استكشافها، ويؤكد أد بينيس (Bennis) ذلك بقوله:"رغم تأثر بنية الحدائق الغربية المبكرة كثيرا بالحضارتين الرومانية والفارسية (الإسلامية) إلا أنها لم تطور أبدا تعبيرات رمزية للمثاليات الدينية كما فعلت الحدائق تحت الإسلام ". (Bennis, 2006, P:9).



شكل (4-5): مخطوطة حديقة الجنة ،

المصدر : (Jellicoe ,1975, P:146)

وكما يؤكد ذلك أيضا كريستوفر ماكنتوش(McIntosh) بقوله : "إن حدائق عصر النهضة الخاصة بالأمراء والنبلاء لم تحوي على أي مضامين رمزية للديانة المسيحية وعلى النقيض من ذلك كانت تحوي رموزا ومنحوتات تمثل الآلهة الإغريقية القديمة "، ويضيف:" إلا أن هذه الحدائق شهدت ميلا تقليديا واضحا لاستخدام الأفنية الداخلية المغلقة في تصميماتها وهو ما يعود في نظرهم إلى تمثيل العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، ويبدو أن هذا التقليد تسرب بشكل غامض إلى أوروبا منذ بداية القرن الثاني عشر من العالم الإسلامي من خلال التجار والصليبيين العائدين إلى أوروبا"، و يؤكد أن العديد من حدائق النبلاء في تلك الفترة تأثرت بشكل واضح في تصميمها بحدائق الجنة الإسلامية، (McIntosh, 2004, P.P.:47-50).

2-2-4:فلسفة الحديقة لدى الصينيين:

لدراسة الحدائق في الحضارة الصينية أهمية كبيرة للباحثين في مجال الحدائق الإسلامية، فعلى الرغم من البعد الجغرافي والاختلاف الثقافي، إلا أن الصينيين اهتموا في عمارتهم بالرمزيات، بل أنهم وفقا للعديد من الباحثين مثل جوليكو وادبينيس صمموا حدائقهم لتمثل الجنة، وهو ما يتشابه مع فكر المجتمعات المسلمة في تصميم الحدائق .

حيث تأثرت الحدائق الصينية بالعديد من الأديان والمعتقدات، أهمها الطائية والبوذية، حيث يعتقد الصينيون أن الإنسان خلق من الأرض مثل الجبال والأزهار، ولذلك فهو جزء منها بالروح، ونشأت الفنون الصينية وتطورت من خلال فن الكتابة الصينية، والذي هو عبارة عن فن تصويري يخاطب العقل لا العين .

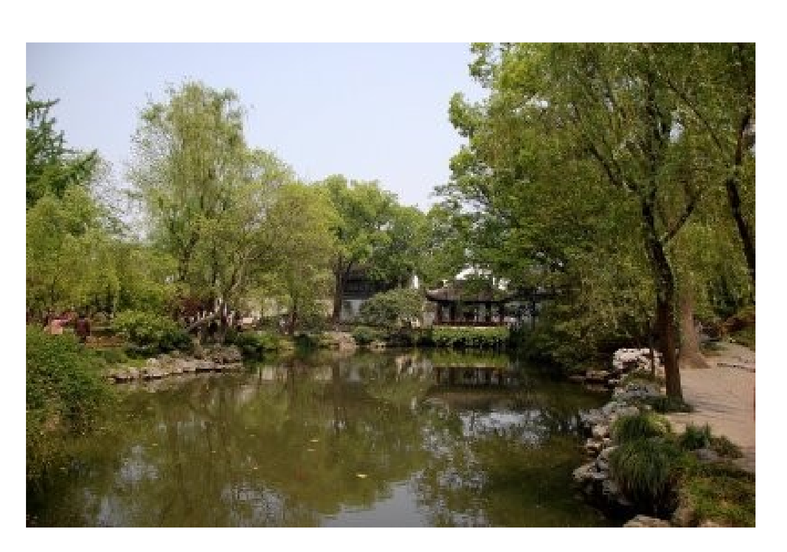
والعمارة والفنون الصينية مليئة بالرمزيات التي تعبر عن معتقداتهم، وهو ما يؤكده المعتقد الطائي من خلال مقولة مشهورة من أحد المعلمين لتلامذته:" لا ترسم حتى حجرا بدون الروح" (Jellicoe,1975,P:69)،والطائية تعني الطريقة التي يجب أن يعيش بها مختلف البشر، أي أن يعملوا ويموتوا وفقا لقوانين الطبيعة التي نظمها اله الجنة، و يضاف إلى ذلك حاجة البوذيين إلى تعبير معماري مختلف يمثلون به بوذا، الأمر الذي أدى إلى تطور طراز معماري خاص بالصين، والذي كما يرى جوليكو وسوزان:" ما أن تطور هذا الطراز حتى أصبحت التغييرات الطارئة عليه بسيطة جدا " (Jellicoe,1975,P:69) .

وينظر الصينيون في معتقدهم إلى الجنة على أنها دائرية الشكل بينما ينظرون إلى الأرض على أنها مربعة الأمر الذي انعكس على عمارتهم للمباني والمدن التي اتخذت أشكالا هندسية مستقيمة ومحورية كممثل لأمور الحياة الأرضية، بينما جاءت حدائقهم بشكل يحاكي الطبيعة وبخطوط عضوية تمثيلا للجنة, ويؤكد اد بينيس (Bennis) أن "كلاً من الحدائق اليابانية (المعروفة بحدائق القمر وتعتبر تطبيقا لاحقا لأسس الحدائق الصينية) والحدائق الصينية أخذت إلهامها من الطبيعة ". (Bennis, 2006,P:7).

وتعتبر الصخور والتلال والجبال أهم عناصر المظاهر الطبيعية في الحدائق الصينية حيث تمثل طاقة اليانج الذكورية والماء غير المتحرك الذي يمثل طاقة الين الأنثوية، وتقوم الحديقة على إيجاد التوازن بينهما.

وعلى الرغم من أن الحضارة الصينية يعود ازدهارها إلى أكثر من 3000 عام قبل الميلاد، إلا أن الفترة الذهبية لهذه الحدائق وفقا لأيد بينيس "كانت تحت حكم سلالة اليونج بين عامي 1127م و1279 م، حيث يؤكد أن الطبيعة فيهما مثلت بعنصرين أساسيين الماء والصخور التي حسنت بالنباتات والحيوانات خاصة الطيور".

ولم يتبقى أي اثر لحدائق هذه المرحلة إلا كوصف في المصادر التاريخية والأدبية، ومعظم الحدائق الصينية المتبقية حاليا تعود للقرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين حيث تقوم على نفس المبادئ مع بعض التطور.



شكل (4-6) : صورة لحديقة زهوزنج يوان(Zhuozheng Yuan) التي تعد من اكبر أربع حدائق تقليدية في الصين، المصدر : (Zhuang, 2008,P:1).

وخلاصة القول أنه رغم التشابه الكبير في المنطلقات الفكرية للحضارتين الصينية والإسلامية في تصميم الحدائق من خلال الاهتمام بالرمزيات ومحاولة تصوير الجنة، إلا أن المنتوج كان مختلفا تماما، حيث حاكت الحدائق الصينية الطبيعة بينما أعتمد المسلمون على الأسس الهندسية في تصميماتهم بينما لم تستخدم الرمزيات الدينية وصور الجنة في الحضارة المسيحية في تصميم الحدائق وبقيت تقتصر على اللوحات الفنية والرسومات، وذلك على ما يبدو عائد الى الاختلاف في الثقافة من حضارة إلى أخرى، وعلى ما يبدو فان فكرة تصوير الجنة في الحدائق والفنون المختلفة تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة، وان الأهتمام بالحدائق وإنشائها هو أمر راسخ في ثقافة شعوب المنطقة .

3-4: الحديقة في الحضارة الإسلامية:

لم تظهر الحضارة الإسلامية من العدم، فقد عرف عرب الجاهلية الذين شكلوا نواة المجتمع المسلم فيما بعد الزراعة، فزرعوا البساتين والحقول بالعديد من أصناف الأشجار والفواكه والحبوب، وعند بعث الرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة حض منذ البداية على تطوير الزراعة ،وحولت السياسة التي اتبعها المدينة المنورة إلى واحة خضراء في وسط الصحراء المحيطة، ثرية ببساتينها وآبارها .

وهو الأمر الذي تطور في فترة الخلافة الأموية التي استتب فيها الأمن وازدهر اقتصادها، فظهرت أولى الحدائق التي زرعت لأهداف جمالية، بما تحويه من عناصر تحقيق الخصوصية والبرك والأشجار والزخارف، وتطورت الحدائق في عصر الخلافة العباسية، لتزداد مساحتها إلى مقاييس جديدة غير معهودة، وبرز نمطين من الحدائق الملكية هما شبه العام والخاص، وأدخل العباسيون عناصر معمارية جديدة لأول مرة أبرزها المقصورات .

واستمر التطور في العصور اللاحقة، فظهرت أنماط مختلفة من الحدائق الجمالية في الأندلس ولم تعد مقتصرة على الملوك والنبلاء، وتطورت العناصر المعمارية والزخرفية و الأثاث والأدوات المستخدمة بداخلها، وإن بقيت حدائق هذه الفترة محصورة ضمن ما يعرف بالأفنية الداخلية وذلك على ما يبدو مرتبط بأسباب التكييف البيئي .

وشهدت عمارة الحدائق في إيران والهند (تحت حكم المغول) بروز مفاهيم وأبعاد جديدة للحدائق تبعا لتغير البعدين الثقافي والمناخي ،فبرز نوعان أساسيان من الحدائق ،الأول الحدائق الملكية بما تحويه من تدرج من العام إلى الخاص وحدائق المدافن والمزارات شبه العامة .

وقد تميزت الحدائق في هذه الفترة بالمساحات الضخمة التي شغلتها وخروجها من أطار الفناء الداخلي ،وإن بقيت مغلقة بجدران تحيطها، حيث أصبحت المباني جزءا من الحدائق بعد أن كانت الحدائق جزء صغير من المباني، واستخدمت العديد من العناصر المعمارية وخصوصا الماء بأبعاد جديدة لم تعهد من قبل في المجتمعات الإسلامية.

وقد بلغت الحدائق أوج تطورها ببروز المدن الحدائقية ، والتي تمثلت بمدينة أصفهان في إيران.

4- 4: تصوير الجنة في الفنون الإسلامية المختلفة :

تطورت الرمزية في الفنون الإسلامية المختلفة واكتسبت أهمية كبيرة في الحياة اليومية للناس ،ولم تقتصر رمزية الجنة على الحدائق بل شملت معظم الفنون لدى المجتمعات المسلمة، من الفنون اللغوية إلى الزخارف الهندسية والنباتية وفنون الخزف والسيراميك والسجاد وحتى الخط العربي (استخدمت الحروف أحيانا، بحيث أعطيت قيم معينة بالأرقام بحيث تشير جملة معينة إلى تواريخ معينة) .

وهو ما يؤكده احمد الدباغ بقوله : " إن الوصف الواضح للجنة في القرآن الكريم زود الفنانين على مدى التاريخ بواحد من أهم المعاني المؤثرة على الحواس البشرية وكرسائل دينية .

.(El Dabaa, 1998, P: 70)

4-4-1 : فكرة الجنة في الفنون اللغوية :

لم يقتصر وصف الجنة على القرآن الكريم الذي يعتبر معجزة لغوية عربية ،ودليلا على المستوى الفكري لمن يخاطبهم وسعة إطلاعهم على المصطلحات والمفردات حيث من غير الممكن أن يخاطبهم بلغة ومفردات لا يوجد لديهم فهم مسبق لها ، وانعكس وصف الجنة لاحقا ليشمل الشعر(تم تناوله في باب المفهوم اللغوي) والأدب العربي اللذان زخرا بالوصف المفصل للجنة والتي من أبرزها قصيدة للإمام أبن القيم الجوزية بعنوان النونية مكونة من ستة آلاف بيت تنتهي جميعا بحرف النون وأفرد فيها حيزا كبيراَ للجنة وصفتها ،ومنها:

يا خاطب الحور الحسان وطالبا	لوصالهن بجنة الحيوان
أسرع وحث السير جهدك إنما	مسراك هذا ساعة لزمان
هي جنة طابت وطاب نعيمها	فنعيمها باق وليس بفان
وبناؤها اللبنات من ذهب	وأخرى فضة نوعان مختلفان
سكانها أهل القيام مع الصيام	وطيب الكلمات والإحسان
للعبد فيها خيمة من لؤلؤ قــد	جوفت هي صنعة الرحمن
أنهارها في غير أخدود جرت	سبحان ممسكها عن الفيضان
من تحتهم تجري كما شاءوا	مفجـــــرة وما للنهر من نقصان
ولقد أتى ذكر اللقاء لربنا	الرحمن في سور من القرآن

وهنالك عدد كبير من الكتب التي تتناول الجنة ووصفها وفقا لما جاء في القرآن الكريم والسيرة النبوية ومنها كتاب نعيم الجنة لزهير حميدات، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح للإمام ابن القيم الجوزية.

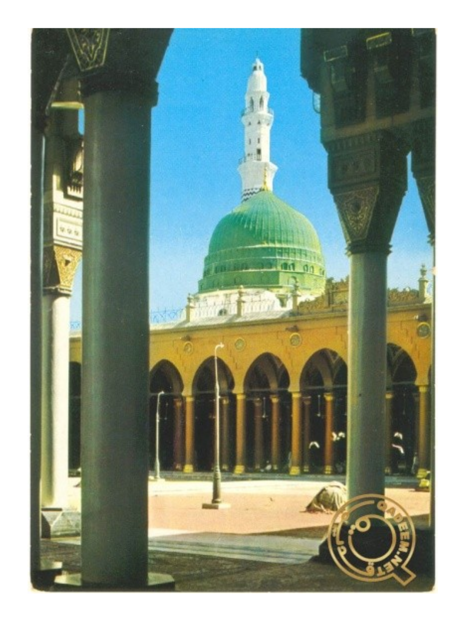
4-4-2: فكرة الجنة في العمارة الإسلامية :

حملت العمارة في المجتمعات الإسلامية في طياتها العديد من المضامين الرمزية، والتي يعتبر المسجد الممثل الأول لها ،وهو ما يؤكده أحمد الدباغ بقوله:" إن الأعمدة في المساجد التقليدية ((والتي في كثير من الأحيان كانت تنتهي بتيجان على شكل سعف النخيل)) التي تصطف على شكل غابة، هي تشبيه رمزي للجنة ،بينما تشكل القبة التي تغطي المساجد تمثيلا للقبة التي تغطي الجنة "
(El Dabaa, 1998, P: 70)، وقد ارتبطت هذه الفكرة بتسمية مرقد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمغطى بقبة بالروضة النبوية الشريفة، (وفقا لما جاء بالسيرة النبوية أنها روضة من رياض الجنة)، بل ان لونها الأخضر الذي انتشر ليغطي العديد من قباب المساجد الإسلامية جاء على ما يبدو تطبيقا لوصف الجنة في السيرة النبوية الذي يشير وفقا لزهير حسن حميدات في كتابه نعيم الجنة "أن مكان اجتماع المؤمنين في الجنة هو أسفل قبة خضراء في الفردوس الأعلى"،(حميدات،2001 ،ص 92).

واستخدم العثمانيون غالبا القباب البيضاء المحمولة على قواعد ثمانية الأضلاع، وهي إشارة رمزية إلى بيوت المؤمنين في الجنة، حيث تشير الأضلاع الثمانية إلى أبواب الجنة الثمانية بينما تشير القبة البيضاء إلى اللآليء المجوفة التي ورد ذكرها في السنة النبوية، وهو ما يؤكده الحديث النبوي الوارد

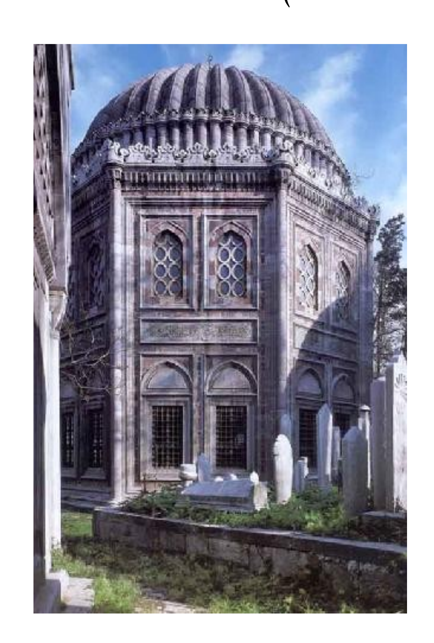
في صحيح مسلم وفقا للحافظ ضياء الدين المقدسي في كتابه صفة الجنة وفيه: "عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا ".

(المقدسي،2002 ، ص12).



شكل (4–7) : صورة لقبة الروضة النبوية الشريفة ،

المصدر : (www.arabsts.com)



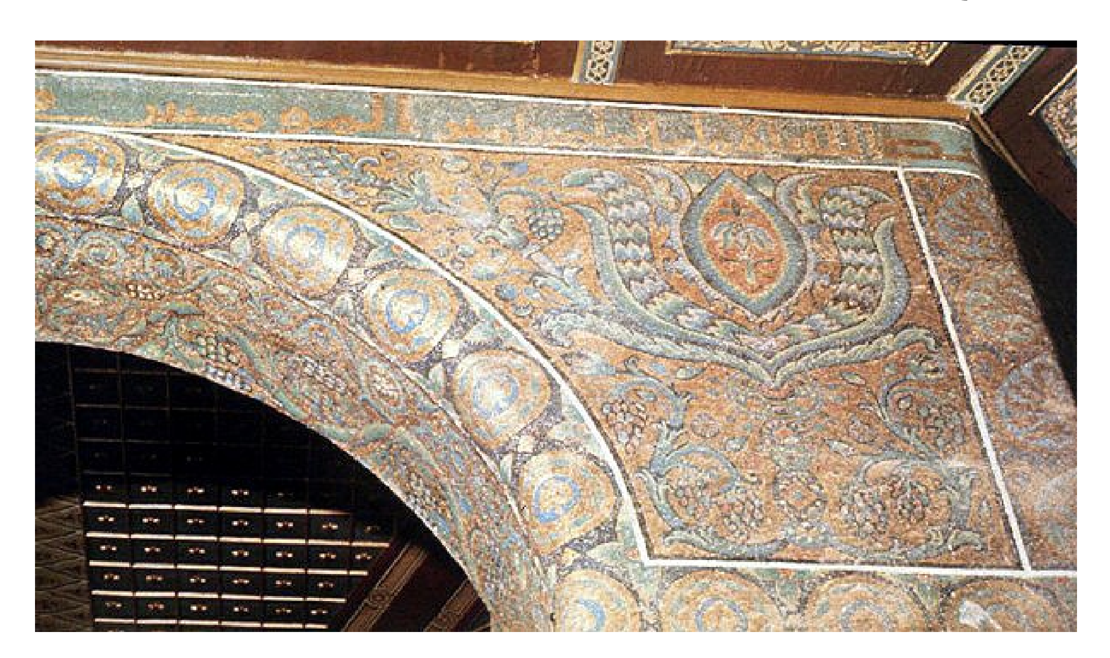
شكل (4–8): صورة لمرقد (The Sehzade Mehmet mausoleum) في اسطنبول يعود إلى عام 1548، من تصميم المعمار العثماني سنان .

المصدر : (http://www.turkishculture.org)

4-4-3 : فكرة الجنة في الزخارف و الفسيفساء والمصورات :

لقد اتخذت الزخارف في العهد الإسلامي منحيين أساسيين ،الزخارف الهندسية والتي كانت في الغالب تجريد هندسي متكرر ومتتالي لأزهار وورود، والزخارف النباتية التي صورت فيها النباتات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فغلب عليها عروق وأوراق العنب وأشجار الزيتون والرمان والنخيل والتين وأحيانا البرتقال .

ولقد أستعرض المسلمون إضافة إلى ذلك مهاراتهم الزراعية والتي منها وسائل تكثير بعض أنواع الأشجار والنباتات ،وهو ما يؤكده فان بيرشم (Max Van Berchem) من خلال عرضه وتحليله لمجموعة من زخارف الفسيفساء في سقف قبة الصخرة في بيت المقدس تحوي رسوما لأشجار نخل وزيتون توضح عملية التكثير بالفسيّلات.(Van Berchem , 1969,P:++).

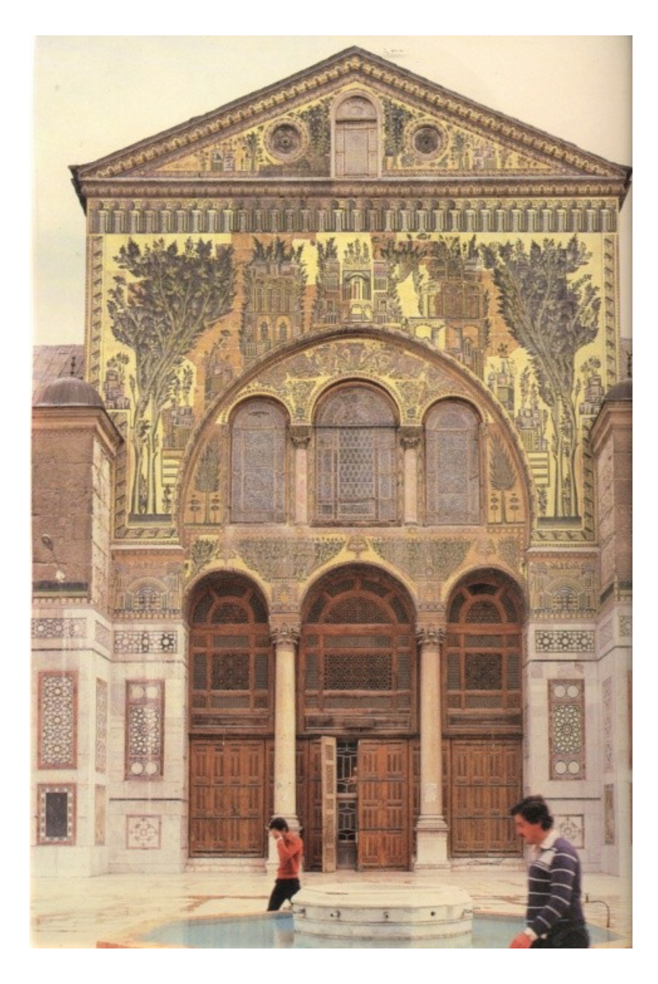


شكل(4-9) : صورة لجزء من الموزاييك داخل قبة الصخرة ،
المصدر : (http://www.oberlin.edu)

وتعد الفسيفساء التي تغطي جدران المسجد الأموي الكبير بدمشق احد أهم الأمثلة على تصوير الجنة، ويشير عدد من الباحثين ومنهم عفيف بهنسي في كتابه (The Great Omayyad Mosque of Damascus) إلى وجود عدة نظريات لتأويلها، ومنها أنها تمثل مجرد تصوير للبيئة المحيطة في حينه أو تصوير للمدن التي فتحها الأمويون وحكموها (وهي النظرية التي تبناها بهنسي) .

و**النظرية الثالثة** التي تقول أنها تمثل تصويرا للجنة وهي التي تؤكدها عدة نقاط ترد في نفس الكتاب وهي :

أن الفسيفساء الموجودة تصور المباني والمدن بشكل رمزي لم يتمكن أي من الباحثين من تحديد كونها ترمز إلى مدن بعينها، لاسيما بوجود عناصر نباتية مذكورة بالقرآن مثل فسيفساء بشكل أوراق العنب تغطي إفريز طويل في جدار المسجد الشرقي، بالإضافة إلى أشجار بمقاييس ضخمة مقارنة مع هذه المنازل والمدن تتماشى مع وصف أشجار الجنة في السنة النبوية .



شكل : (4–10): صورة لفسيفساء مدخل قاعة الصلاة الرئيسي بالمسجد الأموي،
المصدر: (بهنسي،1989،ص: 92).

وعلى الرغم من تعرض المسجد الأموي على مدى التاريخ لعديد من الكوارث مثل الزلازل والحرائق، التي أدت في كل مرة وفقا للروايات التاريخية إلى تدمير أجزاء كبيرة من الفسيفساء، ألا أنه تم أعادة ترميمها في كل مرة من قبل الحرفيين سواء باستخدام نفس الأحجار الملونة والمذهبة أو

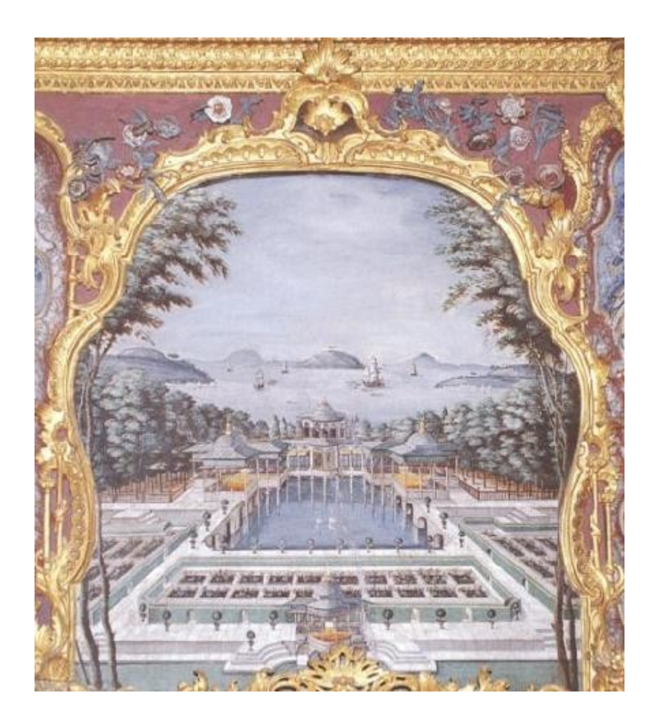
باستخدام الأحجار السورية الصفراء في فترات لاحقة، وقد حدثت أخر عملية ترميم كبيرة من هذا النوع في عام 1959 .

والمهم هنا هو ما يؤكده عفيف بهنسي من" أن الحرفيين لم يتقيدوا بإعادة الفسيفساء كما كانت بل كونوا تشكيلات جديدة ورسومات جديدة إلا أنها بقيت جميعا ضمن نفس النمط ".
(بهنسي،1989،ص: 135–144).

كما وشهدت المصورات تصوير العديد من جوانب الحياة في تلك الفترة، والتي عادت للظهور في أعمال إخوان الصفا في القرن الثالث الهجري وانتشرت بكثرة في الفن الفارسي والمغولي والعثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.



شكل(4–11): صورة لفسيفساء في المسجد الأموي الكبير بدمشق،
المصدر: (بهنسي،1989،ص: 87).



شكل (4–12): لوحة جداريه في قصر (Topkapı Sarayı) في تركيا تعود للقرن19 م توضح إحدى الحدائق الملكية والمقصورات ،

المصدر :(http://www.turkishculture.org)

وتلك الرسوم تصور جوانب الحياة داخل البيوت والقصور والحدائق التي شهدتها تلك الفترة، بل وفي بعض الأحيان عملية تخطيط الحدائق والتوجيهات التي أعطاها الملك للحرفيين والعمال.

4–4–4: فكرة الجنة في السجاد و المنسوجات :

تطور فن غزل السجاد في العديد من المجتمعات الإسلامية وأشهرها إيران، وتعود أقدم قطع السجاد المتبقية إلى القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أن مستوى الحرفية الظاهر فيها يشير إلى فن عريق يعود إلى قبل ذلك بكثير، واستخدم النساجون وصف الجنة في تشكيل سجاداتهم وهو ما يؤكده أحمد الدباغ بقوله:" إن أي منا قد يملك سجادة تمثل تجريدا للجنة دون أن يدري".

.(El Dabaa, 1998, P: 70)

والناظر إلى التصميمات المختلفة للسجاد يرى التشابه الكبير بينها وبين الحدائق التي عرفتها تلك المجتمعات، وتتبع في الغالب تصميمين أساسيين :

1) **التصميم على الطراز المملوكي** : والذي يتضح من خلال رسم تجريدي لبركة في المركز تتشكل في الغالب من دائرة متداخلة مع مربع أو مربعين متداخلين، بحيث تعطي الانطباع بعدم

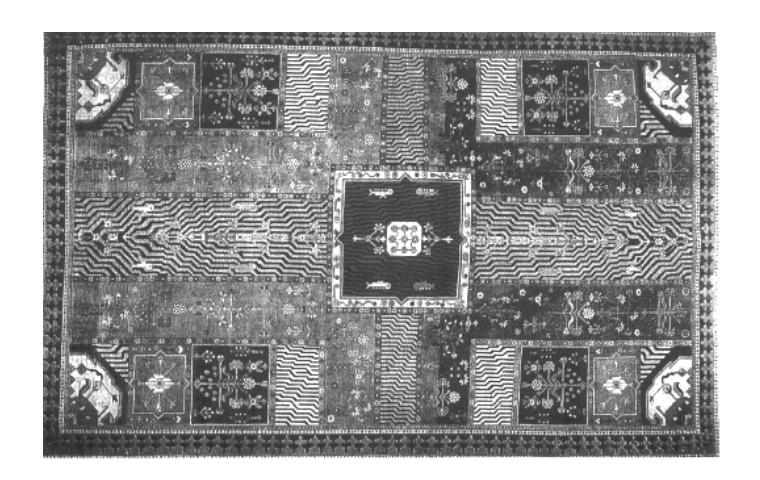
الاكتمال وتشكل ثمان رؤوس تشير إلى عدد أبواب الجنة ويتوزع حولها أزهار وأشجار بالإضافة إلى أطار زخرفي يرمز إلى السور.



شكل (4–13) : سجادة فارسية على الطراز المملوكي تعود للقرن 17 م وهي من مجموعة (McMillan ,NewYork).

المصدر : (El Dabaa, 1998,P: 71)

2) **التصميم على طراز المحاور المتعامدة:** ويحوي على بركة مربعة أو مضلعة في الوسط يخرج منها محوران متعامدان يمثلان انهار الجنة الأربعة، وتتشابه مع التصميم الآخر من حيث توزيع الأشجار والأزهار ،مع ظهور نماذج مختلفة من هذا التصميم، أكثرها بساطة يقتصر على محورين أساسيين و ينتهي بالتقسيم المحوري المتكرر الذي تميزت به الحدائق الفارسية ما بعد القرن الخامس عشر، كما ظهرت تصميمات أخرى في نفس الفترة بإيران تصور الجنة ورحلة الإسراء والمعراج.



شكل (4–15): سجادة فارسية صغيرة تعود للقرن 17 م،

المصدر : (El Dabaa, 1998,P: 73).

وفي الخلاصة أن حب المسلمين للطبيعة والحدائق حب فطري تعمق في ثقافتهم وشؤون حياتهم اليومية، فظهر تصوير الجنان والحدائق في مختلف الفنون الإسلامية، واكتسبت الحدائق لدى المسلمين مفاهيم ووظائف جديدة مختلفة عن وظائفها ومفاهيمها في الحضارات الأخرى، إلا أن هذه الحدائق والفكر الذي يقف خلفها لم يظهر من العدم بل كان نتاجا لسلسلة طويلة من التطور عبر الفترات الإسلامية المختلفة، وهو الأمر الذي يعطي دراسة الأصول المعمارية للحدائق في الحضارة الإسلامية والنظريات التي وضعها الباحثون حولها أهمية كبيرة وهو ما سيناقشه الفصل الخامس.

الفصل الخامس

الأصول المعمارية للحدائق عند المسلمين

5-1: نظرية الأصول الفارسية.

5-1-1: فارس قبل الإسلام.

5-1-2: فارس ما بعد الإسلام.

5-2: الشكل الرباعي.

5-3: الخطوط المتعامدة.

الفصل الخامس

الأصول المعمارية للحدائق عند المسلمين

هنالك عدد من النظريات حول الأصول المعمارية للحدائق عند المسلمين وأكثرها تكرارا من قبل الباحثين المستشرقين هو نسبة الأصول المعمارية لهذه الحدائق إلى الحضارة الفارسية، حتى أصبح مصطلح الحدائق الفارسية هو ما يطلق على الحدائق التي صممتها المجتمعات الإسلامية المختلفة، متجاهلين التطور التدريجي لهذه الحدائق والتطور الكبير في عناصرها على المستويين المعماري والرمزي.

5-1:نظرية الأصول الفارسية:

تعتبر الحديقة في فارس أكثر الحدائق الإسلامية إثارة للجدل حيث يشير العديد من الباحثين إلى الحدائق على امتداد العالم الإسلامي على أنها فارسية الأصل والطراز أو من خلال وضعها ضمن امتداد الحدائق الفارسية، معتمدين في ذلك على عدة أمور من أهمها شيوع التصميم المحوري (المحاور المتعامدة)، ذلك بالإضافة إلى التعريف غير الدقيق لبلاد فارس بتاريخها وحدودها، ويلاحظ أن أد بينيس(Ed-Bennis) يقول :"إن بلاد فارس التاريخية كانت تتألف من ما يعرف الآن بإيران والعراق وسوريا "، متجاهلا العديد من الحقائق التاريخية مثل تسلسل التطور الطبيعي للحدائق، وتاريخ وحضارة وهوية الشعوب التي سكنت تلك المناطق والتي لم تكن جزء من دولة فارس الساسانية إلا أنها وقعت تحت سيطرتها لفترات تاريخية محدودة. (Bennis,2006 , p: 5)

5-1-1: فارس قبل الإسلام :

وللوقوف على حقيقة الأمور لابد من العودة إلى جذور الحضارة الساسانية الفارسية ما قبل الإسلام (224-641 ق . م) والتي تشير ماري لويز إلى أن الفرس ورثوا ثقافة وحضارة ما بين النهرين واستمروا بتطوير الحدائق والعديد من الأمور الأخرى بخطوط مشابهة لما ورثوه، حيث أحضروا معهم حبهم واحترامهم للأشجار، التي لعبت دورا هاما في دينهم حيث مثلت الحياة الأبدية بشجرة يجري من بين جذوعها نبع ماء". (Gothein ,2001,e- book)

كما آمن الفرس بوجود شجرة معجزة مقدسة تحوي بداخلها على بذور الكل ولذلك تشير ماري لويز" إلى أن زراعة الأشجار كانت مهنة مقدسة لدى الفرس"، ووفقا لسترابو" كانت أيضا جزء من

تعليمهم حيث كان الفتيان يتلقون التعليمات حول هذا الفن في المساء وبذلك تعمقت هذه الثقافة في جميع طبقات المجتمع الفارسي في حينه" . (Gothein ,2001,e- book).

وتشير الروايات التاريخية المتعددة إلى أهمية الأشجار في المجتمع الفارسي قبل الإسلام الأمر الذي يتضح من خلال الرواية التاريخية التي توردها ماري لويز حول حملة الملك بلوتراش (Plutarch of Artaxerxes) على الملك الفارسي قادوس(Cadusii) والذي حوصر بالقرب من قصره في سهل مزروع بالأشجار ويحوي حدائق كبيرة وكثيفة ومحاطة بعناية كبيرة، وتشير الرواية إلى وقوع المعركة في الشتاء والبرد وبالإضافة إلى حاجة الجيش إلى الأخشاب للتدفئة، فأمرهم الملك بقطع الأشجار فرفضوا في البداية خوفا واحتراما لقدسية هذه الأشجار إلى أن قام الملك بنفسه بقطع أحداها تشجيعا لهم، وتفيد هذه القصة وفقا لماري لويز إلى الحجم الهائل لهذه الحديقة مستدلة على ذلك من حجم الجيش الذي احتمى فيها وعدده 130 ألف مقاتل.

ووفقا لماري لويز ودانيش دوست(Daneshdoust) كانت هذه الحدائق تستخدم كمساحات للصيد والتدرب على ظهور الأحصنة وهو ما تشير إليه الروايات والبقايا الأثرية للمباني، كما كانت هذه الحدائق تزرع بأشجار الفواكه لتوفير الغذاء (وهو الأمر الذي يعود للفترة الأشورية) ويستدل من خلال حجر الكرستال المقطوع بعناية ويمثل الملك داريوس وهو يصطاد في بستان من النخل والذي يبدو أنه كان جزءاً من الريف المفتوح .

وهذا يتناقض مع تفسير(Aj –Arberry) لكلمة فردوس (Paradise) الفارسية "بأنها تعني الحديقة المسورة(walled enclosure) "، حيث أن المساحات التي تتطلبها عملية الصيد شاسعة ولا يمكن تسويرها، (Arberry, 1976,P.P: 259-291)، إلا أن إحاطة هذه المساحات بالأشجار هو على ما يبدو من الروايات التاريخية ما اعتبره الباحثون بمثابة الإغلاق لهذه الحدائق، وهو ما تؤكده ماري لويز بقولها :" لقد كانت البساتين المشجرة مهمة جدا في مدافن الفرس القديمة، حيث أن قبر سايرس (Cyrus) كان مغلقا ببستان مشجر".

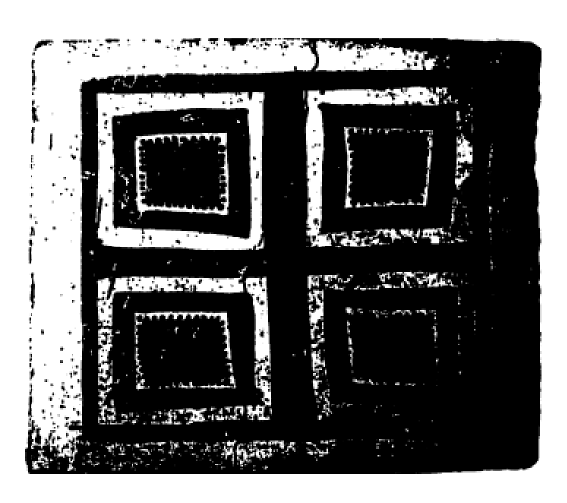
أما النقطة الأساسية التي يعتمد عليها الباحثون في استخلاص الأصول الفارسية فهي ما يسميه هؤلاء بطراز الشارباجة الفارسي، أو الحديقة المقسمة إلى أربع أجزاء بواسطة محورين متعامدين وهو المفهوم الذي أستمر في العديد من الحدائق على امتداد العالم الإسلامي والذي يعود برأي العديد من

الباحثين إلى الديانة الساسانية والتي تؤمن بتقسيم العالم والكون إلى أربع عناصر أساسية يقوم على التوازن بينها وهي وفقا لدانيش دوست" الماء والنار والهواء والتراب".

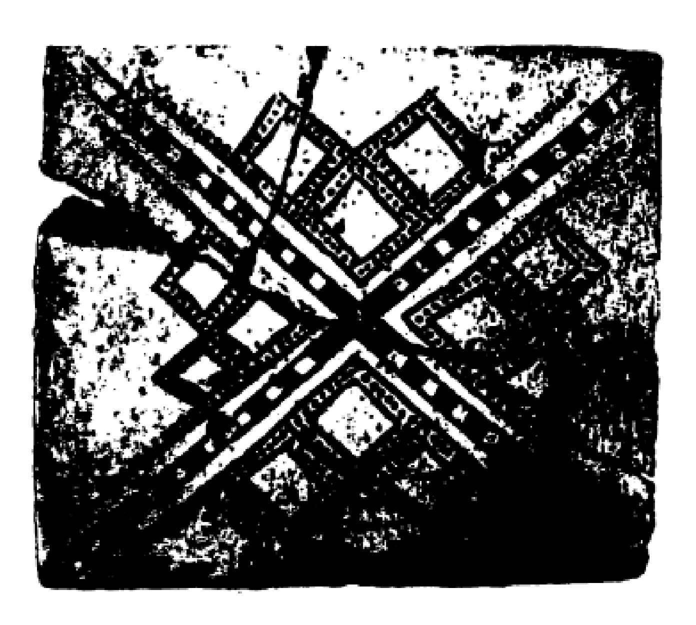


شكل (5-1): النقش على حجر الكرستال الذي يوضح الملك داريوس وهو يصطاد،
المصدر :(Gothein ,2001,e- book).

ويرى دانيش دوست أنه انطلاقا من الفترة الساسانية (224 م) وما بعدها كان من الدارج تقسيم أراضي الصيد إلى أربع أجزاء "،(Daneshdoust,1976,P:44)، إلا أن أصول هذه الفكرة تعود إلى ما قبل ذلك بكثير وهو ما تؤكده الحفريات الأثرية في بلاد ما بين النهرين والتي كشفت عن رسومات على السيراميك تعود إلى حوالي 4000 سنه ق.م أي إلى الفترة الأكادية، وتحوي على تمثيل للعالم مقسما إلى أربعة أقسام مع رسم لبركة بالوسط ترمز للحياة.



شكل (5-2): بلاطة سيراميك مطلية عثر عليها خلال الحفريات الأثرية في موقع (Bala Jan)الأثري تظهر فكرة تقسيم العالم إلى أربع أجزاء،
المصدر : (Hooshangi,2000, P: 78)



شكل (5−3): بلاطة سيراميك مطلية عثر عليها خلال الحفريات الأثرية في موقع (Bala Jan) الأثري تظهر فكرة تقسيم العالم إلى أربع أجزاء،

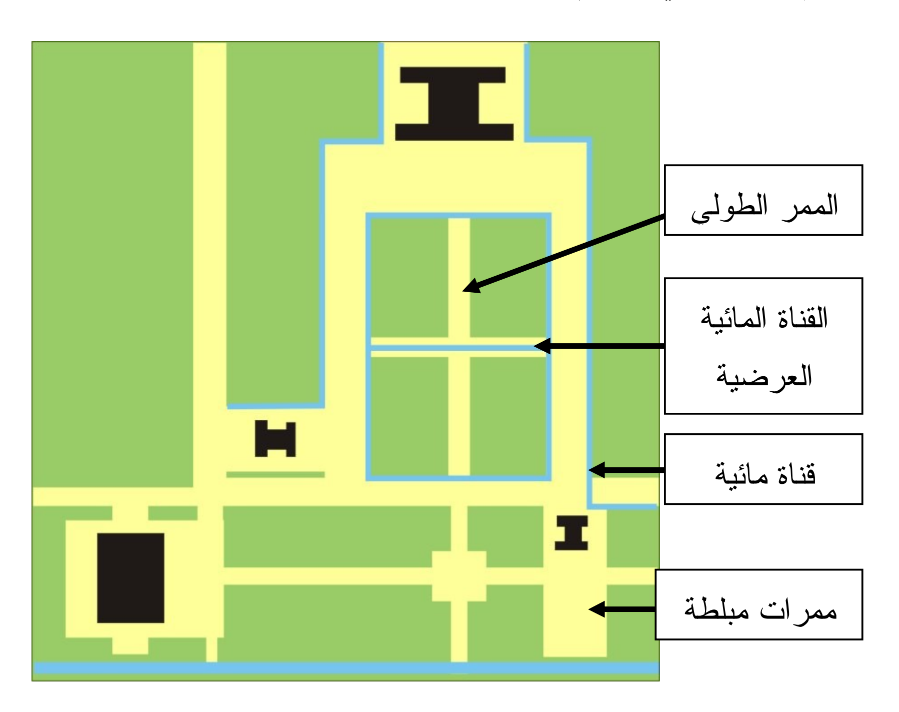
المصدر : (Hooshangi,2000,P: 78)

ويشير د. عمر هزاع إلى أن :"الأكاديين هم من أقدم الأقوام السامية التي هاجرت من الجزيرة العربية واستقرت في دلتا الرافدين في حدود العام 4000 ق.م وتمكنوا من إقامة دولة نحو عام 2350 ق.م شملت صور وشمال مابين النهرين وعيلام وسوريا وأجزاء من الأناضول والخليج العربي، بل إن أحد ملوك الأكاديين سمى نفسه بملك الأرباع الأربعة". (هزاع،2006 ،ص:1)

ويستدل من ذلك أنه يسبق التاريخ المعروف لأقدم عمليات الزراعة في إيران والتي تعود إلى 3000 عام ق.م وفقا لماري لويز وآخرين، إلا أنها تشير إلى أن فكرة الشارباجة تعود إلى حدود العام 2000ق.م دون أن تشير هي أو غيرها أين ومتى وضعت أول حديقة من هذا النوع، ويقترح مهدي كتساري عودتها إلى الفترة الأرخميدية (560−330 ق.م)،(Khansari,1998,P:+)، ومن المأخذ على ذلك التصور أنه لم يقدم دليلا حسيا على ذلك ،بينما يعتقد توم تيرنر أن أول حديقة مكونة من أربع مربعات (أربع أرباع) تعود إلى فترة العام 600 الميلادي (Gothein ,2001,e-book)، وان كان الشكل المربع كشكل عام للحديقة يعود إلى ما قبل ذلك بكثير إلى الحضارة المصرية الفرعونية وحضارة ما بين النهرين.

إن أقدم حديقة فارسية تشير إليها المصادر التاريخية هي حديقة الملك سايرس (Cyrus the Great) وتعود إلى العام 546 ق.م ومعروفة باسم باسراجادي(Pasargadae) وتقع إلى الشمال من مدينة

شيراز الإيرانية و تمتاز بمخططها الهندسي و مسار المياه الحجري المستطيل الشكل و الذي يدعي العديد من الباحثين انه يتقاطع مع ممر مرصوف أفقي يشكل المحور الثاني (الذي يدعي توم تيرنر(Tom Turner) انه ظهر رغم إهمال المنقبين أثناء الحفريات الأثرية للبقايا الأثرية للحدائق وتركيزهم على المباني القبور)،(.Gothein ,2001,e- book)،



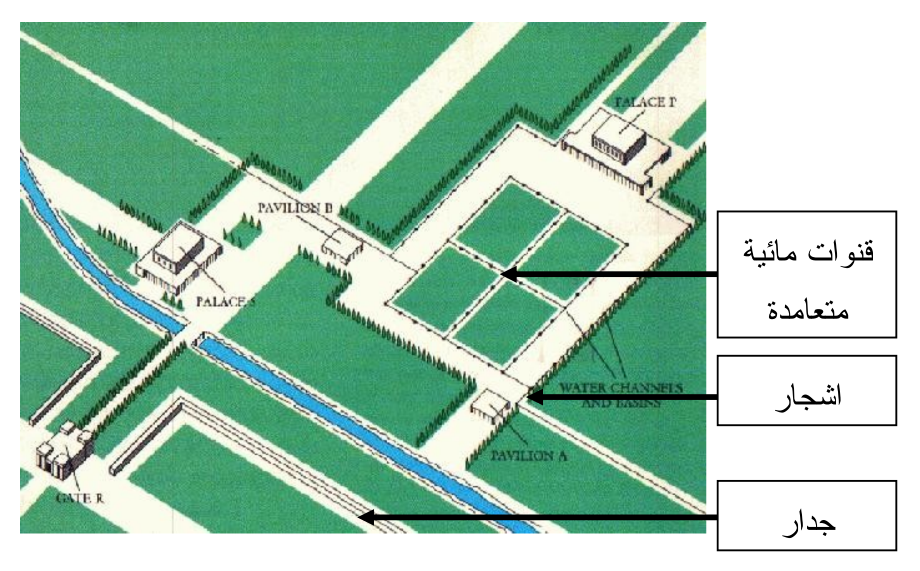
شكل (5-4): تصور لحديقة باسراجادي (Pasargadae) وفقا لتوم تيرنر،
المصدر: (Gothein, 2001,e- book)

ويعد العديد من الباحثين هذه الحديقة أقدم الأمثلة على الحدائق المقسمة بمحاور متعامدة، بل إن ديفيد ستروناش (Stronach) الباحث الأثري الشهير يرى" أن هذه الحديقة هي التي أكسبت الحدائق الفارسية مكانتها المضمونة والمرموقة في تاريخ الحدائق"،(Shiffrar, 2004,P:1)،وبمقارنة ذلك مع التصورات والمخططات المبنية وفقا للحفريات الأثرية فإن هذا التشكيل في حال ثبوته لم يكن التشكيل الأساسي للحديقة، حيث كان يقع في جزء منها على عكس الحدائق في المجتمعات المسلمة .

ويأتي ذلك على رغم ما حوته هذه الحديقة من تطور كبير في التشكيلات المعمارية المتمثلة باستخدام المنصات والأدراج في تشكيل الحديقة بشكل يسمح بالاستمتاع بها من مناطق عالية ومن ضريح سايرس (Cyrus) وفي ذلك تجادل علياء حسن بقولها:" كان المجمع يوما مكونا من قصرين ومقصورتين ومجرى مائي حجري تقطعه برك (نوافير) صغيره وشكل المجرى المائي منتظم ويبدو

أنه كان يخدم أيضا كقناة للري، وكانت هذه الحديقة ترى من مسافة من خلال مقاصير بعيدة أكثر من الاستمتاع بها من خلال المشي في ممرات بداخلها"(Hassan, 1999,p:1)، وهو الأمر الذي يتفق مع رؤية جون بروكس في كتابه (Garden of Paradise) ص32 "بأن الحدائق كانت تصمم للاستمتاع برؤيتها وليس لتستخدم". (.Hassan ,1999, p:1)

إضافة إلى تلك الحديقة توجد حديقة بريسبولس(Persepolis) وقصرها في سوسة الإيرانية والتي تمثل تكريس المساحة للحدائق في عمارة القصور الساسانية وهي عبارة عن قصر بناه درايوس (Darus) ويمتاز بوجود عدد من الحدائق ومساحات الزراعة، وخارج القصر هناك عدد من القصور والحدائق الأصغر، ويمثل قصر سوسة وفقا لعلياء حسن (التي خلى وصفها من أي عودة لمخططات أثرية) استخدام الأفنية الداخلية كفراغات مفتوحة ذات أهمية وهي مجاورة أو محاطة بالقصور وهو ما يؤكد وفقا لعلياء " أهمية الحدائق المتزايدة لدى الفرس". (.Hassan ,1999,pp:2)



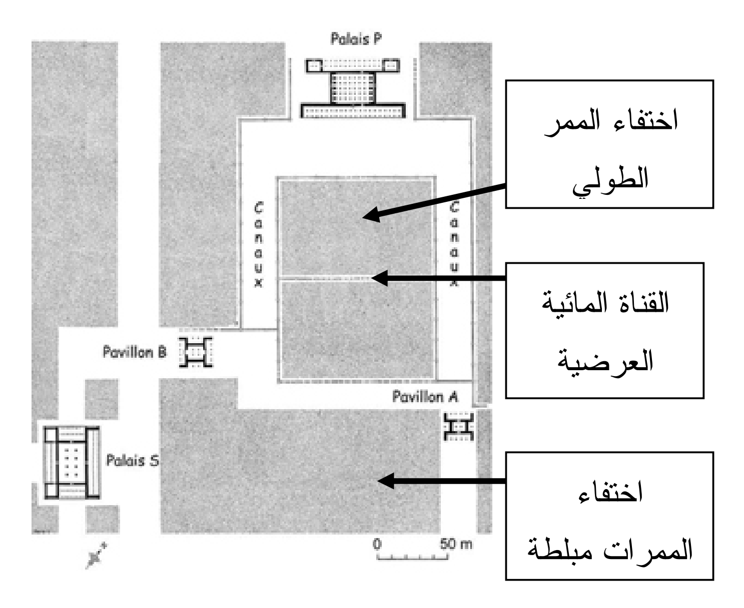
شكل (5-5): تصور لحديقة Pasargadae،وفقا لعلياء حسن ،

المصدر : (Hassan ,1999, p:2).

لا يقدم أي من الباحثين أدلة قاطعة على وجود عناصر معمارية معينة في الحدائق الفارسية وذلك لعدم وجود أدلة أثرية قاطعة في الغالب تدعم ادعاءاتهم، وذلك واضح من خلال المقارنة بين تصور حديقة (Pasargadae) الذي قدمته علياء حسن والتصور الذي يقدمه توم تيرنر (Tom Turner) والتصور الذي قدمه ديفيد ستروناش (David Stronach) في كتابه (Pasargadae a report on

the Excavations) الذي يدعي انه بناه على الحفريات الأثرية التي جرت بين عامي 1960–1963 في الموقع، حيث تظهر العديد من الاختلافات والإضافات التي وضعها كل منهم.

وبالرجوع إلى التصور الأصلي الذي قدمه ديفيد ستر وناش والذي يعد أقدم هذه التصورات وأكثرها حرفية لمساهمة هذا الباحث المباشرة في الحفريات التي جرت بالموقع، نجد أولا اختفاء العديد من الممرات والجدران وصفوف الأشجار الموجودة في التصورات الأخرى خاصة الممر العمودي الذي يتقاطع مع القناة المائية العرضية، وإن كان ستروناش قد أضافه إلى تصوره في فتره لاحقة .



شكل (5–6): التصور الأصلي لحديقة Pasargadae، وفقا لديفيد ستروناش ،
المصدر: (French Foreign Ministry ,2008,P:2).

وعلى ما يبدو فأن هذه التصورات كانت مبنية على الروايات التاريخية والتصورات الشخصية السابقة لعديد من الباحثين أمثال ماري لويز والتأثر بتصميمات الحدائق الفارسية التي تعود للفترة التي تلت دخول الإسلام لإيران وهو الأمر الذي يتضح من أشارة ديفيد ستروناش إلى" استعانته ببقايا ومخططات الحدائق الساسانية الأخرى وحدائق المجتمعات الإسلامية المبكرة في فهم وتحليل البقايا الأثرية المكتشفة في حديقة باسراجادي (Pasargadae). (Shiffrar,2004,P:1) .

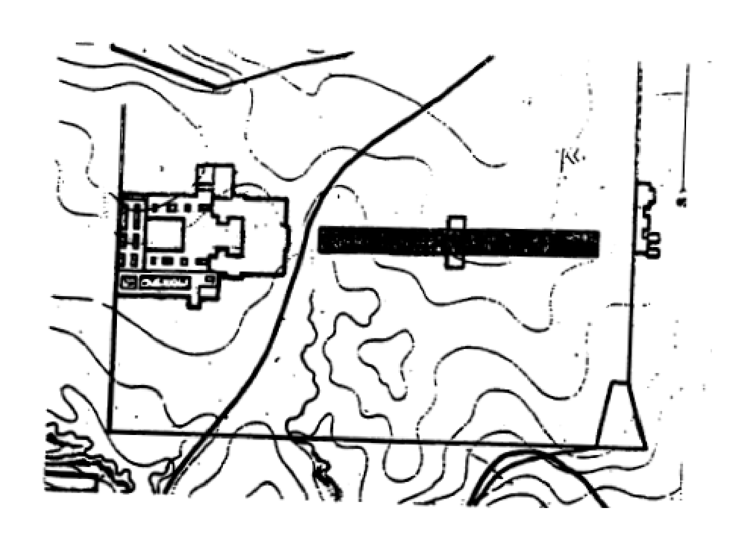
ويؤكد تقرير نشره القسم المختص بالبعثات الأثرية في وزارة الخارجية الفرنسية حول الحفريات الأثرية بموقع حديقة باسراجادي (Pasargadae)، تحت عنوان مسألة بحاجة للبحث العلمي،" أن المساحة الشاسعة التي يمتد عليها بقايا القصور والحديقة جعلت الأسلوب الذي اعتمدت عليه الحفريات التي جرت به سابقا غير دقيق ويخلو من الكثير من المعلومات الأساسية".

ويضيف التقرير:" أن حديقة باسراجادي (Pasargadae) التي تشكل مرجعا أساسيا وهاما في تاريخ الحدائق البشرية بقيت مجهولة المعالم بشكل كامل، وان الطرق والممرات التي وضعت في التصورات المختلفة عنها هي عبارة عن فرضيات بالكامل، وأن القنوات المائية المؤدية للقصور والأخرى التي تمر بالحدائق لم يتم تحديدها بدقه، وأن العديد من العناصر المعمارية للحديقة خاصة الجسر الذي درسه ستروناش لم يتضح علاقته بشكل واضح مع الحديقة".

(French Foreign Ministry, 2008,P:2)

وعند العودة إلى مصادر الحفريات الأثرية والتاريخية المتعلقة بقصر أمارة خسرى(Imarat –I Khusraw) بالقرب من (خرمانشاه) المبني في الفترة (590–628 م) يتضح هذا الأمر حيث تخلو من أي تصور للحدائق المحيطة به أو عناصرها أو تشكيلها باستثناء القناة المائية الطولية.

(Hasan, 1999,p: 61)



شكل (5–7) : مخطط قصر أمارة خسرى(Imarat –I Khusraw) وفقا للحفريات الأثرية ،

المصدر: (Hooshangi,2000, P: 77)

وتؤكد علياء حسن على إحاطة القصر بحديقة من حدائق الفردوس وهي محاطة بجدار وحديقة أخرى داخلية صغيرة تحوي بركة كبيرة معتمدة في ذلك على رواية لمؤرخ عربي لم تذكر أسمه ولم توضح تفاصيل تلك الحدائق و عناصرها المعمارية الأخرى .

ويبدو أن معظم الفرضيات التي بناها العديد من الباحثين المستشرقين تقوم على تصورات لم يتمكنوا من إثباتها في عديد من الأحيان ويتضح ذلك في قول علياء حسن:" إن العديد من عناصر الحدائق

الفارسية الإسلامية كانت على ما يبدو(Seems to be) قبل السيطرة الإسلامية على بلاد فارس، إلا أن المسلمين أسهموا وأضافوا إليها". (Hassan,1999, P:2)

ومما لاشك فيه أن الحضارة الفارسية قبل الإسلام كانت حضارة غنية بتراثها وفنها وتطورها العمراني والعلمي وهو الأمر الذي استفاد منه المسلمين في الفترات اللاحقة حيث أخذوا منها ما يناسبهم وطوروه وأضافوا إليه وتركوا ما لم يناسبهم وهمشوه .

2-1-5: فارس ما بعد الإسلام :

بحلول عام 647م وقعت فارس تحت سيطرة المسلمين العرب وشهدت تلك الفترة تأثرا كبيرا بالدين الإسلامي تمثل بالتحول التدريجي للفرس من عبادة النار إلى الإسلام مما غير من المفاهيم والمتطلبات الاجتماعية، وهو الأمر الذي يتضح من خلال مفهومين أساسيين أضافهم المسلمين إلى الحديقة ،فبعد أن كانت الحديقة للرؤية والاستمتاع عن بعد لدى فرس ما قبل الإسلام أصبحت مكانا متعدد الاستخدامات و يخضع للاستخدام المكثف.

كما دخل مفهوم الخصوصية كأهم إضافة إلى مفهوم الحدائق الفارسية وهو الأمر الذي يؤكده كويل وأد بينس الذي يقول: "بينما استمرت الحدائق الفارسية في القرنين السابع والثامن الميلادي، فإنها اكتسبت مفاهيم ومعاني جديدة مع انتشار الإسلام، حيث تبنى المسلمون شكل الحديقة لكنهم أعطوها المعاني وأثروها بالرمزية ".(Bennis,2006, P: 6).

ولم تتبقى أي من الحدائق التي تعود للفترة الإسلامية الأولى، أما أقدم الحدائق الفارسية الموجودة حاليا فتعود إلى حوالي 500 عام، أي إلى القرن السادس عشر الميلادي في بداية الفترة الصفوية التي تمثل أول حكم محلي مستقر في إيران بعد الفتح الإسلامي، وتمثل حدائق هذا العصر وفقاً لجونز ليرهام "قمة التطور الذي وصلت إليه الحدائق الإسلامية في إيران وذلك تحت حكم شاه عباس في القرن السادس عشر حيث كانت أصفهان وفقاُ لليرهام أحد أجمل مدن الأرض في حينه".
(Lehrman ,1980, P: 109)

ويأتي هذا التطور بعد سلسلة من التطور البطيء لهذه الحدائق والتي جاءت متأثرة بالحضارات والثقافات الأخرى التي غزت أو حكمت إيران بالتوالي بدءُ من العباسيين والسلاجقة والمغول وغيرهم، وهو ما يؤكده كويل بقوله:" تستحق الحدائق الفارسية اهتماماُ وتذكراَ أكبر من المعطى لها،

حيث إن أمم عديدة وثقافات عديدة ساهمت في تشكيلها مباشرة وأخرى عديدة بطريقة غير مباشرة "، ويشير إلى أحد الأمثلة المتعلقة بالتأثير المغولي على هذه الحدائق في القرن الخامس عشر من خلال سياج ذو طراز صيني أدخلوه إلى الحديقة الفارسية بالإضافة إلى أنواع عديدة من النباتات والأزهار التي أحضروها معهم.(Cowell , 1978 ,P: 67.)

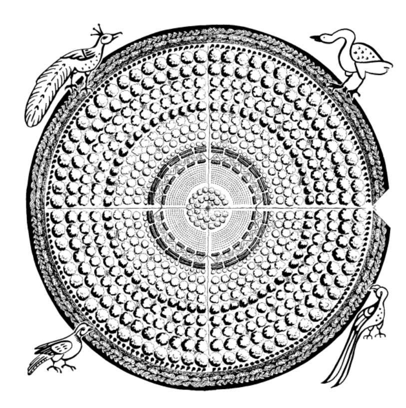
ولم يختلف طابع الحدائق بشكل عام في إيران (فارس) المسلمة عن الحدائق في المجتمعات الإسلامية الأخرى على الرغم من إتباع المسلمين هناك المذهب الشيعي الذي يتبنى أراء مختلفة عن معظم الحضارات الإسلامية الأخرى التي تتبنى المذهب السني حيث بقيت العناصر والأنماط الأساسية المتمثلة بالحدائق الخاصة (court yards) وحدائق القصور والمساجد التي تبنت في الغالب نظام الأفنية المغلقة والمسورة .

وتعتبر أهم الإضافات التي تعود للمذهب الشيعي وتشكل تطوراً كبيراً في مفهوم الحدائق الإسلامية في إيران حدائق المزارات الدينية شبه العامة،والتي كانت تفتح أمام العامة في الأعياد والاحتفالات الدينية، أما الانجاز الثاني للصفويين فكان في مدينة أصفهان التي تطورت إلى مدينة حدائقية بعد تحولها إلى عاصمة للصفويين في القرن السادس عشر كما سبق ذكره في الفصل الثاني من البحث .

5-2: الشكل الرباعي :

يحوي وصف الجنة في القرآن و السنة الكثير من التفاصيل المعمارية و الجمالية عن الجنة التي وعد الله بها المتقين من عباده ،فنجد وصفا واضحا لجدارها الخارجي الذي يفصل بين الداخل والخارج ووصفا لأبوابها والمسافة بين الباب والباب الأخر و للتدرج في المراتب والعديد من التفاصيل الأخرى، إلا انه لم يتطرق إلى الشكل العام للجنة أو بمعنى أخر ما هو شكل المسقط الهندسي للجنة هل هو مستطيل أم مربع أم دائري أم غير ذلك وإن كان هذا الوصف أشار إلى التدرج الهرمي في الجنة حيث تنقسم الجنة وفقا لهذا الوصف إلى مئة درجة منفصلة يقع عرش الرحمن في أعلاها وأبواب الجنة في أدناها، لقد اختار المسلمين الشكل رباعي الأضلاع سواء المربع أو المستطيل كنمط هندسي غلب على حدائقهم باختلاف أنماطها، كما يتبين من البحث في فصوله السابقة في محاولتهم إسقاط الجنة على الأرض وهو الأمر الذي يراه العديد من الباحثين مثل ليرهام محاولة للرمز إلى الثبات(Stability) كما سبق ذكره.

ويعتبر اختيار الشكل الرباعي يتناقض كليا مع رؤية الديانة المسيحية لشكل الجنة الذي يصورها العديد من الباحثين مثل انتوني ليتل وود(Antony Littlewood) على شكل مسقط دائري، فعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات في رؤية الجنة بالنسبة للتفاصيل الأخرى مثل عدد أبواب الجنة أو اتجاه التدرج (حيث تنظر المسيحية إلى التدرج بأن الأبواب تأتي في المستوى الأعلى والتدرج بانحدار للمركز بينما يتبين العكس في الوصف القرآني) إلا أن هناك الكثير من نقاط التشابه بين الوصفين في المفاهيم الأساسية مثل عدد انهار الجنة والجدار والأبواب ووجود أصناف محددة من الأشجار.

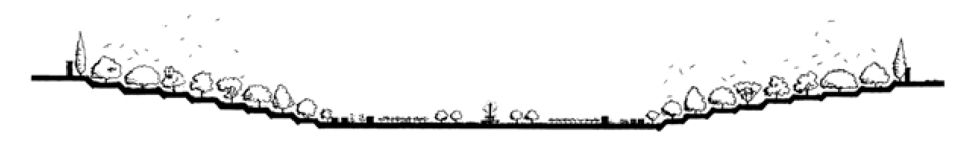


7 Plan of Hyrtakenos' garden (reconstruction drawing: Kate McGee)

شكل رقم (5–8): تصور لمسقط حديقة سانت انا (St. Anna) مبني على وصف المؤرخ هيراتكونز (Hyratkenos) وتعد مثال عن تصور البيزنطيين للجنة كما يتضح من خلال وصفه ،

المصدر : (Littlewood ,2002, P: 114).

إلا أن الفارق على ما يبدو لا يعود إلى خلاف جوهري في وصف الجنة بل يرجع إلى أن الفكر المسيحي للجنة بقي في الجدل الفكري واللوحات الفنية التي زينوا بها كنائسهم ولم ينتقل إلى محاولة التطبيق العملي على الأرض التي ميزت فن الحدائق في المجتمعات الإسلامية وهو ما يؤكده ليتل هوود (Littlehood) في تعليقه على هيراتكونز (Hyrtakenos) الذي يعد وصفه لحديقة سانت آنا (St. Anna) المرجع الأساسي في وصف فن الحدائق البيزنطية أنه" خلط بين الوهم الكتابي والمصورات في تكوين وصفه "وأضاف" انه لا يوجد في كتابه ما يدل على انه رأى تلك الحديقة في ارض الواقع". (Littlewood ,2002,P.P: 113-116) .



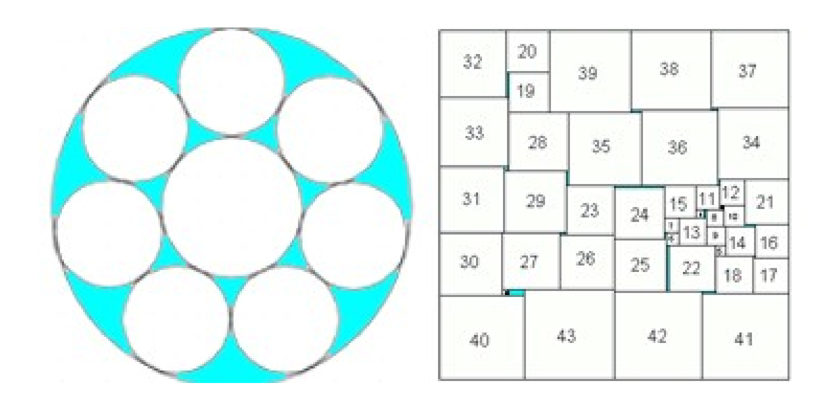
الشكل (5–9) : تدرج الجنة وفقا لتصور حديقة سانت آنا (St. Anna) مبني على وصف المؤرخ هيراتكونز (Hyratkenos) ،
المصدر : (Littlewood,2002,P:114).

مما لاشك فيه أن الشكل الرباعي (المستطيل أو المربع) هو من أقدم الأشكال الهندسية وأكثرها شيوعا في مختلف الحضارات منذ فجر التاريخ في تشكيل البيوت والأفنية كما شهدنا في الحضارات الفرعونية والبابلية والرومانية وغيرها كما ويشير هيثم الرطروط إلى أن هذا الشكل هو المسقط الأفقي لأقدم مبنى ديني وضع على الأرض حسب الوصف القرآني (الرطروط ،2005،ص1–32) وهو الأمر الذي أمتد إلى عمارة الحدائق منذ فجر التاريخ فنجد أن حدائق بابل المعلقة كانت ذات مسقط رباعي الأضلاع وفقا لما يتضح من وصفها في المصادر الأدبية التاريخية وهو ما يؤكده وصف سترابو(Strabo) المؤرخ الإغريقي لحدائق بابل المعلقة .(Jones ,1932 ,P: 199).



شكل (5–10) : تصور يرجع للقرن السادس عشر الميلادي لحدائق بابل المعلقة ،
المصدر : (http://en.wikipedia.org/wiki)

وعلى ما يبدو فإن استخدام المسلمين للشكل الرباعي جاء من منطلق سهولة تحديده وتناسبه مع مواد ومهارات البناء المتوفرة في حينه، كما أن الشكل الرباعي هو الشكل الأمثل هندسيا في توزيع المساحات المختلفة واستغلال الفراغات إلى الحد الأقصى عند مقارنته بالأشكال الهندسية الأخرى وهو ما يتفق مع أسلوب توزيع الأراضي على الأفراد في المدن الإسلامية الأولى والذي يتضح في وصف نزار الصياد لعملية تخطيط مدينة البصرة أولى الأمصار الإسلامية الجديدة على يد أبو موسى الأشعري وعملية إختطاط الجامع والشوارع الرئيسية وتقسيم البصرة إلى خمس أحياء وزعت على القبائل لتختطها بنفسها وتعيد تقسيمها إلى مساحات للبناء للأفراد. (الصياد،1996 ،ص 12 -13)



شكل (5-11) : مخطط يوضح سهولة استخدام الشكل الرباعي في توزيع المساحات المختلفة واستغلالها للحد الأقصى على عكس الشكل الدائري.

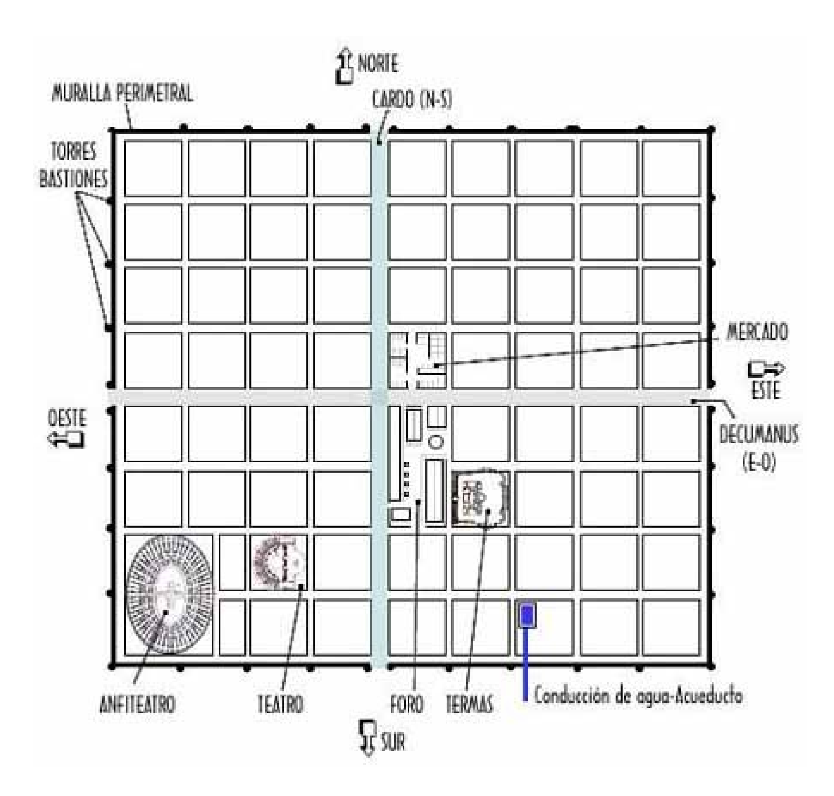
المصدر: الباحث .

5-3: الخطوط المتعامدة و الأنهار الأربعة :

لا يوجد أدلة حسية تشير إلى أول من بدء باستخدام المحاور المائية المتعامدة في تصميم الحدائق، وان كان العديد من الباحثين يشيرون إلى الفترة الفارسية المتأخرة كما سبق ذكره دون أن يقدموا دلائل مادية سوى بعض الخرائط والتصورات المبنية على الروايات التاريخية ، ولم تثبت أي من الحفريات الأثرية للحدائق الفارسية ما قبل الإسلام إلى وجود قنوات مائية متعامدة، فمخطط قصر امارة خسرى (Imarat –I Khusraw) المبني على الحفريات الأثرية (السالف ذكره) يشير إلى وجود قناة مائية طولية واحدة بدون أي دليل على وجود قناة مائية أخرى تتعامد عليه أو حتى ممر مبلط كما هو الحال في تصور حديقة باسراجادي (Pasargadae) وفقا لماري لويز .

إلا أن استخدام المحاور المتعامدة في تخطيط المدن والإنشاءات المعمارية المختلفة هو أمر لا تكاد تخلو منه أي من الحضارات القديمة، ومدن الحضارة الرومانية هي خير مثال على ذلك ،حيث

استخدم الرومان شبكة الشوارع المتعامدة والشارعين الرئيسيين الأعرض(Cardo & Decumanos) واللذان يتقاطعان في الوسط ليشكلا السوق وأل(Forum) وينتهيان بمداخل المدينة الأربعة .
.(http://www.spanisharts.com, 2008)

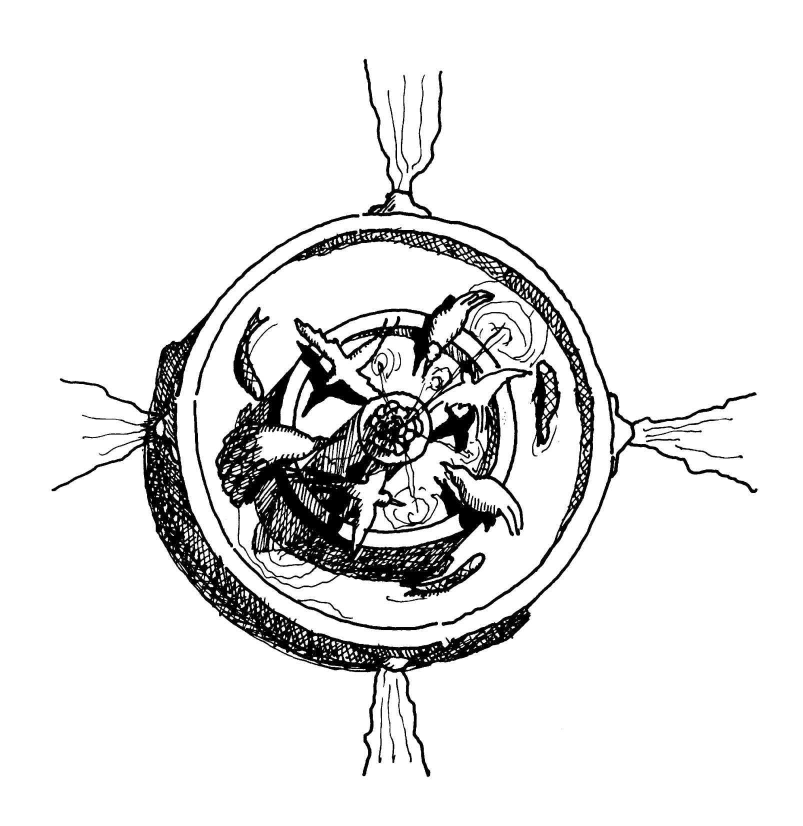


شكل (5−12) : تصور لمخطط مثالي لمدينة رومانية يظهر فيها شبكة الشوارع المتعامدة والشارعين الرئيسيين (Cardo & Decumanos) ،
المصدر: (http://www.spanisharts.com).

كما تشترك العديد من الحضارات والديانات بفكرة الأنهار الأربعة التي تنبع من وسط الجنة لتروي أجزائها المختلفة ويمكن ملاحظته في الديانتين اليهودية و المسيحية التي تنظر إلى نهري الفرات والنيل على أنهما ينبعان من الجنة، ويعتبر الباحث ليتلوود (*Antony Littlewood*) أن وصف المؤرخ هيتراكونز(Hyratkenos) للنافورة الدائرية التي تتوسط حديقة سانت أنا (St. Anna) ويخرج منها الماء من أربع جهات يأتي في سياق تأثره بوصف جنات عدن في الإنجيل.
(Littlewood,2002,P: 121)

ويقترح أتيللو بيتروكيولي (attilio Petruccioli) أن القنوات المائية المتعامدة تطورت من شبكة الطرق في المدن الفارسية القديمة التي كانت تمتد من سفوح الجبال إلى الناحية الأخرى والتي رغم تأثرها بالأزقة التي نشأت لاحقا إلا أن نشأتها بالأصل تعود إلى شبكة قنوات الري(الأبسط والأرخص

وفقا للتقنيات المتوفرة برأيه) والتي كانت عبارة عن قنوات أساسية تمتد من السفوح عبر الأراضي الزراعية لتخرج منها قنوات فرعية صغيرة للري تشكل بمجموعها مساحات زراعية مربعة الشكل.(Petruccioli , 1998,P:357)



الشكل (5–13) : تصور للنافورة في مركز حديقة سانت أنا (St. Anna) مبني على وصف المؤرخ هيتراكونز (Hyratkenos)،ويظهر خروج الماء في أربع اتجاهات ،
المصدر :(Littlewood,2002, P: 119)

وعلى ما يبدو فأن فكرة القنوات المائية المتعامدة في الحدائق الإسلامية انسجمت مع وصف الجنة في القرآن والسنة النبوية وكانت حصيلة لعملية تطور طويلة على مدى التاريخ، حيث خلت حدائق الفترة الأموية من القنوات المتعامدة وإن ظهر العنصر المائي على شكل بركة مربعة أو ثمانية في الوسط، بينما نلاحظ في حديقة قصر بلكوارة الذي يعود للفترة العباسية ظهور التقسيم المحوري على شكل ممرات مبلطة تصل بين المداخل مع بركة في الوسط، بينما تشكل الحديقة العليا في قصر الزهراء العائدة للفترة الأموية في الأندلس خطوة أخرى في سلسلة التطور من خلال المقصورة المحاطة بأربع برك(بركة من كل جهة) في محاولة تطبيق لوصف القرآن لغرف الجنة على ما يبدو.

ولا يوجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى حديقة معينة كأول حديقة ظهرت فيها قناتان مائيتان متعامدتان، إلا أنها على ما يبدو ظهرت لأول مرة في أحدى حدائق فترة ملوك الطوائف في الأندلس أو في إحدى حدائق فارس في الفترة الصفوية، لتتابع تطورها وتصل لقمة عظمتها في حدائق الفترة المغولية في الهند.

وخلاصة القول أن المسلمين قد استفادوا في تصميم حدائقهم من الحضارة الفارسية وغيرها من الحضارات القديمة، إلا أن هذه الحدائق تطورت تدريجيا واكتسبت مفاهيم ووظائف جديدة بحيث اكتسبت طابعا خاصا ميزها عن حدائق الحضارات الأخرى كافة، فأصبحت على سبيل المثال متعددة الوظائف تخدم جميع حاجات المجتمع بعد أن كانت سابقا أحادية الوظيفة .

ومع كل هذا التطور سابقا يلاحظ أن هناك إشكالية كبيرة في الفهم الحقيقي لدور الحدائق في الوقت الراهن، حيث سيتم التطرق إلى الحديقة في المجتمع الفلسطيني كنموذج لهذا التراجع في العصر الحديث.

الفصل السادس

الحديقة في المجتمع الفلسطيني في العصر الحديث 1918–2009 نابلس كحاله دراسية.

6–1: الحدائق في البلدة القديمة من نابلس.

6–2 : الحدائق في فترة بداية الخروج من البلدة القديمة (1918– 1948).

6–3 : فترة الحكم الأردني و بداية الاحتلال الإسرائيلي حتى الانتفاضة الأولى (1950–1987).

6–4: مرحلة ما بعد الانتفاضة الأولى ونشأة السلطة الوطنية الفلسطينية.

الفصل السادس

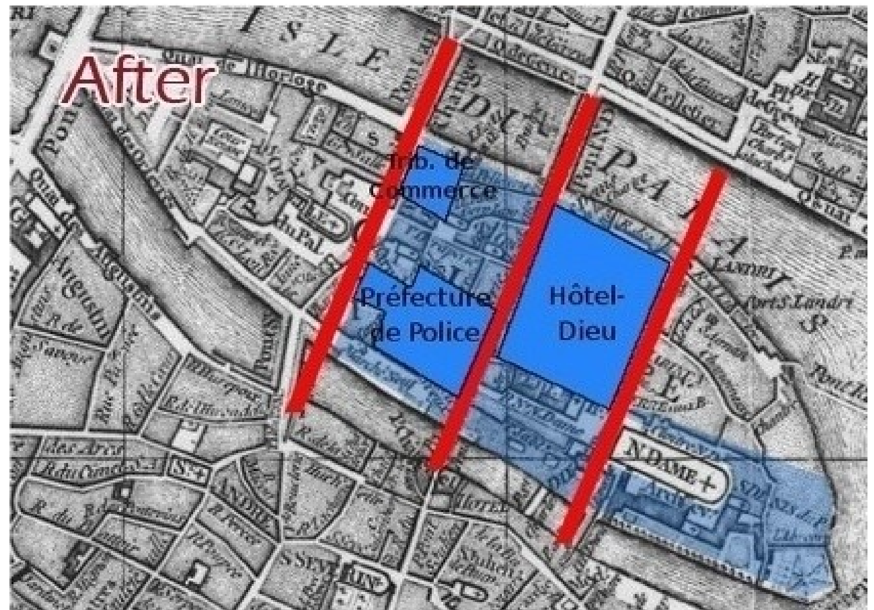
الحديقة في المجتمع الفلسطيني في العصر الحديث 1918–2009 نابلس كحاله دراسية.

رافق نهاية الفترة العثمانية و ماتلاها من بداية الحقبة الاستعمارية في المنطقة تغيرات كبيره في طبيعة التشكيل الحضري للمدن الإسلامية والعربية في وسوريا ومصر وفلسطين على وجه الخصوص، تارة باسم الحداثة وتارة أخرى بأسم تحسين منظومة السيطرة على تلك المدن التي، شكلت شوارعها الضيقة ذات النهايات المغلقة والمتعرجة ومبانيها المتلاصقة ما رآه الانتداب البريطاني نوعا من المنظومات الشيطانية(Demonized Space) التي يجب القضاء عليها.

وهو الأمر الذي ظهر على ارض الواقع من خلال منظومة من قوانين البناء التي طبقت على الأرض بعد فترة قصيرة من الانتداب البريطاني لفلسطين وتتمثل بسلسلة قوانين تنظيم البناء لأعوام (1920 و1936 و1947)، واتخذت في بعض الأحيان مناحي أكثر حده تمثلت في عمليات التدمير المنهجي لأحياء مدينه يافا الفلسطينية التقليدية بعد ثورة العام1936 وفتح شوارع جديدة وخلق فراغات عامه واسعة تحسن منظومة السيطرة، في عودة لتطبيق نظرية البارون هاوزمان (Baron Haussmann) التي طبقت لأول مره في مخططه لمدينة باريس عام1856 م .

وهو الأمر الذي أدى لتغيير كبير في منظومة البناء والذي ظهر في المدن الفلسطينية مثل نابلس والخليل منذ بدايات القرن العشرين، وتمثل بالخروج من البلدات القديمة وبناء إحياء جديدة بطرز معمارية حديثه، وقد انعكس ذلك على نمط وطرز الحدائق التي خرجت من النمط التقليدي كأفنية داخليه وأحواش، لتصبح حدائق خارجية محيطه بالمباني من جميع الاتجاهات.





شكل (6−1): قلب باريس في العصور الوسطى، حسب خارطة فاوجوندي (Vaugondy) لعام1771، وكيف غدت بعد مشروع البارون هاوزمان (Haussmann) عام 1856،

المصدر :(National Library of France web site).

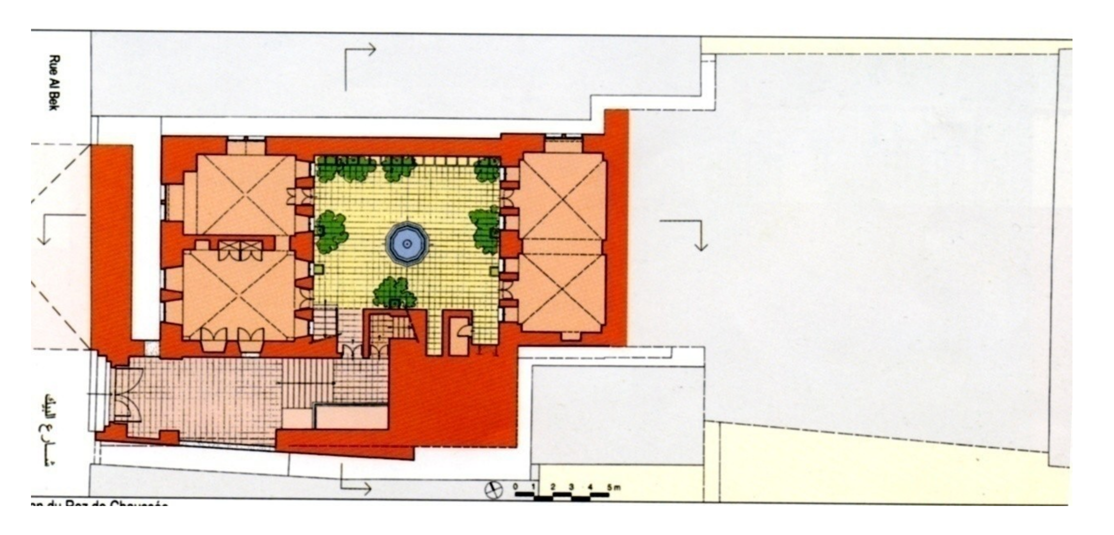


شكل (6–2) : مدينة نابلس كما كانت تبدو عام 1918، وبداية الخروج من البلدة القديمه،

المصدر :(www.nablus.gov.ps).

6–1: الحدائق في البلدة القديمة من نابلس :

لم تحوي نابلس التقليدية وكل المدن الفلسطينية كمدن ذات مجتمع إسلامي على حدائق إسلاميه كبرى، واقتصر وجودها في الغالب في مدن العواصم والمدن الملكية، إلا أنها احتوت على العديد من الحدائق التي تقع ضمن تصنيف الأحواش وحدائق الأفنية الداخلية التي تعود ببنيتها الحالية إلى الفترتين العثمانية والمملوكية، واختلفت تلك في حجمها وتشكيلها وفقا لثراء الأسر المالكة لها، إلا أنها احتوت على اغلب العناصر المعمارية لحدائق المجتمعات الإسلامية من الشكل الرباعي الأضلاع (مستطيل، مربع أو شبه منحرف) والجدران المحيطة بها والنباتات إلى الشدروان والعرائش وغيرها، ومن الأمثلة عليها فناء منزل ال نمر النابلسي و هو عبارة عن فناء داخلي مربع الشكل، محاط من الجهات الاربعة بالجدران واجزاء المبنى، ويتوسطه شدروان حجري عشاري الأضلاع، وارضية الفناء مبلطة بالحجر وتتخللها عدة احواض مزروعة بأشجار البرتقال والحمضيات والياسمين، كما يلاحظ درجة الخصوصية العالية للفناء من خلال الممر الرابط بين المدخل الأساسي والفناء.



شكل (6-3): مخطط الطابق الأرضي لبيت نمر النابلسي ،
المصدر : (روفو،2002،ص: 29)



شكل (6-4): صورة داخل فناء منزل نمر النابلسي ،
المصدر : (روفو،2002،ص: 30)

اما منزل ال عرفات فيمتاز بأرتباطه بأيوان يشكل منطقة مغطاه محمية من اشعة الشمس الحارة ، ويلاحظ فيه عريشة للعنب، وعدد من الأشجار والنباتات المزروعة بأحواض تتخلل الأرضية المبلطة بالحجر، كما يلاحظ وجود شجرة نخل غير مشذبة، وشدروان حجري ثماني الأضلاع يتوسط الفناء المربع الشكل، كما تعددت الأفنية في بعض المنازل الكبيرة والقصور مثل قصر ال عبد الهادي.



شكل (6-5): صورة داخل فناء في منزل آل عرفات ويظهر فيه عريشه العنب، و برميل مزروع بنبات الصاقصلي المتميز باخضراره الدائم وألوان أزهاره المتعددة وهو من النباتات الشائعة في حدائق نابلس.
المصدر : (روفو،2002،ص: 13)



شكل (6-6): فناء مهمل في منزل آل عرفات، ويظهر فيه الشدروان ثماني الأضلاع والأشجار وشجرة نخيل،
المصدر : (روفو ،فيليب ،2002،ص: 13)



شكل(6–7): شدروان ثماني من الرخام المقسم هندسيا، في احد الأفنية في قصر آل النمر بالبلدة القديمة،

المصدر : (روفو،2002،ص: 12) .



شكل(6–8) : الفراغات المفتوحة ومن ضمنها الحدائق والبساتين داخل البلدة القديمة من نابلس ،

المصدر : (Qamhieh,1992 ,P:96)

2-6 : الحدائق في فترة بداية الخروج من البلدة القديمة (1918- 1948):

شكل الخروج من البنية التقليدية للمباني إلى البنية الجديدة انقلابا كبيرا في مفهوم الفراغ لدى المجتمع الفلسطيني، فبعد أن كانت الحديقة (الفناء أو الحوش) عبارة عن فراغ مغلق تحيط به الأبنية من كل جانب أصبح الوضع معكوسا، حيث أصبحت الأبنية محاطة بالحديقة من كل جانب، ألا أن مفهوم الحديقة في تلك المرحلة المبكرة لم يختلف كثيرا من حيث العناصر والحاجة إلى الخصوصية.

فرغم التغير الكبير في بنية الحديقة المتمثل بانقلاب الفراغ الداخلي إلى خارجي والعكس لم تتغير نظرة المجتمع إلى الحديقة من ناحية الدور والوظيفة والعناصر المعمارية، فعلى ما يبدو أن هذه المفاهيم ترسخت على مدى تاريخ الحضارة الإسلامية في صدور المجتمع فأصبحت عمليه فطرية لا علمية موثقه.

وعملية تغيير المفهوم للمكان وانقلاب الداخل إلى خارج والخاص إلى عام والعكس، هو تكتيك عسكري واداري متبع للسيطرة على المناطق الحضرية التي تعتبر معادية استخدمه الانتداب البريطاني على فلسطين، وهذا الأسلوب يتشابه مع النظرية العسكرية التي استخدمها الجيش الإسرائيلي في اقتحام البلدة القديمة لنابلس عام 2002 والتي اعتمدت على إزالة الحدود بين العام والخاص وقلب المفاهيم الاجتماعية للفراغ.

ويفسرها ايال وايزمان (Weizman) بقوله: " إن الفراغ الذي تنظر له والغرفة التي تنظر لها هو ليس إلا تفسيرك له، والآن باستطاعتك أن توسع حدود تفسيرك للمكان، ولكن ليس بطريقة غير محدودة وإنما يجب أن تكون محدده بعوامل البنية الفيزيائية للمدينة، حيث تحوي المباني والأزقة، والسؤال هو كيف تفسر الزقاق مثلا؟ هل تنظر إليه كفراغ مثل ما يفعل كل معماري أو مخطط حضري؟". (Weizman, 2006, P:55)

وعلى ما يبدو فقد نجح المجتمع المحلي في نابلس في الفترة 1918- 1948 في توسيع إدراكه لمفهوم فراغ الحديقة فأستطاع أن يقدم له تفسيرا جديدا يحمل العديد من قيم وعناصر الحدائق التقليدية في المجتمعات الإسلامية، فعلى الرغم من قوانين البناء الحديثة التي فرضت عليه، وهو ما نراه في مباني تلك الفترة التي انتشرت في محيط البلدة القديمة في الناحية الغربية (منطقة شارع النجاح القديم) والشمالية (سفوح جبل عيبال) خاصة ومحيط منطقة شارع المدارس في المنطقة الشرقية .

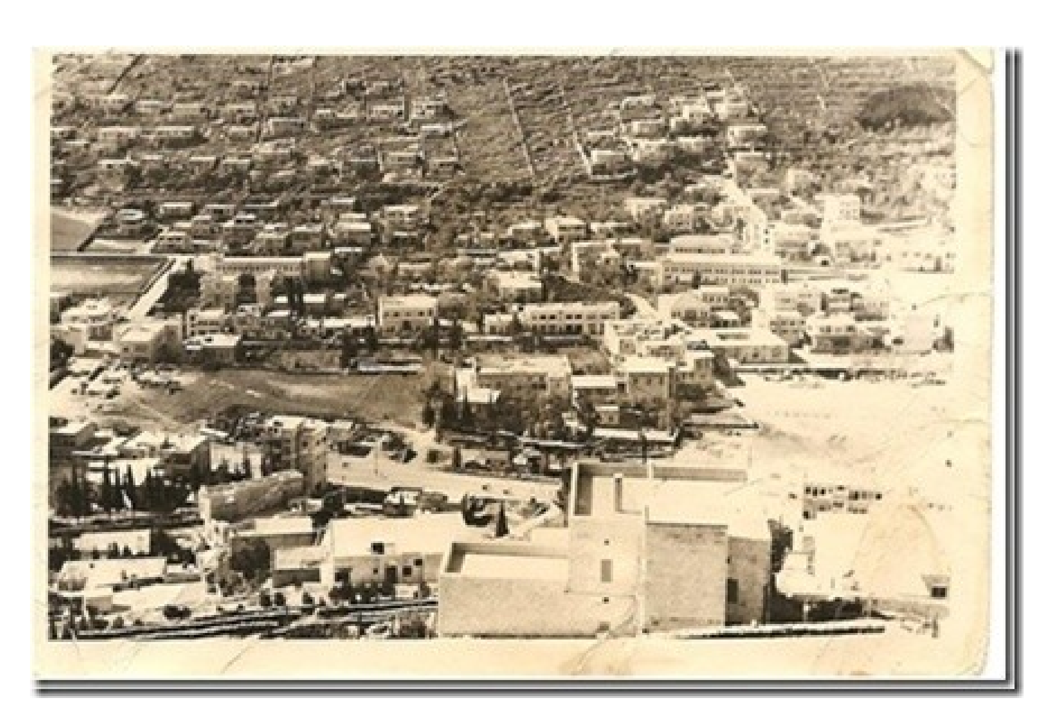
إلا ان المجتمع النابلسي تمكن بمبادرته الشخصية وعلى المستوى الفردي من تحوير الفراغ الجديد الناتج من فراغ سلبي كما نشاهد في كتابات النقاد مثل كارمونا (M. Carmona) حول هذه الفراغات التي تكونت حول ناطحات السحاب في المجتمعات الغربية نتيجة للقوانين الشبيهة التي رافقت فترة مدرسة الحداثة، إلى فراغ ايجابي من خلال إضافة وتطوير العناصر المعمارية للتناسب مع احتياجه للخصوصية والوظيفية .(Carmona ,2003 ,P: 61.)

إن هذه الحلول الفردية للمشاكل التي حصلت نتيجة لتغيير البنية الحضرية لمدن المجتمعات المسلمة والتي ظهرت بوضوح في الفترة الأولى التي تلت هذه التغيرات على صورة ما يصفه الفيلسوف فوكو (Foucault) "بمواقع منشأه اجتماعيا تحوي في طياتها مقاومه اجتماعية متزايدة إحصائيا ومنفصلة وتحاكي نظام اجتماعي مكاني".(Watson , 1996,P: 36)

وبالعودة إلى مباني تلك الفترة، يلاحظ أنها أصبحت تتكون من مباني منفصلة (Free Standing Pavilions)، تحيطها الحديقة من جميع الاتجاهات، وأهم ما يميز تلك الحدائق والفراغات هو بقائها محاطة بجدار يفصلها عن المحيط الخارجي وعن الفراغات والحدائق الملاصقة، مما أعطى هذه الفراغات الخضراء دورا ايجابيا فقد من مثيلاته في المجتمعات الغربية، بما تمنحه من خصوصية وإحساس بالأمن للمستخدمين.

ولقد امتازت مباني تلك الفترة المبكرة أيضا بسعة مساحة الحديقة المحيطة وذلك يرجع إلى عدة عوامل هي توفر الأراضي بكثرة حول المدينة وكون معظم هذه المباني كانت مملوكه من قبل الطبقة الثرية في مجتمع المدينة التي بدأت بالخروج من قلب البلدة القديمة وبناء مباني حديثه تتكون من طبقة واحدة (بنظام القاعة المركزية) أو طبقتين، وغنية بالتفاصيل والزخارف المعمارية النباتية والهندسية (وهو ما يظهر في عديد من بوابات ومداخل البيوت في شارع النجاح القديم).

وقد تفاعلت هذه الحدائق والمباني مع طبيعة التضاريس الطبيعية للأرض (نتيجة لعدم توفر معدات حفر هندسي متطورة في حينه) فنرى استخدام المصاطب المتلاحقة والأدراج في الحدائق للربط بين مستوى الشارع ومستوى المدخل(سواء كان أعلى أو أدنى منه وفقا لتضاريس المدينة الجبلية).



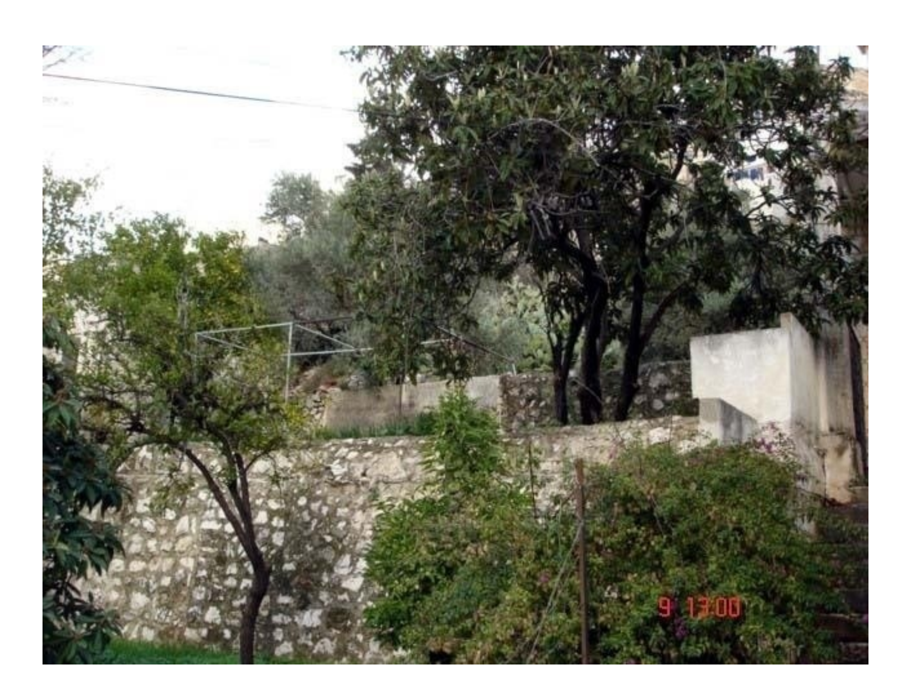
شكل(6–9) : صورة لجزء من مدينة نابلس التقطت عام 1950 ويظهر فيها نظام البناء المتبع على شكل مباني منفصلة تحيطها حدائق مسورة ،

المصدر : (www.nablus.gov.ps) .



شكل (6–10): حديقة منزل آل عناب (شارع بليبوس الأوسط) ويظهر الجدار الخارجي و المصاطب المتلاحقة،

المصدر: الباحث 9\2005.



شكل (6–11): حديقة منزل آل عناب وتظهر أحدى المصاطب المزروعة بالأشجار،
المصدر : الباحث 9\2005

كما نرى العديد من العناصر المعمارية التقليدية في حدائق المجتمعات الإسلامية، مثل عرائش العنب، والشدروان البسيط الذي في الغالب كان يأخذ الشكل الثماني أو الدائري و يتوسط الجلسة المبلطة أو ذات الأرضية الخرسانية والمغطاة بعريشه للعنب أو الياسمين الذي لعب دورا هاما في المجتمع النابلسي خاصة.

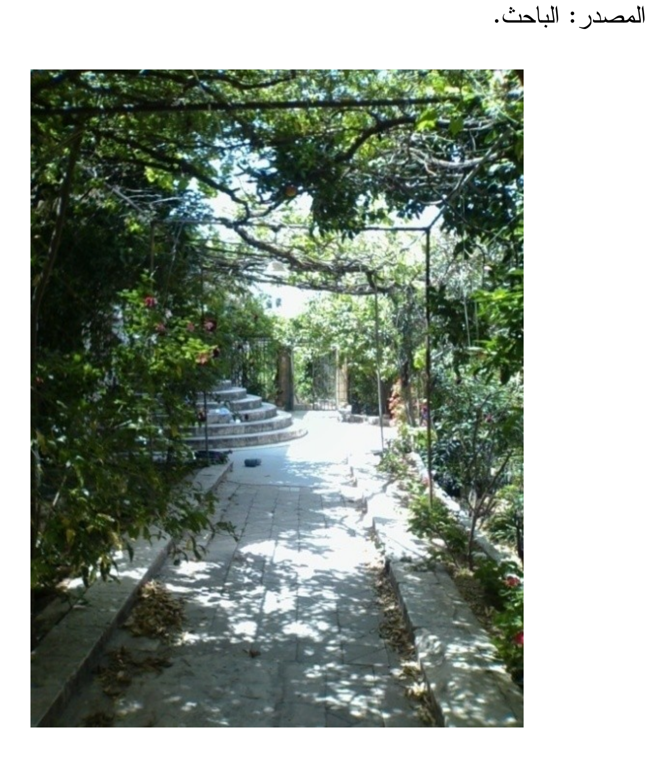
كما زرع الأهالي في نابلس حدائقهم بتشكيله كبيرة من أشجار التين واللوز الخوخ والمشمش والأسكدنيا والحمضيات بالإضافة إلى أشجار السرو والصنوبر التي استخدمت كحاجز للريح وللنظر في المناطق الجبلية بحيث تمنع استراق النظر إلى داخل الحديقة من أماكن أعلى.

ولا شك أن غنى هذه الحدائق وتنوعها لم يكن وليد اللحظة بل نابع من ثقافة طويلة تظهر من خلال ثقافة وعادات أهل منطقة الشام بشكل عام ،حيث اعتاد الأهالي أن تكون أول ثلاثة أشياء تدخل بيوتهم المصحف (رمزا للتمسك بالدين) و المقص (رمزا لنشاط ربة البيت ومهاراتها) والنبتة الخضراء التي اعتبرت رمزا للخصوبة والحياة المثمرة والسعيدة.(معتوق،1986،ص: 118)



شكل(6–12): حديقة منزل آل عناب العلوية، حيث يلاحظ الشدروان الثماني البسيط (مصنوع من الخرسانة) يتوسط الجلسة المرصوفة، ولا تزال عريشه العنب المعدنية قائمة ،كما يلاحظ استخدام الأحواض و أشجار البرتقال و الليمون بكثرة ،

المصدر: الباحث.



شكل(6–13) : جانب من حديقة قصر آل حماد ،في منطقة الشويتره، (ما تبقى من الحديقة والبساتين المحيطة التي كانت مساحتها تزيد عن 14 ألف م2، وفقا للمهندس سامي حماد مدير مركز نابلس الثقافة الذي يشغل جزء من مبنى القصر و الحديقة ويظهر فيها الممرات المبلطة، وأحواض الزهور على الجانبين، كما تظهر عريشه العنب وأشجار البرتقال.

المصدر : (الباحث) .

كما تظهر في هذه الحدائق تشكيلة النباتات الكبيرة التي عرفها المجتمع وتفننت النساء في زراعتها وتسميتها من النباتات ذات الخواص الطبية مثل النعناع والمرمية إلى النباتات الجمالية التي أطلقوا عليها أسماء نابعة من شكلها أو مواصفاتها مثل الشبر والسجادة والنارجيلة والشمسية والأم الهاملة، وأنواع الياسمين والقرنفل البلدي، التي كانت تتوفر في مختلف بيوت البلدة القديمة، حتى التي لم تحوي فناء حيث كانت تزرع في قوارير فخارية وتوضع على النوافذ و الأسطح والأدراج .

وهو ما تؤكده روجر(Roger) في كتابها (Domestic Life in Palestine) من خلال وصفها لأحدى حدائق البلدة القديمة التي زارتها عام 1860 م بقولها: "تركنا المنزل ودخلنا في فناء فسيح، حيث أشجار الليمون والبرتقال والسفرجل تصنع ظلا بهيجا، وأشجار التفاح واللوز مليئة بالأزهار والأرض مغطاة بالكامل بأوراق البنفسج المبعثرة والتي تشبه في شكلها القلب، والمنتشرة بأزهارها الزرقاء، والتي سبق أن رأيتها في براربنا في ممرات الغابات تتجمع بشكل محبب في مجموعات، وتنبت حول جذع شجرة قديمة ولكني لم أرى أبدا استخداما حرفيا لهذه الأزهار كما رأيت في تلك الحديقة النابلسية ".(Qamhieh,1992 ,P.P: 58- 60)

وكما تظهر في تعلقهم بهذه النباتات والأشجار ونقلها معهم من بيوتهم القديمة إلى بيوتهم الجديدة، وهو ما يظهر في أحاديث وروايات الكثير من كبار السن الذين عاصروا تلك المرحلة، ومنها قصة إحدى شجرات الأسكدنيا في حديقة منزل عائلة بعارة التي تعود للستينات من القرن الماضي، والتي لطالما كان المرحوم الحاج رفيق بعارة يفتخر بها، وكيف قاموا بإحضارها من بيت البلدة القديمة حيث كانت مزروعة ببرميل على السطح وزراعتها في الحديقة الجديدة، والتي أصبحت رمزا لذكرياتهم بالبلدة القديمة .

6-3: فترة الحكم الأردني وبداية الاحتلال الإسرائيلي حتى الانتفاضة الأولى(1950-1987):



شكل (6-14) : صورة جوية لمدينة نابلس عام 1967 ،

المصدر : (www.nablus.gov.ps)

لقد شهدت الفترة التي تلت انتهاء الانتداب البريطاني و التي تخللها فترة الحكم الأردني و ما تلاه من الاحتلال الإسرائيلي، فترة تطور في تقنيات وأساليب البناء، حيث ظهر البناء بالخرسانة المسلحة وتوفرت آليات الحفر وكما شهدت انتشار استخدام السيارات في المجتمع الفلسطيني، وانعكس ذلك على الحديقة من خلال التحرر النسبي من تضاريس الأرض الطبيعية، في التشكيل المعماري للمباني والحديقة، حيث أصبحت الأرض تسوى وفق الحاجة.

وظهرت الحاجة لاستحداث مواقف السيارات في داخل فراغ الحديقة، فظهر الكراج كغرفة مقتطعه من زاوية الحديقة، أو ككراج على مستوى الشارع يحاذيه درج يصعد إلى مستوى الحديقة التي تعلوه (حيث يشكل سطحه جلسة مبلطه)، كما يلاحظ في منطقة جامع الحاجة عفيفة في الجبل الشمالي (بيوت قمحية وتفاحة).

وتمثلت بعض الحلول الأخرى في استخدام العرائش كمظله للسيارات وترافقت هذه العملية مع زيادة طول وعرض العريشة التي أصبحت تقع خلف المدخل الرئيسي للبيت الذي أصبحت بوابته عريضة بما يتناسب مع عرض السيارة .

كما وشهدت هذه الفترة دخول أنواع عديدة من نباتات الزينة والأزهار والأشجار الجمالية المستوردة، وظهور بعض المختصين في تصميم الحدائق مثل المرحوم الكوني والمرحوم أبو الوليد العفوري الذي قام في فترة الستينات وبداية السبعينات بتصميم العديد من الحدائق وتقسيمها بشكل جمالي إلى ممرات وأحواض مقسمه بطريقة هندسية وجمالية، مستخدما المواد المحلية المتوفرة بالإضافة إلى عمله في العناية بتشذيب وزراعة الحدائق .



شكل (6–15): صورة من مستشفى رفيديا باتجاه مركز المدينة في بداية السبعينات، تظهر طبيعة مباني تلك الحقبة وإحاطتها بحدائق واسعة، مسورة ومزروعة بالأشجار(يظهر بيت ابو غزالة و بيت شموط (شموط سنتر اليوم)،
المصدر :(www.nablus.gov.ps).

وقد ازداد ثراء وتنوع الحدائق المصممة لدواعي جمالية، وظهرت أشكال التبليط المختلفة ،وتقسيم الحدائق إلى ممرات وأحواض بطريقه حرفية، كما ازداد الاهتمام بالشدروان، والذي ظهر بكسوته وتزيينه في عديد من الحالات بالفسيفساء والأصداف وأنواع الأحجار وبلاط الكراميكا، وأحيانا قطع المرجان البحري .

ومن الأمثلة على حدائق هذه الفترة حديقة منزل آل بعارة في منطقة شارع المريج والتي صممها أبو الوليد العفوري في عام 1964، ويشكل تصميمها مثالا على حدائق تلك الفترة، فخلف البوابة المعدنية

العريضة (بما يسمح بدخول السيارة) تمتد ساحة طولية مبلطه بالحجر الطبيعي ذو الألوان المختلفة، ومغطاة بعريشه معدنية للعنب تمتد من البوابة إلى مدخل المبنى، وتشكل موقفا للسيارات ومظلة لجلسات العائلة في الصيف.



شكل(6–16): صورة لبوابة حديقة أل بعارة، وهي عريضة بحيث تسمح بدخول السيارة ،
المصدر: الباحث .

والحديقة مسورة من جميع النواحي بجدار إسمنتي مرتفع عن الشارع بما يزيد عن ارتفاع مستوى نظر الإنسان ويصل في بعض المناطق إلى أكثر من 220 سم، بينما تم التلاعب بالمنسوب من الداخل بحيث يستطيع الإنسان النظر للخارج ورؤية المحيط .

والأحواض والممرات مقسمة بواسطة أحجار خاصة تشكل لوحة فنية هندسية عضوية، وهي مملوءة بشجيرات الورد البلدي والجوري وتغطي أشجار الحامض والبرتقال عدة أركان من الحديقة، بينما تنتصب شجرة نخل في احد أجزائها، ويقع في جزئها المطل على الخارج جلسة دائرية الشكل مبلطة يتوسطها شدروان دائري مكسو بطريقة فنيه بالفسيفساء والأصداف البحرية.

ولا تخلو الأحواض من الأعشاب التي تستخدم لأسباب علاجية أو حتى لمجرد الاستمتاع بكوب من الشاي بالحديقة مثل النعناع والمرمية وهي من أهم مميزات الحدائق في المجتمعات المسلمة التي تميزت بتعدد الاستخدام وكونها صيدلية المنزل.



شكل(6–17) :   صورة لأحد الجزاء المتبقية من حديقة أل بعارة،

المصدر : الباحث.

وللأسف تعرضت هذه الحديقة للتقسيم والإهمال وخراب أجزاء منها وتحويل استخدام أجزاء أخرى حيث استبدلت أشجار الرمان التي كانت تغطي احد الزوايا بموقف أسمنتي للسيارات، وقضت توسعات البناء على أجزاء أخرى من هذه الحديقة.

كما بدأت المشاتل المتخصصة بنباتات الزينة بالظهور والانتشار في مختلف أنحاء الضفة الغربية متأثرة بالبداية بالسوق الواسعة والمربحة مع السوق الإسرائيلي إلا أن حصة السوق الفلسطيني المحلي ازدادت تدريجيا، حتى أصبحت بعض المشاتل تعتمد عليها بالكامل بعد الإغلاقات المتتالية في الانتفاضة الثانية .

وشهدت هذه الفترة بداية التحولات في أنماط البناء التي أثرت بشكل كبير على الحدائق في فترة لاحقة، وتمثلت بظاهرة البناء العمودي على شكل أبراج سكنية، والظاهرة الأخرى المتمثلة بعضوية البيوت العربية والإسلامية، حيث ينمو البيت وتضاف إليه طوابق وملحقات تتناسب مع توسع الأسرة وزواج الأبناء، بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الأراضي وشحها داخل المدينة نتيجة لسياسات الاحتلال في منع توسعها.

أدى هذا الأمر إلى تناقص مساحات الحدائق في المنازل الجديدة منذ منتصف الثمانينات واقتصارها على مساحة الارتداد القانوني الذي تفرضه أحكام القانون إن لم يتم تجاوزه أحيانا، ولم يقتصر الأمر على البيوت الجديدة بل تعداها إلى الحدائق القائمة، حيث قطعت الأشجار في العديد منها وتقلصت مساحاتها إمام التوسعات والإضافات الجديدة.

وأدى تزايد عدد السكان من العائلة الممتدة الواحدة ضمن المباني التي أصبحت تحوي عدة شقق سكنية إلى تناقص الاهتمام بالحدائق المحيطة بهذه المنازل، وكان هذا ناتجا عن تردي الوضع الاقتصادي لهذه العائلات وظهور مشاكل اجتماعية تتعلق بمن يتحمل المسؤولية وغيرها.

ولم يقتصر الأمر على هذه البيوت الجديدة بل تعداها إلى بيوت البلدة القديمة بأفنيتها الداخلية، وأدى تغير التركيبة الديموغرافية بداخلها من خلال خروج السكان الأصليين وحلول سكان جدد هم في الغالب من طبقة العمال المهاجرين من الأرياف، وتعدد العائلات التي تقتسم فراغ البيت الواحد، مما أدى إلى إهمال الأحواش والحدائق وتقسيمها نظريا وفيزيائيا بجدران وقواطع من الطوب بين هذه العائلات التي لا تجمعها أي صلة قرابة.



شكل(6-18): مخطط فناء وقصر ال المصري في البلدة القديمة والأضافات والتقسيمات (جدران اسمنت وطوب) التي طرأت على الفناء، وتقسيمه بين العائلات المختلفة التي تقطنه ،
المصدر : (سعادة،2005،ص23).



شكل(6-19): صورة توضح التقسيمات التي جرت على فناء قصر ال المصري ،

المصدر : (سعادة،2005، ص27).



شكل (6-20) : صورة توضح الجدار المستحدث الذي يشطر حديقة آل بعارة إلى قسمين،

المصدر : الباحث.

الحدائق العامة في نابلس :

لم تحوي مدينة نابلس سابقا على حدائق عامة، وهو الأمر الذي ينطبق على غالبية المدن الفلسطينية، إلا أنها تميزت بإحاطتها بالبساتين الخضراء والينابيع الجارية وهو ما يؤكده شمس الدين الأنصاري المعروف بالدمشقي في وصفه لنابلس في كتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر": "وإقليم سامره ومدينته نابلس مدينة خصبة نزهة بين جبلين متسعة ما بينهما ذات مياه وحمامات طيّبة وجامع حسن تقام فيه الصلوات وكثير قراءة القرآن به ليلاً ونهاراً والاشتغال فيه كثير، وهي كأنها قصر في بستان"(الدمشقي، ص:200–201)، وهو المتنفس الذي وجدت فيه الكثير من العائلات ملجئا من حر الصيف ومكانا للاستمتاع بمياه الينابيع الدائمة والموسمية والأشجار والأزهار.

ويصف الرحالة البريطاني الكساندر كنغليك (kinglake) الذي زار نابلس عام 1825م بقوله: "وصادف وصولي إلى نابلس وهو أول يوم من سنتهم الجديدة في 29 نيسان 1825م (1 محرم 1251 هـ) وقد خرج الشعب للنزهة خارج المدينة في السهول الجميلة والبساتين المظللة، وكان الرجال منعزلين عن النساء، أما النساء والأطفال فكانوا يتسلون بالأراجيح، ولأول مرة ترى هذه النسوة رجلا في اللباس الأوروبي وكن لطيفات جدا، بحيث رفعن الحجب عن وجوههن وهن يعلمن أن هذا العمل يسر الغريب أكثر من اللعب بالأراجيح، وكانت فرصة لي أن أتمتع بهذا التعبير الفطري المرتسم على الوجوه الخجلة التي اعتادت التحجب الدائم". (KINGSLAKE, 1995,P: 154)

وقد ارتبط جمال الطبيعة الساحرة بكثير من الأغاني والأهازيج التراثية النابلسية مثل الأغنية التي مطلعها:(عين ميرة والتنور فيها زقزق العصفور)، وهي تصف عينان موسميان كانتا تظهران في الربيع في الجهة الشرقية من المدينة وتشكلان مكانا للراحة والنزهات العائلية والشبابية، وهو الأمر الذي يتكرر في حالة دمشق وغوطتها .

وشهدت نهاية الفترة العثمانية إنشاء أولى الحدائق العامة في مدينة نابلس وهي حديقة المنشية (مكتبة البلدية) في منطقة الشويترة، وهي حديقة متوسطة الحجم ترتفع عن الطريق العام بعدة أمتار ومحاطة بالأسوار والمباني من جهاتها الأربعة وتصميمها شبيه بفناء داخلي كبير يحوي الممرات المبلطة وأحواض الزرع والأشجار الطويلة التي تظلل مساحة الحديقة وتوفر الخصوصية لزائريها ويتوسطها شدروان كبير وهي من العناصر والتشكيلات المميزة لحدائق المجتمعات المسلمة.



شكل(6–21): صورة للشدروان في حديقة المنشية ،
المصدر : الباحث.

وقد شكلت هذه الحديقة أول متنفس لرجال وزوار المدينة خارج إطار المنازل الخاصة وهو ما يؤكده محمد رفيق التميمي في توثيقه لرحلته إلى فلسطين في نهاية العصر العثماني وزيارته للمدينة في العام 1909 بقوله:" كانت قصبة نابلس قبل ستة سنين أو سبعة سجنا لغير الوطنيين فلم يكن فيها محل للفرجة ولم يكن فيها قهوة نظيفة كازينو يلجأ أليها أو حديقة غناء يستنشق منها الهواء فكانت البلدة هما وكربا، إلى أن جاءها متصرف غيور فبذل جهده إلى أن انشأ بها حديقة للبلدية في محلة الشويترة في الجهة الغربية من البلدة، وقد تأسست قهوة كازينو بالقرب من الحديقة، ولقد اهتم بمزروعات الحديقة". (غنايم،2000،ص: 90)

أما الحدائق العامة الأخرى فبدأ إنشائها في منتصف القرن العشرين و تركزت في منطقتين، منتزه العائلات في المنطقة الغربية ومنتزه جمال عبد الناصر في المنطقة الشرقية، وتم تقسيم منتزه العائلات في المنطقة الغربية إلى قسمين، عام وهو الأكبر من ناحية المساحة إلا انه بقي مهملا وغير مكتمل، والقسم الثاني شبه عام وهو محاط بالأسوار من جميع النواحي وتم تقييد الدخول إليه وتحديده بالعائلات والنساء، ويحمل العديد من عناصر الحدائق الإسلامية.

فبالإضافة إلى الأسوار تم زراعة أشجار السرو بكثافة في محيطه بحيث تحجب النظر إلى داخل المنتزه وتشكل مصداً للرياح، كما تم تقسيم الحديقة إلى ممرات وأحواض مزروعة بتشكيلة من

الأشجار المثمرة والمزهرة المرتفعة وبعض شجرات النخل، ويتوسط الحديقة نافورة كبيرة (شدروان) دائري الشكل، تحيط به جلسات مبلطه ومحاطة بنباتات الورد، تعلوها عريشه معدنية تغطيها نبتة المجنونة ذات الأزهار البنفسجية.

وما يميز هذه الحديقة هو إحاطة الجلسات التي تتوسط الأحواض بنباتات خاصة (معروفة بميرتل الأسيجة)، تقوم بعمل حاجز بصري يمنح الجالسين نوعا من الخصوصية والفصل عن الجلسات المجاورة وممرات الحركة، وتتشابه العناصر المعمارية لهذه الحديقة مع العديد من الحدائق العامة التي أنشأت في مدن الضفة الغربية في نفس الفترة مثل منتزه بلدية طولكرم ومنتزه بلدية رام الله.



شكل(6–22): صورة لمنتزه بلدية رام الله،

المصدر : (جورج العازر ،2005, ص:++)

إلا أن الحدائق العامة لم تلعب دورا كبيرا في حياة المجتمع في هذه الفترة واقتصر استخدامها على فترات الإجازات والأعياد وبقي عدد مستخدميها ومحدودا وعلى سبيل التغيير لتوفر العديد من البدائل مثل الحدائق الخاصة بالبيوت، ومناطق التنزه الطبيعية في محيط المدينة مثل واد الباذان وفي مختلف مناطق فلسطين التاريخية في الفترة الأولى من الاحتلال.

6-4: مرحلة ما بعد الانتفاضة الأولى ونشأة السلطة الوطنية الفلسطينية:

وقد أدى تراجع دور الفرد في بناء المساكن بتزايد تكلفة البناء والأرض إلى تزايد دور الاستثمار التجاري على شكل أبراج سكنيه منذ عام 1993 مدعوما بطفرة الاستثمار التي تلت اتفاقية أوسلو وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية، مما أدى إلى تراجع دور الفرد والمجتمع في تشكيل المساكن، وتحول حيز الأرض الذي كان يشغله مسكن أسرة متوسطة إلى حيز لبرج سكني لعدد كبير من الأسر المختلفة اجتماعيا وثقافيا وقد يصل عددها في بعض الأحيان إلى أكثر من 36 أسرة.

وقد أدى هذا التغيير إلى تقلص الفراغات المحيطة بالمباني إلى أدنى الحدود التي يتيحها القانون لتحقيق اكبر عائد استثماري ممكن، وتحوله من فراغ اخضر ايجابي إلى فراغ سلبي كمجرد موقف إسمنتي للسيارات وغير صحي غالبا نتيجة لوقوعه تحت المستوى الطبيعي للأرض وتحوله إلى بقعة إسمنتية أو حتى مكب للأتربة والنفايات في بعض الأحيان.

ولأسباب تتعلق بالعائد الإستثماري تم هدم العديد من البيوت التي تعود للفترة الأولى والثانية بما تحويه من حدائق وبساتين، وتحويلها إلى أبراج سكنية، وأدى الانتشار العشوائي لهذا الطراز من المباني والتي تظهر في النسيج العمراني للمدينة مثل الفطر، إلى نشوء مشاكل اجتماعية غير مسبوقة.

بالإضافة إلى النقص في الملاعب والمساحات الخضراء في المناطق السكنية، أدى الانتشار غير المدروس للأبراج إلى سقوط مفهوم الخصوصية التي كان يوفرها السور الذي يحيط بالمباني، من خلال النوافذ المرتفعة التي تطل على داخل الحدائق المجاورة.

وفاقم من المشكلة منظومة القوانين المستخدمة في المدينة والتي على الرغم من التعديلات الكبيرة التي أدخلت عليها بالفترة الأخيرة (تعديلات أنظمة البناء لبلدية نابلس لعام 2006) لم تنجح بتحديد مناطق مخصصة للأبراج ومناطق أخرى للبيوت المستقلة.

وفي محاولة للحصول على الخصوصية قام أصحاب بعض الحدائق برفع أسوارهم عاليا وإحاطتها بألواح من الزينكو والفيبرغلاس (لزيادة ارتفاع السور عن الحد القانوني الذي تتيحه قوانين التنظيم المحلية)، وزيادة عدد الأشجار أو العرائش والمظلات التي تغطي الجلسات، مثل مظلات الفيبرغلاس والكرميد.



شكل (6–23) : صورة توضح مجموعة من المباني الحديثة والارتفاعات والارتدادات المستخدمة، المصدر : الباحث.

إلا أن معظم هذه الحلول كانت محدودة الفعالية، وللبحث عن حل للخصوصية بدأت الطبقة الثرية من سكان المدينة بالبحث عن حلول خارج المخطط التنظيمي للمدينة، من خلال استحداث مناطق جديدة (مثل نابلس الجديدة ومنطقة حوض صرة (1) بالقرب من إسكان العامرية) في مبادرات شخصية من مستثمرين لتوفير مناطق بناء جديدة، يتم فيها البناء وفقا لشروط تنظيمية يضعها صاحب المشروع ويحدد فيها ارتفاعات ومواصفات المباني في تلك المنطقة.

ولا يكاد يخلو بيت من بيوت تلك المناطق من الحدائق التي تحيط بالمنزل، وعلى الرغم من مساحاتها المحدودة الناجمة عن صغر قطع الأراضي بالمنطقة (حيث تتراوح مساحات معظم قطع الأرض في المنطقة بين 500 و600 متر مربع)، إلا أنها بقيت تحمل العديد من عناصر الحدائق في الفترة السابقة.

ولعل الأسوار هي أهم تلك العناصر والتي تميزت في هذه المرحلة بزيادة ثرائها وغناها المعماري خاصة في السور المقابل للشارع حيث أصبح يشكل من الخارج ويكسى بأنواع مختلفة من الأحجار والزخارف والدرابزينات المعدنية التي تهدف لإبراز الثراء والجمالية للمارين من الخارج وهو تغيير كبير جدا في نظرة ومفاهيم المجتمع الفلسطيني.

وبقيت العديد من العناصر التقليدية في حدائق المجتمعات الإسلامية موجودة في هذه الحدائق مثل عرائش العنب والشدروان، إلا أن هذه الفترة التي ترافقت مع المرحلة الثالثة من العولمة والتي يطلق عليها توماس فريدان:" مرحلة العالم بالغ الصغر أو القرية العالمية كما يطلق عليها البعض"، تركت أثارها بشكل واضح على العديد من الحدائق في المجتمع الفلسطيني المحلي. (Lynton, 2007,P:3).

وأصبحت معظم العناصر المعمارية التي تستخدم بالحدائق الفلسطينية مستوردة ومصنعة في بلدان أخرى ولم تعد تعبر في الغالب عن عادات وتقاليد وثقافة المجتمع الفلسطيني المحلي، من الشدروان إلى أنواع البلاط والكسيات المستخدمة في الأرضيات مثل الزفزاف وأعمدة الإنارة والكثير من الديكورات وحتى أنية الزرع واستخدام عشب الإنجيل الأخضر بشكل مكثف.

كما دخلت العديد من الأشجار والنباتات الجديدة التي تستخدم لأغراض جمالية بحته ودخلت عناصر معمارية جديدة مثل موقد الشواء (الباربكيو) ليصبح احد أساسيات تصميم الحدائق، بل أن عملية التصميم في الغالب أصبحت تدار من قبل بعض المهندسين المعماريين الذين ينظرون إليها من ناحية جمالية بحته، وذلك على ما يبدو ناجم عن حالة من الانقطاع بين هؤلاء المصممين وثقافة المجتمع وتأثرهم الكبير بمشاريع الحدائق الغربية.

ومن الأمثلة التي تمكن الباحث من الإطلاع عليها تصميمات لحدائق حديثة في قرية رامون بالقرب من رام الله والتي تمتاز بنسبة عالية من المباني الفخمة والتي يملكها المغتربين الفلسطينيين في الخارج (من تصميم احد المكاتب الهندسية في نابلس)، التي يميل تصميمها بشكل كبير للعضوية من ناحية الممرات والتشكيلات والشلالات.

الحدائق العامة في فترة السلطة الفلسطينية :

لقد ازدادت الحاجة إلى الحدائق العامة في هذه الفترة، نتيجة لتقلص أعداد ومساحات الحدائق الخاصة وزيادة نسبة السكان في الأبراج السكنية، بالإضافة إلى التغيرات الحاصلة في حرية الحركة خاصة بعد انطلاق الانتفاضة الثانية في نهاية العام 2000م وانحسار المناطق الطبيعية المسموح بزيارتها، وقد ظهر ذلك جليا في زيادة عدد المستخدمين للحدائق العامة وشبه العامة والتي بقيت بنيتها وإمكانياتها محدودة ولا تفي بمتطلبات المجتمع المحلي وإن شهدت بعض التحسن وإدماج بعض الأنشطة الثقافية .

ومن الأمثلة على ذلك تحويل منتزه جمال عبد الناصر إلى مركز ثقافي للطفل، وترميم القنطرة في المنتزه العام في المنطقة الغربية وبناء منصة ومدرج للحفلات والأنشطة المختلفة، كما ظهرت الحاجة إلى بناء وتوفير حدائق عامة تفي بحاجة المدينة التي توسعت باضطراد وازداد عدد سكانها.



شكل(6–24) : صورة لمنتزه جمال عبد الناصر في نابلس،
المصدر : الباحث.

وأنشأت بعض الحدائق العامة البسيطة، التي اعتمدت في الغالب على التشكيل الطبيعي للمنطقة وإنشاء بعض الجدران والأدراج، مثل حديقة الكسارات في الجبل الشمالي وحديقة الحرش في الجبل الجنوبي خلف مقر الهلال الأحمر(والتي لا تزال قيد الإنشاء) وبعض الحدائق الصغيرة في الأحياء (مثل حديقة المخفية).

وعلى الرغم من هذه المبادرات إلا أن هذه الحدائق لم تفي بحاجة المجتمع المحلي، لذلك ظهرت بعض المبادرات الخاصة في إنشاء بعض الحدائق شبه العامة، واتخذت منحنيان هما النوادي الخاصة التي تقوم على طبقة معينة من المجتمع (مثل تجربة نادي المدينة إلى الغرب من نابلس) والحدائق العامة التجارية الملحقة بمطاعم مثل منتزه وحديقة ألف ليلة وليلة في منطقة الجنيد، ويمتاز هذا النوع من الحدائق ببنية وتشكيلات معمارية أفضل من مثيلاتها من الحدائق العامة، إلا أن الأحداث التي تلت الانتفاضة الثانية عطلت تطور هذه المشاريع وتوسعها حيث بقيت كتجارب محدودة وغير مؤثرة.

وخلاصة القول أن دور الحديقة بدأ في التراجع في العصر الحالي على مستوى المجتمع الفلسطيني بشكل عام، وهذا يتضح من خلال المقارنة بين العمارة الخضراء في مدينة نابلس في فترة الستينيات من القرن الماضي ومفهوم الحديقة ودورها في الوقت الراهن.

الفصل السابع

النتائج و التوصيات

7-1: النتائج :

من الصعوبة لأي شخص اليوم مهما بلغت سعة إطلاعه الوقوف على الصورة الكاملة لفن وثقافة الحدائق في المجتمعات الإسلامية، حيث أن الفهم الكامل لأي أمر يرتبط بالثقافة المجتمعية بحاجة إلى التعمق في الثقافة من خلال دراسة العلاقات بين مستوياتها الثلاث: المثالية(والتي تتمثل بالقيم العليا للمجتمع)، والمسجلة(عبارة عن الكتب والمخطوطات والفنون المختلفة) والثالثة هي تلك المرتبطة بالتجربة المجتمعية في مكان وزمان محددين.

وهو ما يؤكده رايموند وليمز(Raymond Williams) واضع الأسس العلمية لعملية دراسة وتحليل الثقافة بقوله:" على الرغم من أن من عاش ثقافة المجتمع في مكان وزمان محددين لم يتمكن بالتأكيد من الإطلاع على كامل جوانب هذه الثقافة، إلا أنه يحمل بداخله جوانباً من تلك المرحلة لا يمكن لأي شخص لم يعش في نفس الزمان والمكان مهما بلغت سعة إطلاعه الوقوف عليها وإعادة اكتشافها بالكامل"وذلك يرجع برأيه إلى" أن الثقافة توثق نظريا من خلال الممارسة، وهذه التوثيقات تخضع لعملية تصفية واختيار التقاليد المجتمعية دوريا، والأمرين مختلفان تماما عن الثقافة كما كانت تُحيا". (Williams , 1987, P: 50) .

وقد أدى نقص الاهتمام بدراسة وتوثيق فن تصميم الحدائق في المجتمعات الإسلامية، وبقائه محصورا بالممارسات الفردية التي تراجع دورها اليوم أمام تحديات العولمة والاختلاط الثقافي، وتعرض هذا الفن والعديد من الفنون في المجتمعات الإسلامية للتشويه والكثير من الإدعاءات من قبل العديد من الباحثين سواء بالنسخ أو السرقة من الحضارات الأخرى واكتفاء الباحثين في هذا المجال بأسلوب الوصف المعماري التاريخي، مما أدى إلى ضياع أجزاء كبيرة من مناحي هذا الفن وهذه الثقافة.

ويأتي هذا البحث سعيا لإعادة اكتشاف الخطوط العامة لفن من فنون المجتمعات الإسلامية، وهو فن مرتبط بثقافتها بجوانبها وتعريفاتها المختلفة، وخلال فترات زمنية ومكانية مختلفة، وهادفا إلى إعادة تجميع جزيئاتها المتناثرة كفن أصيل أستطاع التطور والانتقال من جيل إلى جيل عبر مسافات زمنية

ومكانية طويلة، وترسخ ذلك الفن في نفوس المجتمعات الإسلامية واستطاع تجاوز عمليات تصفية التقاليد التي تمارسها المجتمعات بشكل دوري لاشعوري .

ولاشك أن حب الطبيعة غريزة بشرية أصيلة ظهرت في مختلف المجتمعات البشرية المستقرة، إلا أنها في المجتمعات الإسلامية اكتسبت أبعادا ومفاهيم جديدة تمثلت بالارتباط الوثيق بين الممارسة على الأرض والتي لا تزال ماثلة للعيان في كثير من جوانب حياة هذه المجتمعات التي ناقشها البحث، فنراها ماثلة في فنون العمارة والنقش والأدب والتصوير والشعر، وبين القيم المثالية للمجتمع المتمثلة بالمفاهيم الدينية التي مرجعها القرآن الكريم وبين حاجات المجتمع الوظيفية.

واكتسبت عملية تصميم الحدائق في هذه المجتمعات أبعادا ومفاهيم رمزية تمثلت في عملية تصوير الجنة انطلاقا من ثقافتها المرتكزة على الوصف المفصل في القرآن والسنة النبوية الشريفة، ودفع ذلك العديد من الباحثين في هذا الموضوع إلى وصف هذه الحدائق بأنها جنة الله على الأرض، وهو الأمر الذي أكسب هذه الحدائق والعمائر بطانة دقيقة من التجانس المعماري و تشابهاً في أسلوب التصميم، بحيث يجعل الناظر أليها يدرك وحدة الفكر الذي أنتجها، رغم كبر التنوع الجغرافي والاختلاف البيئي على مستوى العالم الإسلامي.

ولاشك أن لاشيء يأتي من العدم ولا تستطيع أي حضارة في العالم أن تدعي أن ثقافتها نقية من أي تمازج مع الحضارات الأخرى، فجميع الثقافات والحضارات هي نتاج لعملية تراكمية من الخبرات والتقنيات والثقافات على مر العصور والتي تتمازج ببعضها البعض من خلال الصلات المختلفة بين الشعوب مثل التجارة واللغة والدين، ألا أن المسلمين تمكنوا من أخذ ما يناسب ثقافتهم ودينهم ومثلهم العليا، وحيدوا مالا يناسبهم في عملية تدريجية طويلة كما ظهر في تعامل المسلمين مع التراث الغني للحضارتين الرومانية والفارسية السابقتين اللتان سادتا المنطقة لفترة من الزمن.

ولقد تمكن المصممون في المجتمعات الإسلامية من إكساب حدائقهم عناصر معمارية ومناحي وظيفية جديدة تتناسب مع حاجات هذه المجتمعات، فأصبحت الحديقة مثلا مكانا متعدد الوظائف مسخر لخدمة الأسرة وأداء أنشطتها المختلفة، ومصدرا للطعام والدواء وتميزت هذه الحدائق بتشكيلة نباتاتها الواسعة والمثمرة، بعد أن كانت في معظم الحضارات السابقة واللاحقة مكانا أحادي الوظيفة مخصص للاستمتاع والنظر مثل الحدائق فارس ما قبل الإسلام، أو حدائق لإنتاج الغذاء كما في حدائق كنائس أوروبا في العصور الوسطى .

ولم تقتصر إضافة المسلمين إلى عناصر الحديقة المعمارية وتشكيلاتها على المفاهيم والرمزيات المستقاة من الوصف القرآني للجنة، بل تعداه إلى إضافة عناصر حسية جديدة تراعي حاجات المجتمع، مثل حاجته إلى الخصوصية، فأصبح إغلاق الحديقة وأحاطتها بالأسوار أمرا فيزيائيا امتازت به عمارة الحدائق في مختلف المجتمعات والحقب الإسلامية، بعد أن كان يقتصر على الإغلاق المجازي سابقا (بإحاطة الحديقة بمجموعة من الأشجار كما رأينا في فارس ما قبل الإسلام)، بالإضافة إلى العديد من التشكيلات المعمارية التي استخدمت لتحقيق الخصوصية وسبق ذكرها خلال الدراسة.

وأما ما يؤكد أصالة و فرادة الحدائق في المجتمعات الإسلامية فهي سلسلة التطور الطويلة التي حدثت على مستوى التشكيلات والعناصر المعمارية، فمختلف هذه العناصر لم تظهر فجأة بل كانت حصيلة لسلسلة طويلة من التجارب المختلفة، و التي تدرجت في مستويات تطورها من زمن إلى أخر ومن مجتمع إلى أخر، إلى أن وصلت أعلى درجاتها في الفترة المغولية في الهند.

وهو الشيء الذي يؤكد زيف أدعاء العديد من الباحثين المستشرقين أن المصممين في المجتمعات الإسلامية قاموا بنسخ وسرقة انجازات الحضارات الأخرى خاصة الفارسية، معتمدين في ذلك على مجموعة من الادعاءات التي فندها البحث، منها عملية تشكيل الحديقة إلى أرباع أربعة بواسطة ممرات وقنوات مائية متعامدة، ناسبين هذه الفكرة إلى الفرس، ومتجاهلين لأصولها السابقة التي تعود إلى ما قبل ذلك بكثير والمتأصلة في ثقافة مجتمعات مابين النهرين، ومتجاهلين أيضا عملية التطوير البطيء وطويل الأمد الذي أدى إلى ظهور القناتين المائيتين المتعامدتين والمتقاطعتين بنافورة في الوسط كتشكيل مركزي للحديقة، وقد أظهرت التحليلات والمقارنات أنها نتاج إسلامي خالص من خلال محاولة هذه المجتمعات على ما يبدو تصوير انهار الجنة الأربعة كما تم توضيحه في الفصول السابقة.

ومما يؤكد تعمق حب هذه الحدائق في نفوس المجتمعات الإسلامية هو تعدد مستوياتها وأنماطها، وعدم اقتصارها على طبقة اجتماعية بعينها أو مكان بعينه، حيث أن الناظر إلى المجتمعات الإسلامية يلاحظ انتشار هذه الحدائق في مختلف المجتمعات والطبقات الاجتماعية، وإن اختلفت الأنماط والمستويات والتطور والغنى بالعناصر من منطقة إلى أخرى ومن طبقة لأخرى تبعا للإمكانات والموارد المتاحة وفترات الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي التي مرت بكل مجتمع .

وقد اقتصرت الحدائق الكبرى على الحدائق الملكية وحدائق المزارات الدينية، وتعد حدائق الأفنية الداخلية أكثر الأنماط انتشارا بين مختلف الطبقات الاجتماعية، ويظهر التباين جليا في مساحتها وغناها في التشكيلات والعناصر المعمارية من طبقة لأخرى ومن مجتمع لأخر.

والمجتمع الفلسطيني هو أحد المجتمعات الإسلامية التي تأثرت بفن الحدائق الإسلامية، حيث انتشرت العديد من الحدائق الجمالية سابقا في بيوت الطبقتين الوسطى والثرية وأن بقيت هذه الحدائق ضمن نمط حدائق الأفنية الداخلية، وبقيت فقيرة من ناحية الزخارف والتشكيلات المعمارية عند مقارنتها بحدائق المجتمعات الأخرى.

إلا أن حب الحدائق تعمق في نفوس أفراد المجتمع الفلسطيني، فوجد تعبيره في التشكيلة النباتية الغنية التي ميزت حدائق بلاد الشام عامة وفلسطين ونابلس خاصة، حيث أصبحت هذه الحدائق مصدرا للطعام والدواء إضافة إلى وظيفتها الجمالية، وهذه النباتات التي لم تفارق حتى اصغر البيوت وأفقر الطبقات، حيث كانت تزرع في قوارير وجرار خاصة، وتسمى بأسماء شعبية.

ولم تغير قوانين ونظم البناء الجديدة التي فرضت في نهاية فترة الحكم العثماني وخلال فترة الانتداب البريطاني و ما تلاه من نظرة المجتمع الفلسطيني والنابلسي خاصة إلى الحديقة، فبقيت الحديقة تلعب وظيفتها المعمارية السابقة كمكان يتمتع بالخصوصية ويستخدم لنشاطات العائلة المختلفة وكمصدر للغذاء والدواء بالإضافة إلى الناحية الجمالية التي تعززت في هذه الفترة.

وشهدت الفترة الأولى التي تعزز فيها دور الفرد في المجتمع الفلسطيني عامة والنابلسي خاصة ازدهارا في إنشاء الحدائق وازديادا في مساحاتها إلى إبعاد جديدة لم تكن متاحة سابقا في البنية التقليدية للبلدة القديمة، وبقيت هذه الحدائق تحمل في طياتها معظم عناصر الحدائق في المجتمعات الإسلامية (معمارية ونباتية) وإن كانت بأساليب وتشكيلات مختلفة، إلا أن هذا الدور الرائد للحديقة في المجتمع الفلسطيني سرعان ما بدأ بالتراجع والانحسار، متأثرا بتراجع الوضع الاقتصادي وارتفاع أسعار الأراضي، مصحوبا بتراجع إمكانات الفرد أمام دور المستثمرين في المجتمع الذين أصبحوا عماد عملية إنشاء وتصميم المباني السكنية الجديدة، وأدى ذلك إلى تراجع مساحات الحدائق واختفائها من العديد من المباني، وحصر الحدائق بالطبقة الثرية من المجتمع وتراجع المقاومة المجتمعية للتركيب الفيزيائي الجديد والغريب للمدن الإسلامية.

وقد أدى غياب الحدائق الخاصة والنقص الحاد في الحدائق العامة في المجتمع الفلسطيني عموما ونابلس خصوصا وعدم مناسبة المتوفر منها في الغالب لحاجات المجتمع ومنها حاجته للخصوصية وافتقارها للكثير من العناصر المعمارية وتزايد دور الاستثمار التجاري، إلى ظهور حاجة ماسة لتدخل الجهات المشرعة لقوانين التنظيم المحلي لتحديد نسبه معينة من قطع الأرض المخصصة للبناء كحدائق مزروعة (وهو إجراء بدء العمل به بمبادرة فردية من بلدية رام الله وبحاجة إلى تبني وتعميم على كافة المناطق الفلسطينية).

7-2: التوصيات:

لاشك أن المجتمع الفلسطيني بحاجة إلى توفير بدائل كافية ومناسبة للحدائق الخاصة التي أصبح من الصعوبة بمكان توفيرها من قبل أفراد الطبقتين المتوسطة والفقيرة، ويترافق ذلك مع نقص حاد في مساحات الحدائق العامة وسوء في توزيعها، وتدن في نوعياتها وفقرا في عناصرها المعمارية والنباتية.

إن الحدائق العامة في المجتمع الفلسطيني بحاجة إلى دراسات وأبحاث مسحية معمقة لتحديد المشاكل التي تعانيها وأسباب عدم ملائمتها للمجتمع لإيجاد حلول مناسبة لها، وذلك من خلال الاسترشاد بالخطوط العامة لهذا البحث والاستفادة من تجارب المجتمعات الأخرى .

كما أن مجال الحدائق في المجتمعات الإسلامية مجال شاسع وبحاجة إلى المزيد من الأبحاث التي تتناول وتوثق وتحلل أنماط وعناصر الحدائق على امتداد العالم الإسلامي والتغيرات التي حصلت على أنماطها منذ بداية القرن العشرين فصاعدا في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية بعينه .

وهنالك حاجة إلى الاهتمام بمجال تصميم الحدائق والبنية الخضراء والمائية (Landscape) من قبل مؤسسات التعليم العالي وكليات العمارة في فلسطين، وذلك من خلال أفراد تخصص عمارة المناطق الخضراء (Landscape Architecture) وهو مجال معتمد في جامعات عالمية عديدة .

كما أن المختصين في مجالات العمارة وتخطيط الحدائق بحاجة إلى توعية وتعريف بالأصول الفكرية لفن الحدائق في المجتمعات الإسلامية والمحلية حيث تقتصر معرفة الغالبية العظمى منهم بالنواحي الشكلية لهذه الحدائق، وذلك من خلال النشرات والدورات وأفراد مساقات جامعية متخصصة بالموضوع، كما أنهم بحاجة إلى فهم أفضل لحاجات المجتمع وإدراكا لمتطلباته وخصوصياته في

مواجهة تحديات العولمة والتبادل الثقافي مع تجارب غربية وأجنبية دخيلة على عادات وتقاليد المجتمعات العربية والإسلامية .

كما أن هناك حاجة لاستحداث قوانين للحفاظ على الحدائق المتبقية وحمايتها من الإهمال والتدمير، من خلال تحديث نظم وقوانين البناء والحفاظ المعماري والحضري، وتوعية المواطنين بأهمية هذه الحدائق .

كما يجب العمل على تشجيع المواطنين على إيجاد الحدائق داخل البيوت والعمارة الخضراء، وذلك من خلال التعاون مع البلديات ومؤسسات المجتمع المدني، وتوعية المواطنين من خلال ندوات علمية والنشرات وتقديم التسهيلات لهم وتزويدهم بالنباتات اللازمة لزراعتها وغيرها.

8: المصادر والمراجع :

الكتب والمراجع العربية :

- البستاني ،كرم و آخرين،"**المنجد في اللغة والأعلام**" ،ط 27 ،بيروت،دار المشرق، 1984.
- أبن منظور،محمد بن مكرم،"**لسان العرب**" ،ط:1 ،ج: 1–15 ،بيروت ،مؤسسة الرسالة،1987.
- صيداوي ،حيان ،"**الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية**" ،ط1، باريس ،دار المتنبي، 1992.
- العميد ،طاهر ،"**تخطيط المدن العربية الإسلامية**" ،ط1، العراق ،جامعة بغداد ،1986 .
- الصياد ،نزار ،"**المدن و العمران في صدر الأسلام**" ،ط1،البحرين ،بيت القرآن ،1996.
- حميدات ،زهير ،" **نعيم الجنة** "،ط1،الخليل ،مكتبة الهدى و الفرقان ،2001.
- سابق،السيد ،" **فقه السنة**" ،ج 1–3 ،ط 1،بيروت ،دار الكتاب العربي ،11\1971.
- إبراهيم ،عبد الباقي ،"**المنظور الإسلامي للنظرية العمرانية**"،1،القاهرة ،مركز الدراسات التخطيطية و العمرانية، 1993.
- شيخ الربوة الدمشقي،شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي،" **كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**"،بيروت،د.ن ،(–19) .
- الاصفهاني،ابي الفرج،**الأغاني**،ج:1–24،تحقيق علي النجدي ناصيف،ط1،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1972.
- المقدسي ،الحافظ ضياء الدين: "**صفة الجنة** "،تحقيق سلامة شاهين،ط1،الرياض ،دار بلنسية ،2002.
- البخاري ،محمد بن اسماعيل ،" **صحيح البخاري**" ،ج 1–4 ،تحقيق محمود نصار ،ط3 ،بيروت ، دار الكتب العلميه ،2003
- غنايم ،زهير وأخرون ،" **فلسطين في نهاية العصر العثماني – من خلال الرحلة التي قام بها محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الكاتب** " ،ج1 ،ط1، عمان ،الجامعة الهاشمية ،2000.
- روفو،فيليب وآخرين ،" **نابلس عمارة مدينه**" ،ط1،باريس القنصلية العامة في فرنسا ،4\2002.
- معتوق،فردريك ،" **التقاليد والعادات الشعبية اللبنانية** "،ط2،لبنان ،جروس برس ،1987.
- أكبر ،جميل ،" **عمارة الأرض في الإسلام – مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية** " ،ط2،الأردن ،دار البشير ،1995.

كتب أجنبية :

- Collin ,P.H. ,**"Harraps 2000 word English Dictionary** ", vol.1, U.K. ,Harraps, 1982.

-Jellicoe ,Geoffrey & Susan,"**The Landscape Of Man**" , vol.1,London ,Thames & Hudson ,1975 **.**

-Grube ,Ernst & others ,"**Architecture Of The Islamic World – The History & Social Meaning "** ,Hong Kong, Thames & Hudson ,1996.

-Hoag ,John D.,**"Islamic Architecture** " ,New York ,Harry N. Abrams ,1977.

-Creswell,KAC." **Early Muslim Architecture**" ,vol. 1,U.K. ,Oxford,1969.

-Behnsi ,Afeef ," **The Great Omayyad Mosque of Damascus**",syria ,Tlass for STB,1989.

-Maurieres ,Arnaud & Eric Ossar,"**Paradise Gardens: Landscape Gardening in the Islamic Tradition**" ,U.K.,I.B.Tauris,2001.

-Bennis ,Eb ,"**The Story of Gardens in Europe – Source Text** ",U.K. ,EGHN ,2006 ,www.swgfl.org.uk/story ofgardens/

-Watson ,Sophie &Katherine Gibson,**"Postmodern Cities & Spaces"**, vol.1,U.S.A,Blackwell,1996.

-Horace ,Jones,**"The Geography of Strabo",**Vol. 5,U.S.A ,the Loeb Classical Library , 1932 **.**

-Cowell ,F.R.,**"The Garden As A Fine Art - From Antiquity To Modern Times**",Vol.1,London ,Weidenfeld & Nicolson ,1978.

-Littlewood ,Antony & Others ,**"Extract from : By *Byzantine Garden Culture*"** *,Vol.1,U.S.A ,Dumbarton Oaks Research library,2002* ,www.doaks.org/etexts.html

-Hasan ,Ahmad & others ,"**History of Civilization of Central Asia**" ,Vol 2,Paris ,UNESCO ,1999.

-Lehrman ,Jonas,**"Earthly Paradise – Garden & Court Yard in Islam** ", vol.1,U.K. ,Thames & Hudson,1980.

-Grabar,Oleg**," Umayyad 'Palace' and the 'Abbasid 'Revolution'. In Early Islamic Art,650-1100",**vol. I, Hampshire, Ashgate Publishing Limited,2005.

-Grabar Oleg ,**"The Formation of Islamic Art**" ,Vol.1,U.S.A ,Yale University Press,1987.

-De Prangey ,Girault, **"Impressions Of Granada & Alhambra**" , vol.1, U.K. ,Garnet Publishing,1996 .

-Petruccioli ,Attilio ,**"Gardens In The Great Muslim Empire,Theory & Design",**vol:1 ,New York ,Brill ,1997.

-Khansari ,Mehdi & others ,**"The Persian garden: echoes of Paradise"** , vol.1,Washington DC ,Mage Publishers,1998.

-KINGSLAKE,Alexander :" **Eothen**",eBook ver : 04.29.93,U.S.A ,World eBook Library PGCC Collection ,6/1995,http://d.scribd.com/docs/cxg7wxtaqoyh0tt4xv0.pdf

-Carmona,M. & others : **"Public Places – Urban Spaces**" , vol.1,U.K.,Architectural Press,2003.
-Gothein ,Marie-Luise , "**History of Garden ART (1928)**" ,e- edition , edited -by -Tom Turner, germany,2001, http://www.gardenvisit.com

-Stuart ,C.M. Villiers **,"Gardens of the Great Mughals (1913)** " ,Online edition ,U.S.A, Gardenvisit.com ,2006.
http://www.gardenvisit.com/book/cm_villiers_stuart_gardens_of_the_great_mughals

-Nurhan Atasoy, "**A Garden for the Sultan – Gardens and flowers in the Ottoman culture"** , vol.1, Istanbul, Aygaz, 2002.

-McIntosh,Christopher ,**"Gardens of the gods - *Myth,Magic and Meaning"*** , vol.1 ,U.K. ,I.B.Tauris ,2004

-Webster, Merriam **, "Merriam-Webster Online Dictionary" ,** U.K**,** Merriam-Webster Online, http://www.merriam-webster.com/dictionary/garden , 2009

-Turner,Tom ," **Garden history : philosophy and design, 2000 BC-2000 AD**", New York, Spon Press, 2005

فصول من كتب :

-Gautier-Van Berchem,M. ,"*The Mosaics of the Dome of the Rock in Jerusalem and of the Great Mosque in Damascus*"**, Early Muslim Architecture** ,Creswell,K. A. C,Vol. 1., Oxford, Clarendon Press,1969.

-Arberry ,A J . : *"Persian Gardens"*,*Chapter 10* **, The Legacy of Persia** ,Vita Sackville-West, U.K.,Oxford University Press, 1953,p.p: 259-291

-Williams ,Raymond ,*"The Analysis of Culture "* ,**Culture,Ideology & Social Process** (a reader) ,Tony Bennett & Ohters , London ,B.T. Batsford Ltd ,1987,p.p: 43-53 .

الأطروحات الجامعية :

-Hooshangi ,Faridah : **"Isfahan –City Of Paradise (A study of Safavid urban pattern and a symbolic interpretation of The Chabar-Bagh gardens)**" ,Master of Architecture Thesis(Un Published) ,Carleton University,Canada ,June 2000.

-Qamhieh ,Khaled :" **saving the Old Town of Nablus ,A Conservation Study" ,**P.H.D. Thesis(Un Published),The Mackintosh School of Architecture ,Glasgow ,6/1992 .

الدوريات :

–عبد الحق،سليم ،"***إعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق***" ،**الحوليات الأثرية السورية**،1:1/1957/5-57 .

–الرطروط ، هيثم ،" ***المسجد الأقصى في الآثار القرآنية***"، **مجلة دراسات بيت المقدس** ، (صيف 2005) ، 1:6، 1–32.

-Ibrahim,Abdelbaki Mohamed ,"***Historical Evolution of the Courtyard in Architecture*",Alam al-Bina** (Cairo: Center for Planning and Architectural Studies) ,204/1998/ 10-13 .

-Allen ,Terry,Some," ***Pre-Mamluk Portions of the Courtyard Façades of the Great Mosque of Aleppo***",***Bulletin d'Études Orientales*** (Institut Français de Damas),35/1983 [1986]/ 7–12.

-Brahmbhatt,Subhash,*"**Ahmedabad: Garden City of the Sultanate and Mughal Period**"* , **Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre** ,2 /1986/ 38-41.

-Salama, Ashraf ***,"A Typological Perspective: The Impact of Cultural Paradigmatic Shifts on the Evolution of Courtyard Houses in Cairo",*METU-JFA** (Ankara,Turkey) ,23:1/ 2006/ 41-58 .

-Lesiuk,S. M. ,*"Landscape planning for energy conservation in the Middle East*",**Ekistics**, January/February/1980 /66-68 .

-El Dabaa,Ahmed & Aly Gabr," ***Paradise Indoors?*** " ,**Medina Magazine** (British Virgin Islands), April – June/1998 / 70 - 74.

-Blakstad ,Ralph,"***what is An Islamic Garden,where is paradise ?"***, **Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre**, 1 /1986/ 20-23.

-Strika ,V. ,"***The Umayyad Garden - Its Origins And Development"*** ,**Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre** ,1 /1986/ 72-75.

-Cerasi ,Maurice***,"frenk,Hind Ve Sind,Real or Imaginary in Aesthetics of Ottoman Open Space*",Environmental Design: Journal of the Islamic Environmental Design Research Centre** ,2 /1986/ 16-23.

-Hamed ,Safei El-Deen ***,"Paradise on earth: Historical gardens of the arid Middle East"* ,The Arid Lands Newsletter** (Desert Architecture III: Building a Sustainable Future) **,36/1994/41-45 .**

-Ruggles ,Fairchild,***"The Mirador in Abbasid & Hispano-Umayyad Garden Typology***",**Muqarnas (An Annual on Islamic Art and Architecture. Oleg** / 1990/ 73-82.7,**Grabar)**

-Weizman,Eyal :" ***Lethal Theory***" , **Log** ,Winter/ Spring /2006/ 53-77 .
www.roundtable.kein.org/files/roundtable/**Weizman_lethal**%20**theory**.pdf

-Petruccioli ,Attilio ,***"Rethinking The Islamic Garden***",**Yale F&ES BULLETIN –Yale Univesity** ,U.S.A ,103/1998 / 349- 362.

منشورات المؤتمرات:

-Daneshdoust,Ya'qub :***"Islamic Gardens in Iran***" ,**Congreso de Granada: 29 octubre-4 noviembre 1973**,Centre de Documentation U.N.E.S.C.O./I.C.O.M.O.S. ,I.C.O.M.O.S.,París,1976 ,71-74 .

مواد وملخصات المساقات :

-Heise,Jennifer,**"Medieval and Renaissance Gardens",**Course Material(Un published) , Society for Creative Anachronism(SCA) ,U.K. ,2004,http://www.gallowglass.org/jadwiga/herbs/medievalgardens.htm

-Rabbat ,Nasser ,**"The Mughal Gardens"**,Course Material(Un published),AGA KHAN PROGRAM FOR ISLAMIC ARCHITECTURE,U.S.A, 4.611/4.613,2008.

-Janick ,Jules ,**"Islamic Influences on Western Agriculture**" ,power Point Presentation(Un published), USA ,Department of Horticulture and Landscape Architecture -Purdue University,USA,2005 http://www.hort.purdue.edu/newcrop/history/lecture22/lec22.html

التقارير و الأبحاث غير المنشورة:

-Llewellyn ,Othman: " **Desert Reclamation and Islamic Law"** ,report, Haj Research Center, Saudi Arabia(Unpublished) ,1980.

– سعادة ،أيمن وأسامة صالح ،**"تقرير عن بيت المصري في البلدة القديمة "**،بحث مساق الحفاظ المعماري (غير منشور) ،قسم الهندسة المعمارية ،جامعة النجاح الوطنية ،نابلس،2006 .

مقالات الصحف و المقالات الكترونية العربية :

–الواصل ،محمد ،*"قصائد رائعة في ذكر مدن الأندلس"* ،**شبكة السوالف – منتدى الشعر الفصيح**، المغرب،2006\9\8، http://www.alswalf.com/vb/showthread.php?t=3660

–حبش،محمد ،*" إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها"* ،**صحيفة الثورة** ،دمشق ،2006/2/17، www.thawra.alwehda.gov.syr

–هزاع،عمر،*" الأكاديون"* ،**منتديات العز الثقافية** ،سوريا ،2006\2\4، http://www.al3ez.net/vb/printthread.php?t=5741

–بكور ،دينا وآخرين ،*"قصر الحير الغربي"* ،**موقع متحف بلا حدود الإلكتروني** ،النمسا ،10/16/ 2007، http://www.discoverislamicart.org

–النتشة ،يوسف و أخرين،"*خربة المفجر*"،**موقع متحف بلا حدود الإلكتروني** ،النمسا ،2007\5\3، http://www.discoverislamicart.org

–الجبلي،أحمد، *" شبام – أقدم ناطحات سحاب في العالم"* ،**صحيفة 26 سبتمبر الأسبوعية** ،اليمن، العدد 1043،ص:27 ,2002/12/5 .

–السويدان ،طارق،"محنة الأيام الأربعة– رحلة الطائف" ،**منتدى طارق السويدان الالكتروني**،السعودية ،2006\9\3،
www. Suwaidan.com/vb1/archive/index.php/t-5421.html

مقالات الصحف و المقالات الإلكترونية الأجنبية :

-Hasan ,Alia F.,*"Overview of Islamic Gardens: PERSIA*"**,www.suite101.com,** USA,22/6/1999**,**p.p:1-3
http://www.suite101.com/article.cfm/arabic_islamic_architecture/21567

-Mirza ,Ariana,,*" Berlin`s New Garden of Paradise"* ,**www.dw-world.de** ,Germany, 26/9/2005,P.P:
http://www.dwworld.de/dw/article/0,2144,1722049,00.html

– موسويان ,محمد, *" أصفهان مدينة أيرانية تضاهي المدن الغربية الحديثة"* (فارسي) ,**موقع معماريي إيران الالكتروني** ,2007\3, www.arcstudent.blogfa.com/cat-4.aspx

-Lynton ,Michael ,*"Globalization and Cultural Diversity*", **The Wall Street Journal**,12 /9/ 2007,http://yaleglobal.yale.edu/display.article?id=9655

-Tulloch ,David ,*"Isfahan"* ,**Places and Spaces web site**,23 /4/ 2007,http://epd372.blogspot.com/2007/05/isfahan.html

-Un Known Author, *"Marib Dam –Yemen"*, **Architectural and Engineering Feats and Facts (blog)** ,4/7/2007,http://architectural-engineering.blogspot.com/2007/07/marib-dam-yemen.html

-Shiffrar, Genevieve," *Archaeologist David Stronach ,the 39th Recipient of the AIA's Gold Medal, Describes Highlights in a Long Career"*, **Berkeleys Liberal Arts College Web Site** ,University of California Berkeley ,U.S.A ,8/6/2004,http://ls.berkeley.edu/new/04/stronach.html
-Unknown Author ,"*URBAN ROMAN ARCHITECTURE: CITIES*" ,**THE HISTORY of the SPANISH ARCHITECTURE wep site**,Spain, 2008 ,http://www.spanisharts.com/arquitectura/i_roma_urbano.html

-UN Known Author ," ***Issue of Scientific Research -Iran – Shiraz***" ,**French foreign Ministry Web Site** ,Archaeological Unit - French foreign Ministry,France ,23/12/2008,http://www.diplomatie.gouv.fr

-Un Known," ***Photographer,Mosaic Inside the Dome Of the Rock***" ,**Approaches to Islamic Art and Architecture – Tabbaa Exposition** , U.S.A ,Art College- Oberlin University,1998, http://www.oberlin.edu/art/images/art109/06.JPG

-Glaire, D. Anderson, *"**Great Mosque of Seville**"* **,ArchNet Digital Library,**Seville,Spain,2001,,www.Archnet.org

-zhuang ,Zhou ,"***China (jiangnan)trip",*** **Zhou Personal plog**,26/4/2008, http://eepj1981.blogspot.com/2008_05_04_archive.html

-OberlinUni,**ArtCollege**,1998,http://www.oberlin.edu/art/images/art109/06.JPG

-Drube,**"Passing the Test of Time"** ,6/3/2006 http://blog.lib.umn.edu/drube004/architecture

-Dickau ,Ruth ," ***Farming older than thought***" , **University of Calgary Web site** , 19/2/2007, http://www.ucalgary.ca/news/feb2007/early-farming

-DeCew, Judith , " ***Privacy***" **,Stanford Encyclopedia of Philosophy ,** 18/9/2006 , http://plato.stanford.edu/entries/privacy/

9: Garden In Islamic Architecture

"An Analytical Study For Its Symbolic meaning & Architectural Function"

Prepared By:

Shafeeq A. Bara

Supervision:

D. Hitham Ratrout

Abstract:

The garden played a great rule in the daily life of Islamic societies ,it was designed as a multipurpose Private outdoor space for everyday family activity ,in addition the gardens design & its architectural elements during the Islamic era embedded many symbolic meanings that made many architects and historians like Safi adin Hamed describe it as " Paradise on Earth ".

Most of the researches on the garden in Islamic societies took the Historical architectural description method for one or more of study cases ,Even it was mentioned by part of the researchers ,the Symbolic aspects of the garden design and it is roots have not been researched specially the main aspect of Privacy ,that played the greatest rule in their design .

The Islamic garden design theory is still fragmented & not clear & even Claimed by some researchers to be stolen by earlier civilizations ,exemplified by the Persian & the Roman claims, this research will use the Comparative Study method Including an analytical historical study for different study cases ,trying to reach & list the basis of Islamic garden theory ,its roots ,the main aspects & the historical evolution of those garden and the transformations on its structure During the last era .

An Najah National University

Dean of Graduate Studies Faculty

Garden In Islamic Architecture

"An Analytical Study For Its Symbolic meaning & Architectural Function"

Prepared By:

Shafeeq A. Bara

Supervision:

D. Hitham Ratrout

Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arts in Architectural Engineering ,Faculty of Graduate Studies , At An-Najah National University , Nablus , Palestine .

2010